جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة البصرة – كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الآخر في نهج البلاغة

قراءة في المرجعيات المشكِّلة للذات ولصورة الآخر

رسالة تقدم بها الطالب

سلام عبد الواحد جبارة

إلى

مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية ـ جامعة البصرة

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

بإشراف الاستاذة الدكتورة:

نضال إبراهيم ياسين

١٤٣٤ هـ ٢٠١٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

صدق الله العظيم

سورة الحجرات: الآية (١٣)

الإهداء

إلى تلكم الروح المتعبة التي حملت هموم الإنسان جرحاً ودواء . . .

إلى تلكم الروح المطمئنة التي رضيت بربها فلم ترَ غيره إلا به . . .

إلى . . .

أبهى قصيدة كتبها الوجود، فأضاءت حروفُها عوالم المُلك والملكوت . . .

إلى مشكاة النبوّة وألق الإمامة . . .

. . . . . .

دمعةً وابتسامةً في محرابك

الباحث

شكر وامتنان

اللهم لك الحمد على ما أنعمت وهديت، ونعوذ بك اللهم من الزلل والزيغ، ونستعينك في أمورنا كلها. وصلِّ اللهم على محمد عبدك ونبيك وأمينك وصفيك وصنيعتك، وعلى أهل بيته الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً، وعلى أصحابه الذين اهتدوا بهديه، وساروا بسيرته.

وبعد...

فإن الإنسان مدين ـ بما هو عليه ـ لما لا يمكن حصره من الأسباب والمقدمات والعوامل، ونتاجه ـ قل أو كثر ـ هو نتاج لاشتغالات هذه الأسباب والعوامل في ذاته. وهذا الجهد، الذي بين أيدينا، مدين بوجوده لتلك الأسباب كلها، قريبها وبعيدها، أولها وآخرها، ومن ثم فإن الإحصاء يعجز عن ذكر كل من يستحق الشكر والثناء، أو كانت له يد في هذا البحث.

سأعتذر بهذا عن الاستطراد في ذكر من أوجبوا عليَّ شكرهم، سائلاً الله تعالى أن يجزيهم بالإحسان إحساناً وأن يمنَّ عليهم بكرمه ولطفه. وسأقف عند أبي الذي لم يمهله الأجل حتى يرى ثمرة عنائه وكدحه، ولم ينتظر ليتعبنا بحمله كما أتعبناه بحملنا، وأمي التي ما تزال تحترق بصمت لتنير ظلمة دنيانا، وعائلتي التي منحتني الكثير وحرمتها الكثير. وأصدقائي الذين حملوا همَّ هذا البحث كما حملته، أو أكثر. وسأخص بالذكر منهم أخي وصديقي علي حسن هذيلي الذي تتضاءل الكلمات أمام عطائه، وأخي وصديقي الأستاذ المساعد الدكتور عباس عودة شنيور الذي كان لوجوده كبير الفائدة والغناء.

والشكر الجزيل والثناء الجميل لجميع أساتذة وإداريي قسم اللغة العربية في كلية التربية لما بذلوه من جهد كبير، وما تعاملوا به من خلق جميل، لا سيما الأستاذة الدكتورة نضال إبراهيم ياسين التي تكبدت عناء الإشراف على هذا البحث فلم تدخر من جهدها ولا وقتها.

الباحث

المحتويات

المقدمة:.....أ

التمهيد:.....١

في معناه اللغوي:.....٢

في معناه الاصطلاحي: ٥

الآخر على وفق رؤية إسلامية:.....٧

الفصل الأول: الـ (أنا): ١٨

مهاد نظري أول: ١٩

مهاد نظري ثان: ٢٢

المبحث الأوَّل: تمظهرات الـ (أنا) ومستوياتها: ٢٦

المستوى الأول: أنا الإمامة أو (الأنا الواقعية):.....٢٦

المستوى الثاني: الـ (أنا) الاجتماعية:.....٣١

المستوى الثالث: الـ (أنا) المحاجِجة:.....٣٤

موازنة بين المستويات:.....٣٦

المبحث الثاني: مرجعيات الـ (أنا): ٣٨

الرسول ﷺ والـ (أنا): ٤٣

القرآن والـ (أنا): ٤٨

قطب الرحى:.....٥٣

المبحث الثالث: الإمامة والمسلمون:.....٥٥

بين الخلافة والإمامة:.....٦٠

الفصل الثاني: الآخر الموافق: ٦٤

مهاد نظري:.....٦٥

المبحث الأول: الرسول ﷺ: ٦٧

أساليب توظيف صورة الرسول ﷺ: ٧٥

الوصف المباشر: ٧٥

التجسيد التمثيلي:.....٨١

المبحث الثاني: المسلم النموذج: ٨٥
آليات تناول صورة الإنسان وتوظيفها في مواجهة واقع الأمة:..... ٨٧
أولا: المقابلة:..... ٨٧
ثانيا: الشحن العاطفي: ٨٩
ثالثا: التوحيد أو التكامل:..... ٩١
رابعا: التعليل:..... ٩٣
الفصل الثالث: الآخر المخالف:..... ٩٦
مهاد تنظيري:..... ٩٧
المبحث الأول: الخلفاء:..... ١٠٠
الخليفة الأول:..... ١٠٧
الخليفة الثاني:..... ١٠٨
الخليفة الثالث: ١١١
المبحث الثاني: المعارضون:..... ١١٧
أصحاب الجمل:..... ١١٧
الخوارج: ١٢٣
الأمويون:..... ١٢٨
المبحث الثالث: الرعية:..... ١٣٤
الخاتمة:..... ١٤٤
المصادر والمراجع:..... ١٤٧

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شَرَعَ الإسلامَ فسهّلَ شرائعَه، وأعزَّ أركانَه، وجعله نوراً لمن استضاء به، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، ربي واجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، على محمد عبدك ورسولك، الفاتح لما سبق، والخاتم لما انغلق، والمعلن الحق بالحق، وعلى أهل بيته الذين بهم يُستعطَى الهدى، ويُستجلَى العمى. اللهم اجعلنا ممن يهتدي بهديهم، ويعتصم بعصمتهم، واجعلهم حجة لنا، ولا تجعلهم حجةً علينا.

وبعد

فإذا كان الآخر هو انعكاس لوعي الذات، فهل ستكون هذه الذات انعكاساً لوعي الآخر؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل سنجد أنفسنا، ونحن نتعامل مع ذواتنا ومع الآخرين، في متاهة الدور الفلسفي، التي لن نخرج منها إلا إليها؟

لعل هذه الإشكالية هي أخطر ما تجاهلته الدراسات الكثيرة التي تناولت موضوع الآخر بالبحث والتحليل. وإذا كان الحياد، في أيّ شيء، أكذوبةً كبيرة، فبأيّ معيار يمكن أن نتعامل مع هذا الآخر الذي يشاركنا وجودنا، وماضينا، ومستقبلنا؟ وهذه إشكالية كبيرة أخرى لم يستطع الجدل حولها أن يلقيَ عصا ترحاله بعدُ، فلم يجد الباحث ـ في حدود اطلاعه ـ تأسيساً لمرجعيات ثابتة يمكن أن ينطلق منها هذا الجدل، أو ينتهي إليها. نعم ثمة محاولات، ودعوات، للانعتاق من إكراهات الذات المنغلقة على نفسها، والمنتفخة بأوهامها، ولكنه انعتاق لم يحدد لنفسه هدفاً، ولم يرسم لها مصيراً.

وإذا كان الكون لا يقبل الفراغ، وكانت جدلية الوجود والعدم والنفي والإثبات لا تزال تُحكم طوقها على عنق الوجود، فهل ثمة مجال لأن نجد في جدلية " لا إله إلا الله " مرسى لرحلة الذات في بحثها عن مرجعيات يمكن أن تجعل من الآخر شريكاً فاعلاً في بنائها لذاتها ولهذا الآخر؟ ومن ثم فهل يمكن لكلمة التوحيد تلك أن تتجسد في إنسان بشكل أكثر إشراقاً من تجسُّدها في عليّ بن أبي طالب عليه السلام؟

لعل هذه الأفكار أو التساؤلات يمكن أن تشكل اختصاراً مقبولاً ـ ولو بدرجة ما ـ لما درج عليه الباحثون الأكاديميون، في مقدمات بحوثهم من ذكرٍ لأسباب اختيار الموضوع، وأهميته العلمية، ولعلها تلقي شيئاً من الضوء على الطريق التي سلكها البحث في معالجة موضوعه.

ولا شك أن لنهج البلاغة من الحضور في الفكر والثقافة الإسلامية والعربية ما لا يخفى على أحد، وهو يصلح وبجدارة لأن يكون منطلقاً لتأسيس رؤى إسلامية أصيلة للكثير من جوانب الحياة المعاصرة، كونه غطى معظم هذه الجوانب: الدينية والسياسية والاجتماعية والإدارية وغيرها، مضافاً إلى ذلك عمق الفكر وأصالة المرجعيات الإسلامية التي تصدر عنها نصوصه، فهي فيوضات ذلك العقل الكبير والروح المتسامية والنفس المطمئنة التي حملها علي بن أبي طالب عليه السلام بين جنبيه، والتي نهلت من ذلك العطاء الإلهي المطلق حتى أشرقت بنوره.

ولعل أهم ما تمتاز به هذه الدراسة عن غيرها من الدراسات التي تناولت هذا الموضوع هو أن الآخر في نهج البلاغة ليس مسيحياً أو يهودياً أو بوذياً، ولا أسود أو أبيض أو أصفر، ولا رومياً أو فارسياً أو هندياً، نعم ليس الآخر في نهج البلاغة كل أولئك بقدر ما هو الآخر المسلم الذي وجده أمير المؤمنين عليه السلام بحاجة إلى إعادة بناء وإعادة صياغة لشخصيته وموقفه إزاء الوجود والحياة، ذلك لأن الجوهر المميز للـ (أنا) في نهج البلاغة ليس الدين الذي طوعته كل فرقة لمرجعياتها وآيديولوجياتها الخاصة، ولا هو اللون الذي تمايز الناس على أساسه فأصبحوا أعراقاً شتى، ولا هو القومية العربية التي ينتمي إليها الإمام بوصفه عربياً قرشياً، بل هو المرجعيات الإلهية الحقيقية التي تصدر عنها الذات في رؤاها ومواقفها وأفعالها. إن جوهر الـ (أنا) هو الإسلام الحقيقي الذي جسده محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إسلاماً واحداً موحداً ليس للطوائف والمذاهب والفرق فيه مجال.

ومن ثم فإن الآخر، على ضوء ما يستفاد من نصوص نهج البلاغة، يمكن أن يكون مسلماً قرشياً كما يمكن أن يكون مسيحياً رومياً، وإذا كان الآخرون قد وجهوا أبصارهم إلى الخارج يريدون أن يغيروا العالم من حولهم، دون أن ينظروا إلى أنفسهم، فإن أمير المؤمنين عليه السلام قد بدأ بالأمة، أولاً، بوصفها قاعدة الارتكاز ومركز الحركة ومنطلقها.

ما يعني أن فكرة الصراع بين الآيديولوجيات والأفكار والمواقف، هي التي تسيطر على جدل هذا البحث بدءاً من العنوان ومروراً بفصول الدراسة وانتهاءً بالخاتمة التي ترى أن الآخر من وجهة نظر أمير المؤمنين عليه السلام يمكن أن يتحد مع الأنا أو يتماهى معها، شرط أن يكون الانتماء المطلق لله تعالى هو المرجعية المشتركة الموجهة للسلوك والرؤى والأفكار.

ولعل أهم الصعوبات التي واجهها الباحث هي حساسية الموضوع إذ اتخذ من نهج البلاغة فضاءً لتأملاته، ولا شك أن في النهج نصوصاً أثارت الجدل والنزاع العقدي بين مذاهب المسلمين،

ولعلها السبب الرئيس في الاختلاف حول نسبة الكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام. وقد حاول الباحث، جهده، أن لا ينزلق فيما يمكن أن ينزلق فيه المتعصبون من هذا الجانب أو ذاك، محتكماً في رؤاه إلى المقولات التي يفصح عنها النص، ومستأنساً ببعض ما يحيط به من مقولات ووقائع تاريخية تساعد على فهم مرجعياته ودلالاته.

وقد حاول الباحث أن يرتكز على تحليل النصوص، والكشف عن حمولاتها، ومرجعياتها، وأنساقها، من خلال قراءة الأحداث والظروف التي أنتجتها أو أسهمت في إنتاجها. إلا أنه لا يدعي التزام هذا المنهج التزاماً حرفياً، بل حاول أن يبقي للبحث فسحة ينفتح من خلالها على جميع الإمكانات التي يتيحها تسلسل الأفكار والمواضيع وتشعبها.

وقد مهد الباحث لدراسته بقراءة تناولت مفهوم الآخر وأبعاده الدلالية، حيث تتبع دلالات الآخر اللغوية معتمداً في ذلك على معاجم اللغة، ومستضيئاً بآراء بعض اللغوين والمفسرين، وانتهى إلى دلالاته الاصطلاحية التي استقرت عليها استعمالات الباحثين المعاصرين. ثم حاول أن يتلمس رؤية إسلامية شاملة لمفهوم الآخر، معتمداً على بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ونصوص نهج البلاغة. ومن خلال هذه الرؤية خط البحث لنفسه تعريفاً إجرائياً يحدد على أساسه رؤيته للآخر موافقاً كان أم مخالفاً.

أما فصول البحث فقد كانت ثلاثة: اهتم الأول منها بالـ (أنا) بوصفها المرجعية التي تتبني على أساسها صورة الآخر، موافقاً كان أم مخالفاً، وطبيعة العلاقة معه، وقد ضم هذا الفصلُ ثلاثة مباحث تناول الأول منها تمظهرات الـ (أنا) ومستوياتها، وتناول الثاني مرجعيات الـ (أنا)، في حين تناول الثالث الإمامة بوصفها حجر الأساس في رؤية الذات لنفسها ومن ثم رؤيتها للآخر.

أما الفصلان الثاني والثالث فقد قاما على أساس قسمة ثنائية متقابلة الطرفين، حيث ينقسم الآخر على وفق الجوهر المميز لـ (أنا) إلى آخر موافق، وآخر مخالف، بحسب المرجعيات التي يصدر عنها هذا الآخر رؤىً وسلوكاً. وإذا كان الجوهر المميز لـ (أنا) هو المرجعيات الإلهية المطلقة، فهذا لا يعني تكفير الآخر المخالف، بقدر ما يعني أن مرجعياتٍ غيرَ إلهية تحكمت في سلوك ما، أو موقف ما، أو رؤية ما لهذا الآخر جعلته يختلف مع الـ (أنا) في مرجعياتها، ومن ثم فإن من الممكن أن يكون هذا الآخر موافقاً، وليس مخالفاً، من زاوية أخرى أو في موقف آخر.

وقد ناقش الفصل الثاني الآخر الموافق. وإذا كانت المرجعيات الإلهية المطلقة هي الجوهر المميز للـ (أنا)، بمعنى أنها هي المشكِّل الوحيد والمطلق لهذه الـ (أنا)، دون أن يكون لغيرها تأثير في تشكلها، فلا شك أننا لن نجد مصداقاً حقيقياً كاملاً للآخر الموافق غير الرسول ﷺ، بسبب من اتفاق المسلمين على عدم عصمة الإنسان، لذلك اقتصر هذا الفصل على مبحثين فقط: المبحث الأول تناول الرسول ﷺ، فيما تناول المبحث الثاني المسلم النموذج، والمقصود به هو النموذج الذي أراد الإسلام بناءه على وفق المرجعيات الإلهية، بوصفه مرجعية ثانوية مكملة لمرجعية الرسول ﷺ ، وهذا يعني أن المسلم النموذج هو مفهوم يسعى كل مسلم إلى الاقتراب منه بقدر طاقاته وإمكاناته، أكثر مما هو مصداق مجسَّد في شخص بعينه، لذلك اقتصر هذا المبحث على دراسة آليات تناول هذا النموذج في نصوص النهج، وكيفية توظيفها. كما اقتصر المبحث الأول على آليات وأساليب توظيف صورة الرسول ﷺ ، لأسباب ذُكِرت في مكانها من المبحث.

أما الفصل الثالث فقد تناول الآخر المخالف ومرجعياته، وقد انقسم إلى ثلاثة مباحث: اهتم الأول منها بالخلفاء والخلافة بوصفها مقابلاً للإمامة التي هي حجر الأساس بالنسبة إلى الـ (أنا)، في حين اهتم المبحث الثاني بالمعارضين: (جماعة الجمل، وجماعة الخوارج، وجماعة صفين)، أما المبحث الثالث فقد اهتم بالرعية بوصفها آخر مخالفاً. ثم انتهى البحث بخاتمة أوجز فيها الباحث أهم النتائج التي توصل إليها خلال دراسته.

وقد أفاد الباحث كثيراً من الدراسات التي عالجت هذا الموضوع بشكل مباشر أو غير مباشر، حيث وفرت له رؤية كلية حول مسارات الجدل والتحليل حول هذا الموضوع، لا سيما دراسات الدكتور عبد الله إبراهيم فيما يتعلق بنقد المركزيات، وبعض الكتب والرسائل والأطروحات العلمية التي تناولت دراسة الآخر في الثقافة العربية والإسلامية فكراً وأدباً، مثل: صورة الآخر في التراث العربي للدكتورة ماجدة حمود، والآخر في الثقافة العربية (صورة شعوب الشرق الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة)، والآخر في الثقافة العربية (صورة الشعوب السوداء عند العرب في العصر الوسيط) للباحث شمس الدين الكيلاني، والتجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر للدكتور أحمد ياسين السليمان، والآخر في الشعر العربي الحديث للدكتور نجم عبد الله كاظم، وصورة الآخر في الخطاب القرآني للدكتور حسين عبيد الشمري، وأصول التعايش مع الآخر للشيخ ياسين حسن عيسى العاملي، وصورة الذات بين أبي فراس الحمداني ومحمود سامي البارودي للباحث ياسر علي عبد سلمان، والهوية والآخر (قراءة في ضفاف النص الشعري) للباحث صالح زامل، والآخر في شعر المتنبي،

رسالة ماجستير تقدم بها الطالب سعد حمد يونس الراشدي إلى مجلس كلية التربية في جامعة الموصل، والآخر في الشعر الأندلسي، رسالة ماجستير تقدم بها الطالب حسن منصور محمد الفريداوي الى مجلس كلية التربية الأساسية في الجامعة المستنصرية، وغيرها. كما أفاد من كتب التاريخ والفكر الإسلامي في إلقاء الضوء على بعض النصوص وتوضيح دلالاتها وسياقاتها، لا سيما النصوص التي تثير بعض الإشكاليات الخلافية.

وبعد... فإن الشكر عرفان للفضل وحفظ للجميل، ولقد كان لجهد الأستاذة الدكتورة نضال إبراهيم ياسين، ولصبرها الدؤوب وأناتها الجميلة، في متابعة كل صغيرة وكبيرة من جزئيات البحث وتفاصيله، ما أغنى البحث، وأنضجه، وأعانه على اقتحام الصعوبات وتذليلها، كما كان لتفهمها واحترامها لشخصية الباحث وأفكاره، حتى وإن كانت مختلفة أو مخالفة لما تتبناه، الأثر الكبير في تعزيز ثقة الباحث بنفسه، ما شجعه على طرح آرائه ورؤاه بشكل أكثر حرية واستقلالاً. فلها من الباحث كل الشكر وكل العرفان وكل الاحترام، كما يتوجه الباحث بالشكر الجزيل والعرفان بالفضل للأساتذة رئيس وأعضاء لجنة المناقشة، لما تكبدوه من عناء القراءة والمناقشة والتقويم، ما سيضفي على البحث الكثير من النضج والسداد.

وختاما فهذا جهد أراد له صاحبه ما يريده كل باحث لبحثه من السداد والنفع، فإن وُفق فلله الحمد والمنة، وإن أخفق فما أُبرئ نفسي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله الأمين، وأهل بيته الطاهرين، وأصحابه المخلصين.

الباحث

التمهيد:

(في مفهوم الآخر)

في معناه اللغوي:

قال ابن فارس: " **الهمزة والخاء والراءُ أصل واحدٌ إليه ترجع فروعُه، وهو خلاف التقدُّم. وهذا قياسٌ أخذْناه عن الخليل** "(١)، وقال الجوهري: " **والآخَرُ بالفتح: أحد الشيئين** " (٢)، وقال ابن سيده: " **والآخر: بمعنى غير، كقولك: رجل آخَرُ، وثوب آخَر، واصله: أأخر، افعل من التأخر**"(٣)، وفي اللسان: " **والآخَر بالفتح أَحد الشيئين... والآخَرُ بمعنى غَير كقولك رجلٌ آخَرُ وثوب آخَرُ وأَصله أَفْعَلُ من التَّأَخُّر** "(٤)، وقال الزَبيدي: " **الآخَر بفَتْحِ الخاءِ: أَحَدُ الشَّيْئين... والآخَرُ بمعنى غَيْرٍ... وأصلُه أفْعَلُ من أخَّر أي تَأَخَّر فمعناه أشَدُّ تَأَخُّراً ثم صار بمعنَى المُغَايِرِ**"(٥).

ولعل في جمع بعض أصحاب المعاجم بين (أحد الشيئين) وبين (الغير) نوعاً من التسامح. إذ كلمة غير تدلُّ على مطلق المغايرة، في حين يدل تركيب (أحد الشيئين) على نوع من المجانسة بين هذين الشيئين، لذلك قال الكفومي: " **ومدلول الآخَر في اللغة خاصٌّ بجِنس ما تَقدَّمَه. فلو قلت: (جاءني زيد وآخر معه) لم يكن الآخر إلا من جنس ما قلته، بخلاف غير فإنها تقع على المغايرة مطلقاً في جنس أو صفة** " (٦).

ويبدو أن معظم معاجم اللغة لم تهتمَّ بهذا التفريق ولم تشر إليه، في حين احتفل به الكثير من المفسرين وأوْلَوه عنايتهم، إذ اختلفوا على أساسه في فهم كلمة (آخرين) في قوله تعالى: " **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخرينَ** "(٧)، فقال بعضهم: إنَّ المراد ناس آخرون لا غير(٨)، وقال آخرون: إنه يمكن أن يكون خلقاً آخرَ غير الإنس (٩).

---

(١) مقاييس اللغة: مادة (اخر).

(٢) الصحاح: مادة (اخر).

(٣) المحكم والمحيط الأعظم: مادة (اخر)

(٤) لسان العرب: مادة (اخر).

(٥) تاج العروس: مادة (اخر)

(٦) الكليات: ٦٢.

(٧) سورة النساء، آية: ١٣٣.

(٨) ينظر مثلاً: البحر المحيط: ٣: ٣٨٣، وروح المعاني: ٥: ١٦٤

(٩) ينظر مثلاً: الكشاف: ١: ٦٠٧، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٢: ١٢٢، وتفسير أبي السعود: ٢: ٢٤١.

كما اهتم بعض علماء اللغة والنحو بهذا التفريق[١] وأوَّلوا ما لا يتناسب معه من كلام العرب. من ذلك أنهم أوَّلوا قول الراعي النميري:

صلَّى على عزةَ الرحمانُ وابنتِها ليلى وصلى على جاراتِها الأُخَرِ [٢]

" **على أنه جعل ابنتها جارةً لها لتكون الأُخَرُ من جنسها، ولولا هذا التقدير لما جاز أن يعقب ذكر البنت بالجارات بل كان يقول وصلى على بناتها الأُخَر**" [٣].

ولعل أقرب الآراء إلى الصواب ـ فيما يراه الباحث ـ هو أن المقصود من اشتراطهم لهذه المجانسة هو " **أن يكون الاسم الموصوف بآخر في اللفظ والتقدير يصح وقوعه على المتقدم الذى قُوبِل بآخر على جهة التواطؤ، نحو جاءني زيد ورجل آخر، وكذلك جاءني زيد وآخر، لان التقدير ورجل آخر، وكذلك جاءني زيد وأخرى، تريد ونسمة أخرى، فكذلك اشتريت فرساً ومركوباً آخر، وأنت تريد بالمركوب جملاً، لان المركوب يصح وقوعه على الفرس والجمل على جهة التواطؤ** "[٤]. وهذا يعني أنهم لا يتحدثون عن الجنس بمعناه المنطقي الحَدِّيِّ، بل عن نوع من المجانسة والمشاكلة أو الاشتراك في أصل ما. وبهذا ـ ومع شيء من التوسع ـ يمكن أن يكون أيُّ شيء في الوجود آخرَ بالنسبة إلى أي شيء آخر؛ لأنهما لا بدَّ أن يشتركا في شيء ما، حتى وإن كان هذا الشيء هو أصل الوجود نفسه. وهكذا يمكن أن تصبح العصا ـ مثلاً ـ في قول أبي حية النميري أخرى مقبولة للساقين[٥]؛ لأنها تشترك معهما في أنها من وسائل المشي:

وكُنتُ أمشي على ثِنْتَينِ مُعتَدِلاً فصرتُ أمشي على أُخرى منَ الشَجَرِ [٦]

ومن الجدير بالذكر أنه لم يرد في القرآن الكريم ـ حسب استقصاء الباحث ـ استخدامُ الآخر، بأية صيغة من صيغه المختلفة، إلا للدلالة على ما يجانس ما قبله، إذا استثنينا اختلاف المفسرين في آية سورة النساء سابقة الذكر.

(١) ينظر في آراء اللغويين ما ذكره صاحب تفسير التحرير والتنوير: ٥: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) ديوان الراعي النميري: ١٢٢.

(٣) درة الغواص في أوهام الخواص: ١٤٦.

(٤) شرح شافية ابن الحاجب: ٤: ٣٦١، وينظر: تفسير روح المعاني: ٥: ١٦٥.

(٥) ينظر: تفسير روح المعاني: ٥: ١٦٥

(٦) شعر أبي حية النميري: ١٨٧. وقد جعله جامع شعره ومحققه ضمن ما ينسب إليه وإلى غيره من الشعر.

وثمة مسألة أخرى تجب مناقشتها إذ أشار ابن فارس وابن سيده وغيرهم ـ كما مرَّ ـ إلى أن الأصل في مادة الآخر هو التأخر، وهذا قد يُثقِل المفهوم بحمولات سلبية مختلفة باختلاف الصيغ اللفظية التي يرد فيها، ومن ثم فإن " **الموقف من الآخَر ربما يتأثر بمعان * المادة على اختلاف صيغها... لأن المادة نفسها تحمل استهجانها، تحمل سلبيتها الدلالية** " (١) من تأخُّرٍ وابتعاد عن الخير أو الفضيلة وما إلى ذلك، كما أن هذا الأصل قد يُوَظَّف للتقوُّل على الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي بما لم يقُلْه، ومن ذلك ما نقله الباحث الشابندر عن أحدهم أنه يقول بأنَّ " **موقف الثقافة الإسلامية من الآخَر بشكل عام يتسم بالسلبية والنفور والرفض، لأن مادة (الهمزة، الألف الممدودة، الخاء، الراء) جاءت في الاستعمال القرآني وهي تنطوي على حمولة من الاستهجان**"(٢). إلا أن الحقيقة أن الاستعمال القرآني لهذه المفردة لم ينحصر في دلالات التأخر والتخلف والاستهجان، بل جاءت " **للإشارة إلى مصاديق وموضوعات ومفاهيم سلبية مثل** " **وَأُخْرَى كَافِرَةٌ** "(٣)، **وأخرى ايجابية مثل** " **وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ** "(٤)، **وثالثة في الإشارة إلى مرتبة راقية في التكوين** " **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ ** خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين** "(٥)، **ورابعة في مقام أقل قيمة قياساً لما سبق** " **وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى** "(٦) "(٧). وهو استعمال محايد لا يترك مجالاً لتحميل المفردة بتلك الحمولات السلبية. وإذا كان لا بدَّ من التأخر في الدلالة، فهو تأخر في الذكر لا غير، فالآخر لا يأتي إلا مقابلاً لما سبقه في الذكر، كقولنا: (جاء رجل وآخر معه)، فيتأخر لفظ الآخر عما قوبل به.

* كذا في المصدر ولعله خطأ طباعي إذ الصواب معاني بإثبات الياء.

(١) الآخر في القرآن: ١٦.

(٢) نفسه: ١٧.

(٣) سورة آل عمران: من الآية: ١٣.

(٤) سورة الصف: من الآية: ١٣.

** ورد في المصدر (فأنشأناه)، ولعله خطأ طباعي، إذ الصواب ما أثبتناه من سورة المؤمنون.

(٥) سورة المؤمنون: من الآية: ١٤.

(٦) سورة طه: من الآية: ١٨.

(٧) الآخر في القرآن: ٢٧.

في معناه الاصطلاحي:

مهما يكن من أمر فقد استقر استعمال الآخر في الدراسات المعاصرة على المعنى العام للمغايرة سواء أكانت هذه المغايرة في العدد أم الماهية [١]، وسواء أكان المغاير شخصاً أم شيئاً آخر، عدواً أم صديقاً، محترماً أم محتقراً، وبهذا يصبح مفهوم الآخر أكثر سيولة وانفتاحاً. بل قد يصبح عصياً على التحديد؛ فهو مفهوم يتأسس على مفهوم الذات المقابل له " **أي أن ثمةَ سمة أساسية جوهرية تحدد مفهوم الذات مما يجعل الآخر مختلفاً عنها، وبالتالي* لا ينتمي إلى نظامها، أياً كان**"[٢]. ومن هنا فإن الآخر قد يكون إنساناً أو مدينة أو حضارة أو شيئاً غير ذلك بحسب طبيعة الذات المقابلة له، وبحسب طبيعة المغايرة بينه وبين هذه الذات. فغير الإنسان آخر بالنسبة إلى الإنسان، وغير المسلم آخر بالنسبة إلى المسلم، وغير العربي آخر بالنسبة إلى العربي، وهكذا فالمصري آخر بالنسبة الى العراقي، والبصري آخر بالنسبة الى العماري، في سلسلة من الثنائيات لا تكاد تنتهي إلى أن تصل إلى الأنا الفردية التي يكون كل الناس ـ فضلاً عن كل الموجودات ـ آخرين بالنسبة إليها. بل قد يُجرِّدُ الإنسانُ من نفسه آخرَ [٣] حين يعيش شيئاً من صراع داخلي حول قضية نفسية أو فكرية.

وهكذا فإن ظاهرة الآخرية هي ظاهرة متجذِّرة في الوجود الإنساني، بل في الوجود كله، هذا الوجود الذي خلقه الله تعالى قائماً على الاختلاف والمغايرة. والعلاقة مع الآخر ـ بمعناها العام ـ هي علاقة مع الوجود الذي يعيش الإنسانُ جزءاً منه، شاء ذلك أم أبى، وطبيعة هذه العلاقة هي التي تحدد هوية الإنسان وموقعه من الكون ودوره فيه.

فالاختلاف بين الإيمان والإلحاد هو في حقيقته اختلاف في طبيعة العلاقة مع الآخر/ الخالق. والاختلاف بين من ينادي بضرورة الحفاظ على البيئة وترشيد استهلاك طاقاتها وثرواتها، وبين من يلوثها ويستنزف هذه الطاقات والثروات، إشباعاً لأطماع شخصية، هو في حقيقته اختلاف في طبيعة العلاقة مع الآخر / المسخَّر (الطبيعة). فهوية الإنسان إذن هي طبيعة علاقته بالآخر، على طول خط الآخرية وعرضه، وما اختلاف الفلسفات والآيديولوجيات عن بعضها ـ سماويةً كانت أم أرضية ـ إلا اختلاف في طبيعة تنظيمها لهذه العلاقة.

---

(١) ينظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ٧١.

* كذا في المصدر.

(٢) دليل الناقد الأدبي: ٢٢.

(٣) ينظر: الآخر في القرآن: ٣٨.

وقد جرت الكثير من الدراسات العربية المعاصرة على تناول الآخر المختلف حضارياً أو دينياً أو عرقياً أو قومياً أو غير ذلك، وقد ركزت أغلب هذه الدراسات على مدى انفتاح العربي المسلم على الآخر وقدرته على قبوله والتعايش معه، أو على محاولة إيجاد مسوغات للمواقف المنغلقة على نفسها في هذا التراث، دون أن تحافظ على مسافة ثابتة من الآخر تعبِّر الذات من خلالها عن شخصيتها ووجودها. كما أنها لم تستطع ـ حسب تقدير الباحث ـ أن تؤدلج موقفاً ثابتاً يستطيع أن يؤطر جميع أنواع الآخر على وفق رؤية كلية مبنية على أساسِ جوهر مميِّز للذات العربية أو الإسلامية يحدِّد هويتها أو يعرِّفها تعريفاً إجرائياً يمكن أن يُحَدَّدَ على أساسه الموقفُ العام من الآخر مهما كان نوعه.

ولعل هذه المواقف، في حقيقتها، ردةُ فعل خارجةٌ عن سيطرة أصحابها تجاه التراث العربي والإسلامي الحافل بأورام الذات وانغلاقها على نفسها، لا سيما في العصور الوسيطة [١]، هذا من جهة، وتجاه السمفونية الغربية المؤدلَجة التي ما زالت تصر على اتهام الإسلام بالوحشية والقمع الذي لا يعترف بحق الآخر في الرأي والاعتقاد، حتى اتخذ السيف وسيلة للتمدد على حساب الآخر من جهة أخرى.

أما الدراسات التي تناولت الآخر الداخلي (الذي ينتمي إلى المنظومة الحضارية أو الدينية أو العرقية نفسها)، فإنها لم تتناوله على ضوء أسس معرفية ثابتة تحدد الجوهر المميز لهذه الذات أو تلك، ومدى علاقتها بالذات العربية أو الإسلامية، ولم تحدد ـ بسبب ذلك ـ الملامحَ الجوهرية للآخر وطبيعة المغايرة بينه وبين الذات، فكانت الآخرية في هذه الدراسات مبنية على ضوء رؤيةٍ شخصيةٍ مؤطَّرةٍ بحدود الشخصية المدروسة كالمتنبي والسياب مثلاً، وهي شخصيات زئبقية ـ أدبياً على أقل تقدير ـ كثيراً ما تتكفئ على نفسها وتغير مواقفها إلى الضد، لأنها بطبيعتها شخصيات ثقافية يشكل المحيط الثقافي والنفسي حجر الأساس في تشكلها وتحولاتها، وبهذا فهي ليست قادرة على التعبير عن ذات جماعية كالذات الإسلامية أو العربية، وليست صالحة لتأسيس موقف واضح المعالم من الآخر مهما كان نوعه.

(١) ينظر في ذلك: المركزية الإسلامية.

الآخر على وفق رؤية إسلامية:

ان سيولة مفهوم الآخر وانفتاحه على مصاديق متعددة ومتغايرة فيما بينها، يجعل من الصعوبة بمكان أن نتحدث عن طبيعة محددة سلفاً للعلاقة معه، فقد تكون علاقة صراع ومغالبة وإقصاء حين يكون الآخر عدواً، وقد تكون علاقة تفاهم وتناغم وتكامل حين يكون صديقاً وحليفاً، وقد تكون علاقة اقتداء وتَمَثُّل حين يكون قدوة ومثالاً، وقد تكون علاقة تقديس أو احتقار أو محايدة، اعتماداً على طبيعة الآخر وطبيعة الذات وطبيعة التمركز حول هذه الذات، والمغايرة بينها وبين الآخر.

من هنا فقد يكون من الضرورة الحديثُ عن خطوط عريضة، يمكن أن تلملم شتات الآخر في أنواع محددة وتربط أجزاءه إلى بعضها برباط متين، ومن ثم عن طبيعة المغايرة بين كل نوع من هذه الأنواع وبين الذات. ومن ثم عن طبيعة العلاقة بين هذا الآخر وبين الذات.

وقد يبدو جليَّاً من خلال المرويات الدينية، وما يحكيه القرآن الكريم عن خلق آدم عليه السلام، وإسكانه الجنة، ثم هبوطه إلى الأرض، أن الإنسان خُلِقَ، منذ أن خُلِقَ، وهو مدرك لذاته وللآخر ولطبيعة علاقته به، سواء أكان هذا الآخر ربَّاً أنعم عليه بنعمة الوجود، أم ملائكةً سجدت له امتثالاً لأمر الله تعالى، أم شيطاناً يوسوس له ليُزِلَّهُ عما كان فيه من النعيم، أم موجوداً آخرَ من موجودات الكون. كما أنه مدرك لتميزه ومغايرته لكل الموجودات الأُخرى: (رب، وملائكة، وشيطان، وجنة، وأرض، وشجر مباح، وشجرة محرمة، وامتثال لأمر الله تعالى، ووسوسة إبليس، وعصيان، واستغفار، وتوبة)؛ إذ ليس من المعقول أن يشعر بطبيعة الاختلاف والمغايرة بين الموجودات ثُم لا يشعر بمغايرته هو لهذه الموجودات وتميزه عنها.

وهذا يجنبنا الحاجة إلى البحث الذي تتكلَّفُهُ بعضُ الدراسات [1] عن اللحظة التي شعر الإنسان فيها بتميزه عن محيطه ومغايرته له؛ إذ هو لم يكن يوماً متماهياً مع هذا المحيط تماهياً تاماً يُفقده القدرةَ على الشعور بأناه وآخرية هذا المحيط؛ فالإنسان خُلِقَ، منذُ أن خُلق، مُدرِكاً ـ إذ لا يصح تكليف ما لا يُدرِك ـ ومُكَلَّفاً، وهذا التكليف ـ بوجه من وجوهه ـ هو الإطار العام المنظِّم لطبيعة العلاقة بين الإنسان وبين الآخر، مهما كان نوع هذا الآخر، ومهما كانت طبيعة المغايرة بينه وبينه.

(١) ينظر مثلاً: صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه: ٤٥، والتجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر: ١٧ وما بعدها،

إن الله تعالى لم يأمر الملائكة أن تسجد لكائن لا يميز بين ذاته وبين شجر أو حجر، بل أمرها أن تسجد لإنسان خلقه في أحسن تقويم، وجعله خليفة له في الأرض، وعلمه الأسماء كلَّها. ومهما كانت طبيعة هذه الأسماء [١] وطبيعة العلم بها، فإن السياق القرآني يدل على أنَّ عِلْمَه بها ميزةٌ اختصه الله تعالى بها، واستحق بها سجود الملائكة له بأمر الله.

كما يبدو أن الطبيعة الأصيلة للعلاقة بين الأنا (الإنسان) والآخر ليست قائمة على الخضوع أو الصراع أو الإخضاع، كما تحاول بعض الدراسات [٢] أن تقول، معتمدة على الفرضيات الغربية التي تُصوِّر الإنسانَ في بداية وجوده على الأرض كائناً هامشياً جاهلاً بحقيقته ومتماهياً مع الطبيعة المحيطة به حدَّ الذوبان والخضوع، ثم وبعد أن يشعر بمغايرته وتميزه، ينتفض على هذه الطبيعة (الأُم)، في صراع طويل من أجل التحرر ومن ثم السيطرة على الطبيعة التي طالما أخضعته وأرهبته، لينعكس هذا الصراع فيما بعد على طبيعة العلاقة بين الإنسان والإنسان، في محاولة لشرعنة قانون الغاب الذي تعتمده القوى الكبرى على الساحة الإنسانية، وتنظِّر له لتبرير وحشيتها تجاه الآخر فكراً وممارسةً.

إن الطبيعة الأصيلة لهذه العلاقة هي التناغم والتكامل بين الإنسان وبين الطبيعة؛ إذ إن الله تعالى استخلف الإنسان في الأرض، وسخر له ما في البر والبحر*، بما يناسب وجوده وفاعليته في أداء دوره الذي خُلِق من أجله. كما أن العلاقة بين الإنسان والإنسان هي علاقة قائمة على التعارف بما فيه من تواصل وألفة وتكامل ومساواة: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**"[٣]. وهذه الآية تشير إلى المرجعية الوحيدة التي يعتمدها الفكر الإسلامي للمفاضلة بين الناس، وهي الجوهر الوحيد الذي تعتمده الذات الإسلامية لتحديد الآخر وتحديد طبيعة العلاقة معه، في الوقت عينه الذي تشير فيه إلى أن الاختلاف حقيقة قائمة ولكنها لا تدعو إلى الإقصاء والفرقة بقدر ما تدعو إلى التقارب والتعارف.

---

(١) ينظر في معنى الأسماء وتعليمها آدم ﷺ: التفسير الكبير: ٢: ١٦١، روح المعاني: ١: ٦٤، الميزان في تفسير القرآن: ١: ١١٢ وما بعدها.

(٢) ينظر: التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر: ٢٤.

* في القرآن الكريم ثمانية عشر موضعاً تنص على تسخير موجودات الكون أو بعضها للإنسان فضلاً عن ثمانية مواضع أخرى تنص على التسخير بصورة عامة، ويمكن أن يفهم منها بيسر أن المُسَخَّرَ له هو الإنسان أيضاً.

(٣) سورة الحجرات: آية: ١٣

إلّا أن ثَمَّةَ صراعاً من نوع آخر يرسم القرآنُ ملامحَه وأبعاده وأهدافَه، هذا الصراع ليس بين الإنسان والطبيعة من حيث الأصل، ولا بين الإنسان والإنسان، بل هو صراع بين الشر والخير، أو قل هو صراع بين التسافل والتكامل، بين ما يريده الشيطان انتقاماً لنفسه وبين ما يريده الله تعالى من أجل تكامل البشرية وسعادتها، وهذا الصراع يتخذ أشكالاً مختلفة وصوراً متعددة كلها تعبر عن الجوهر ذاته، متَّلَهُ ابتداءً وبأجلى صوره صراعُ الشيطان مع الإنسان ـ متمثلاً بآدم عليه السلام ـ في قضية السجود لآدم وما تمخض عنه من قصة الشجرة المحرمة وما تبعها. وإذا كان آدم وحواء عليهما السلام قد تلقَّيا درسهما المرَّ بالطريقة الصعبة، فيبدو أن الأبناء لم يتعظوا بما اتعظ به الآباء على الرغم من كثرة تأكيد القرآن على عداوة الشيطان لهم ولأبويهم من قبل*، فلم يطل العهد حتى أغرى قابيلَ بهابيل مُشْرِعاً بذلك نافذة أخرى من نوافذ الصراع، وميداناً جديداً أبطالُهُ ـ أو قل دُماه ـ بنو آدم أنفسهم.

ويتضح من النص القرآني أن الأصل في هذا الصراع ـ أو المعصية بحسب التعبير القرآني ـ بل وفي كل صراع ومعصية، هو الإنِّيَّة والاستكبار(١) أو الشعور المتضخم بالذات، أو يمكننا أن نستعير لغة الدكتور عبد الله ابراهيم فنقول: هو الاعتصام بالذات، والتحصن وراء أسوارها المنيعة، أو هو التمركز حول الذات الذي يُعرِّفه بأنه " **نمط من التخيُّل المُترفِّع الذي يحبس نفسه ضمن رؤية مقررة سلفاً، فلا يقارب الأشياء إلا عبرها، ويوظف المعطيات كافة من أجل تأكيد صحة فرضياته** "(٢). وهذا التمركز يمارس بطبيعة الحال إقصاءً للآخر، وتهميشاً لوجوده، وتصويرَه بصور دونية (٣)، ابتداءً بإبليسَ ونظرته لآدم عليه السلام حيث " **قَالَ: أَنَا خَيرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** "(٤)، ومروراً بقابيلَ وقتلِهِ هابيلَ في محاولة لإقصاءِ آخرَ لم تستطع الأنا المتضخمة أن تتقبَّلَ تقبُّلَ السماء منه دونها، وانتهاءً بعصرنا الحالي الذي تُمارَسُ فيه كلُّ عمليات التهميش والإقصاء والاحتقار بأساليب " **حضارية ومقنَّنة** ".

إن الشعور بالذات والتمايز عن الآخرين هو حقيقة إنسانية لا يمكن إنكارها أو تجاوزها، بقدر حقيقة المغايرة والاختلاف المتجذرة في الوجود. ولكن التمركز الأعمى حول الذات، وإقصاء الآخر،

* ورد في القرآن الكريم أن الشيطان عدو للإنسان في ستة عشر مورداً من أصل ثلاثة وأربعين مورداً وردت فيها كلمة "عدو".

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٨: ٢٣، ٢٤.

(٢) المركزية الإسلامية: ١٢.

(٣) ينظر: نفسه.

(٤) سورة ص: آية: ٧٦

أو الانتقاص منه، لا يعبر عن سلامة الشعور بالذات واستقلالها بقدر ما يعبر عن رهبة مَرَضِيَّةٍ من الآخر تؤدي إلى الانغلاق التام أمامه بما يحمله من إيجابيات وسلبيات. كما أن التماهي مع الآخر ـ فرداً كان أم جماعةً ـ والانصهار في كل ما يحمله ويمثِّله ليس انفتاحاً على الآخر بقدر ما هو انسحاب وانسحاق أمام هذا الآخر قد لا نجد له ما يسوِّغه بالنسبة إلى ذات تحمل ما تحمله الذات الإسلامية والعربية من تاريخ وحضارة ومقومات. فـ " **اَلَيمِينُ وَالشِّمالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الوُسْطَى هِيَ الجَادَّةُ** "[1]، كما يقول أمير المؤمنين، ولا يمكن أن تكون العلاقة مع الآخر محصورة بين الرفض والإقصاء وبين التماهي والذوبان، إذ لا بدَّ من " جادّة وسطى " تحافظ فيها الذات على ما ثبت صحته من مقوماتها، وفي الوقت عينه تنفتح على الآخر مميزة بين غثِّه وسمينه.

ويبدو أن الممارسات الإقصائية التي حفل بها التاريخ البشري على مستوى الأفراد والجماعات والحضارات دفعت بالكثير من الباحثين إلى الانزلاق في ردة فعل لا تقل خطورة عن الممارسات الإقصائية ذاتها، تلك هي التنازل عن كل الثوابت التي تبتني عليها القيم، بل رفض كل قيمة ثابتة يمكن أن يُقِيْم عليها الإنسان بناءه الفردي أو الاجتماعي، في محاولة للتعايش مع الآخر المختلف مهما كانت متبنياته، ومهما كانت أساليبه في تحقيق هذه المتبنيات، وكأنَّ هذا التعايش لا يمكن أن يكون إلّا بتحييد الـ (أنا) وإلغاء وجودها وفاعليتها. وهذا ما أدخل الدراسات الفكرية والأدبية العربية والإسلامية المعاصرة في مأزق محاولة تطويع التراث العربي والتراث الإسلامي لتبني أفكار وممارسات تُفقِد هذا التراثَ شخصيتَهُ وهويته المميِّزة [2].

يقول الدكتور عبد الله إبراهيم: إن التمركز حول الذات يحتاج إلى " **نقد متحرر من أية مرجعية ثابتة، سواء كانت عرقية أو دينية أو ثقافية، فالمرجعية التي يمكن اعتبارها* الموجِّه لعملية النقد هي الممارسة التحليلية الجريئة التي تتعرض لفك التداخل بين الظواهر التي تلازمت فأوجدت هذا الضرب من التخيل القائم على الرغبة** " [3]. وما من شك في أن المرجعيات العربية والإسلامية التي أسست لهذا التمركز المتورم والخطير حول الذات بحاجة إلى عملية نقد جريئة تستأصل ما علق بالذات الإسلامية من أوهام دخيلة، ومخلفات استطاعت أن تعبُرَ الحد الفاصل بين الجاهلية والإسلام

(١) نهج البلاغة: ٩٧.

(٢) ينظر مثلاً: قراءة بشرية للدين الإسلامي، نقد الخطاب الديني.

* كذا في المصدر.

(٣) المركزية الإسلامية: ١٢، ١٣.

متوارية عن أعين الرقباء. ولكن هل من الممكن ـ عملياً ـ التحرر من "**أية**" مرجعية ثابتة، أم أن المقصود هو التحرر من مرجعيات معينة والإبقاء على أخرى أضمرها النص؟ أليس لهذه الممارسة التحليلية الجريئة من أسس ومبادئ يبتني عليها النقد والتحليل؟ وما النقد إن لم يكن قراءة على وفق معايير معينة؟ ثُمّ أليست الدعوة إلى التحرر من أية مرجعية ثابتة هي بحد ذاتها مرجعية ثابتة؟! وإذا كان الأمر كذلك فما هي هذه المرجعية بعد أن استبعدنا المرجعيات العرقية والدينية والثقافية؟!

" **انَّ العالم كمجال ثقافي سيبقى مضماراً للمنازعة والمدافعة** "[1] ما بقي فيه الإنسان بحمولاته المعرفية والثقافية، وهذه حقيقة لا يمكن أن يغيرها التنازل عن بعض المتبنيات أو كلها، أو التحول من المتبنيات الإسلامية إلى أخرى علمانية مثلاً. كما لا يمكن أن تغيرها أوهامُ احتكار الحقيقة وأوهام التفوق ومحاولة إقصاء الآخر وتهميشه. بل قد تكون حقيقة المنازعة هي المحرك الأكبر لعجلة التطور الإنساني بميادينه المختلفة، ولكن ليس من الضرورة أن تقوم هذه المنازعة على القمع أو أن تتخذ أشكالاً عنيفة، بل يجب أن تمرر عبر غربال من وضوح الرؤية وسلامة القصد.

ولعل بالإمكان الاستفادة من بعض آيات القرآن الكريم ـ لا سيما ما يتعلق باستخلاف آدم عليه السلام في الأرض ـ مع الاستعانة بالخطوط العريضة للفكر الإسلامي في تأسيس بناء نظري متكامل لعلاقة الإنسان بالآخر ـ بأنواعه المختلفة ـ حسب المنظور الإسلامي. ومع أن هذا التأسيس يحتاج إلى بحث مستقل ومجال أوسع، إلا أن البحث سيحاول هنا الإشارة إلى ما يمكن الإشارة إليه والإفادة منه فيما سيأتي من فصوله، دون أن يدَّعيَ احتكار الحقيقة، أو الإحاطة بكل ما يمكن الإحاطة به من جوانب الموضوع:

١. إنَّ ثمة أنواعاً أربعةً من الآخر يمكن أن يشار إليها في مقابل ذات الإنسان، وإنَّ طبيعة علاقة الإنسان مع الآخر محكومة ـ مبدئيَّاً ـ بنوع هذا الآخر، وهي:
   أ . الآخر الخالق (الله تعالى)
   ب . الآخر العدو (إبليس وجنوده)
   ج . الآخر المماثل (الإنسان)
   د . الآخر المُسَخَّر (موجودات الكون الأخرى)

(١) المصدر نفسه: ١٠.

٢. إن الآخر الذي يمتلك وجوداً حقيقياً مستقلاً فاعلاً، والذي تنبثق من طبيعة العلاقة معه طبيعةُ علاقةِ الإنسان مع الآخر ـ بأنواعه الأخرى كلها ـ هو الله تعالى / الآخر الخالق، بحيث تكون هذه العلاقة هي المُوَجِّه والمُشَكِّل لطبيعة العلاقة مع الآخر عدواً كان أم مماثلاً أم مُسَخَّراً. وهذا ما يشير إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: " **ما رأَيتُ شَيئاً إلاّ وَرَأيتُ اللهَ قَبلَهُ وَبَعدَهُ وَمَعَهُ** " [١]. فهو عليه السلام لا يرى لأيِّ وجود استقلالاً عن الوجود الإلهي، ولا يرى شيئاً من هذا الوجود إلا من خلاله، فالعلاقة مع الأشياء ـ كلِّها ـ هي في حقيقتها علاقة مع الله تعالى، وما هذه الأشياء إلا واسطة لتلك العلاقة الأصيلة. فالمسلم يحب ويبغض، ويتفق مع هذا ويختلف مع ذاك، ويفعل هذا الأمر ويترك ذاك بما تمليه عليه طبيعة علاقته مع الله تعالى.

٣. إن العلاقة مع الآخر/ الخالق، والآخر/ العدو، والآخر/ المُسَخَّر، هي علاقة محددة الاتجاه، وهذا لا يعني جمودها وعدم إمكانية تغييرِها، ولكنَّ ثبات طبيعة هذا الآخر بشكل عام يؤدي إلى أن تكون العلاقة معه محددة بخطوط عريضة ثابتة نسبياً؛ فالله تعالى هو الموجود المطلق الذي لا يمكن أن تكون ذاته المقدسة محلّاً للتغيرات، وإبليس هو العدو المطلق الذي نذر نفسه وجنوده لإضلال الإنسان والحط من شأنه، ولا يمكن أن يكون في يوم ما ناصحاً له، وموجودات الكون الأخرى على اختلافها قد سُخِّرَت للإنسان، والإنسان هو سيد هذه الموجودات، ومن ثم فإن طبيعة العلاقة مع هذا الآخر هي علاقة غير متغيرة، أو في الاقل يجب أن لا تكون متغيرة. فلا يمكن أن يكون الله تعالى إلا معبوداً، ولا يمكن أن يكون إبليس إلا عدواً، ولا يمكن لموجودات الكون الأخرى أن تكون معبوداً أو عدواً، بل هي موجودات حيادية، سخرها الله تعالى للإنسان. وهذا لا يسلب الإنسان إرادته وقدرته على الاختيار، فالإنسان يستطيع أن يكون عدواً لله وعبداً للشيطان، ولكن البحث يتحدث عما يجب أن يكون، على وفق ما يستفاد من النصوص القرآنية والفهم الإسلامي العام.

٤. إن العلاقة مع الآخر المماثل/ الإنسان هي علاقة غير ثابتة، ولا يجب أن تكون ثابتة إلا بمقدار ثبات الخط والمنهج الذي يمثله هذا الآخر، فهي في أصلها ليست علاقة مع هذا الإنسان أو ذاك، بقدر ما هي علاقة مع منهج معين وآيديولوجيا معينة، ومن ثم مع هذا الإنسان أو ذاك تبعاً للمنهج الذي ينتمي إليه والحمولة الآيديولوجية التي تحرِّكه، فإذا تحول إنسان ما من منهج إلى آخر تحولت العلاقة معه من شكل إلى آخر، وعليه يجب أن تكون

(١) شرح أصول الكافي: ٣: ٨٣.

الذات منفتحة على الإمكانات كلها في الوقت عينه الذي تكون فيه ملتزمة بثوابتها المبدئية. لهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا** " (١). وهذا الحب والبغض يعتمد بطبيعة الحال على موقع هذا الآخر من الصراع بين التسافل والتكامل، بين الشيطان والله، أو بين العدو والخالق، وليس مهما بعد ذلك أن يكون عربياً أو أعجمياً، أبيضَ أو أسودَ أو أحمر، شريفاً أو ضعيفاً، فـ " **إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ، وأيم اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**"(٢)، بل ليس مهماً أحياناً أن يكون مسلماً أو نصرانياً أو غير ذلك، لأنه إن لم يكن أخاً في الدين فهو نظير في الخلق (٣) كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

٥. ان مركزية العلاقة مع الآخر/الخالق (الله تعالى) تقسم الآخر/المماثل (الإنسان) على قسمين: آخر موافق، وآخر مخالف. وهذه الموافقة أو المخالفة لا يمكن أن تتمحور إلا على طبيعة علاقة هذا الآخر بالله ومدى انسجامه مع الآيديولوجية الإلهية. وبمعنى آخر، فإن هذا الآخر سيكون موافقاً طالما صدر عن مرجعيات ومعايير إلهية، وسيكون مخالفاً طالما صدر عن مرجعيات ومعايير غير إلهية، وليس مهماً بعد ذلك انتماؤه العرقي، أو الجغرافي، أو القومي، أو غيره.

٦. ان العلاقة مع الآخر المخالف آيديولوجياً ليست قائمة على الإقصاء أو التهميش أو المحاربة، بل هي علاقة انفتاح ودعوة إلى الحوار المنتج: " **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** " (٤)، فإن أبى فـ " **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**"(٥). ولكن هذا الانفتاح لا يعني الانسجام مع الآخر المخالف والتماهي معه أو موالاته وإن كان ذا قربى، بل هو لا يمنع من الرفض الفكري القائم على أساس الاستقلال وعدم التبعية: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا**

(١) نهج البلاغة: ٧٧٣.

(٢) صحيح البخاري: ٣: ١٢٨٢.

(٣) ينظر: نهج البلاغة: ٦٦١.

(٤) سورة آل عمران: آية: ٦٤.

(٥) سورة يوسف: آية: ١٠٨.

آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " [١]، إلا أن هذا الرفض أو المقاطعة لا يمنع من المصاحبة بالمعروف: " **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** " [٢]، ولا يمنع من الدفع بالتي هي أحسن[٣] والابتعاد عن الممارسات العنفية، إلا إذا اختار هذا الآخر موقف العداء والمضايقة والحجر على الفكر القويم " **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ. وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**"[٤].

بقيت نقطة لا بد من الوقوف عندها والتركيز عليها وهي أنَّ ثمة ذاتاً يمكن تسميتها (ذاتاً ثقافية) وهي ذات الإنسان عادة، وهذه الذات تتبنى وتتشكل ـ بطبيعة الحال ـ من خلال التفاعل مع محيطها والتأثر بأنساقه وأنماطه ومرجعياته تبعاً لاستعداداتها وإمكاناتها ولطبيعة اتصالها بهذا المحيط. وهذه الذات لا يمكنها بحال من الأحوال أن تدَّعي امتلاك الحقيقة المطلقة، ومن ثم فإن حق الآخر في الاختلاف مع متبنياتها لا يقل عن حقها في امتلاك هذه المتبنيات. وفي هذه الحالة فإنَّ " **نفي الآخر هو نقص في الذات لأن تصور الذات لا ينفصل عن تصور الآخر** " [٥]، بل إن الآخر في هذه الصورة هو جزء من الذات ونفيه يُعَدُّ بتراً لها [٦]؛ لأن الغنى المعرفي لهذه الذات معتمد على مدى انفتاحها على الآخر؛ لأنه مصدر من مصادر ثرائها.

أما إذا كانت الذات مطلقة ـ ونقصد بها الذات الإلهية المقدسة ـ أو كانت ممثِّلةً للمطلق، بمعنى أنها مبتنية على وفق اشتراطات المطلق دون أن يكون لغيره تأثير في تشكلها ـ ونقصد بها ذات الرسول ﷺ مثلاً ـ فلا مجال ـ عندها ـ للحديث عن حق الآخر في الاختلاف معها، داخل منظومتها على أقل تقدير، فلا يمكن أن أكون مسلماً ثم يكون لي الحق في الاختلاف مع الله سبحانه، أو مع

(١) سورة التوبة: آية: ٢٣.

(٢) سورة لقمان: آية: ١٥.

(٣) ينظر: سورة فصلت: آية: ٣٤.

(٤) سورة البقرة: آية ٢١٧.

(٥) صورة الآخر في الخطاب القرآني: ١٦.

(٦) ينظر: صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه: ٢٢.

رسوله ﷺ، لأن " **الإِسْلاَمُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقُ هُوَ الإِقْرَارُ**"(١)، وقد قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: " **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** "(٢).

فلا يمكن أن يكون لإبليس الحق في أن يعصي الله طالما هو مقر له بالعبودية، ولا يمكن أن يكون للمسلم الحق في عصيان ومخالفة الرسول ﷺ طالما هو مقر بالله تعالى ورسالة محمد ﷺ. أما إذا لم يكن مؤمناً بالله أو برسالة محمد ﷺ فالأمر مختلف تماماً، والرسالة لا تلزمه بما تلزم به المؤمنين بها؛ لإن الاختلاف مع المنظومة الإلهية، والخروج عن ثوابتها، لا يعني ـ على المستوى الدنيوي في أقل تقدير ـ إعلان الحرب من قبلها، شرط أن لا يكون هذا الخروج إعلاناً للحرب عليها أو تهديداً لوجودها وحريتها وفاعليتها؛ لأن هدف الإسلام الأساس والنهائي هو إصلاح الإنسان وبناؤه فرداً ومجتمعاً، والحرب، وما تتضمنه من إرغام وإكراه، لا يمكن أن تكون أُسلوباً مناسباً لتأمين هذا الهدف (٣).

انطلاقاً من هذا الفهم فإن الآخر ـ إسلامياً ـ ليس شخصاً بعينه، ولا عرقاً معيناً، ولا قومية ما، بل هو النهج المغاير للمعايير السماوية. والفكر الإسلامي لا يدَّعي أنه يحتكر هذه المعايير، بقدر ما يدعو إلى الانفتاح على الآخر والتفاعل معه إيجابياً على وفقها: " **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** " (٤)، شرط أن يكون هذا الآخر يصدر عن مرجعيات سماوية حقيقية.

ويبدو أن عدم التفريق بين الآيديولوجيات التي تنتمي إلى أصول سماوية حقيقية وبين الأخرى المتقاطعة مع السماء من جانب، والتداخل بين الآيديولوجيا وحامل هذه الآيديولوجيا من جانب آخر، أحدث إرباكاً في فهم هذه القضية على وضوحها. يقول الباحث غالب حسن الشابندر في سياق الحديث عن الموقف القرآني من الآخر: " **فأصبح الآخر هو المسيحي واليهودي والماركسي والمسلم**

(١) نهج البلاغة: ٧٤٠.
(٢) سورة النساء: آية: ٦٥.
(٣) ينظر: بين الجاهلية والإسلام: ٧٤.
(٤) سورة آل عمران: آية: ٦٤.

والقومي والبوذي، فيما المقصود في العمق المسيحية واليهودية والبوذية والماركسية"[١]. وفي هذا خلط غير مبرر بين الماركسية والبوذية من جانب، وبين اليهودية والمسيحية من جانب آخر، فإذا كان هذا الحديث يصدق على الماركسية التي تتعارض وتتقاطع أصلاً مع الفكر الديني، فإنه لا يمكن أن يصدق على اليهودية والمسيحية إلا بمقدار ما تعرضت له من تحريف أبعدها عن خط السماء ومرجعياتها، وإلا فإن القرآن صريح في عدم تفريقه بين الديانات الإلهية طالما حافظت على ثوابتها. يقول تعالى: " **إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** "[٢].

إن الوعد الإلهي قرن سعادة الإنسان في الأرض بأمرين هما: الهدى الإلهي أولاً، واتِّباع هذا الهدى من قبل الإنسان ثانياً، في قوله تعالى: " **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** " [٣]، ولئن كان وجود الهدى الإلهي الذي وُعِد به الإنسان قد تحقق عبر رسالات السماء عموماً ورسالة الإسلام خصوصاً، بوصفها الرسالة الخاتمة الكاملة، فإن الخطوة الثانية منوطة بالإنسان نفسه، يستطيع أن يتَّبع هدى الله فلا يرى شيئاً إلا ويرى الله قبله وبعده ومعه، ويستطيع أن لا يبصر أبداً إذا كان ممن يستحبون العمى على الهدى.

إنَّ العلاقة مع الآخر هي في حقيقتها انعكاس للعلاقة مع الله تعالى، وبما أن المعايير الإلهية تعتمد التقوى مرجعيةً للقرب والمفاضلة " **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** " [٤]، والتقوى هنا لا يمكن أن تُفهَم بمعنى السلبية والسكون، بل هي إحساسٌ موجِّهٌ ومُحفِّزٌ للفكر والعمل معاً، وبمعنى آخر فإن هذه التقوى، لكي تكون مُقرِّبةً إلى الله تعالى، يجب أن تُتَرجَم نهجاً في الحياة، وفاعليةً في السير على هذا النهج، وبهذا فإن أكرم الناس عند الله هو أحفظهم لشريعته روحاً وفكراً وممارسةً، وعلى أساس هذا القرب أو البعد يجب أن تتبني العلاقة مع الآخر.

وبهذا الفهم لن يكون الآخر مشركاً أو مسيحياً أو يهودياً أو بوذياً أو ماركسياً إلا بالقدر نفسه الذي يمكن أن يكون فيه مسلماً يشهد الشهادتين ويقرأ القرآن ويصلي خمس مرات في اليوم، سواء

(١) الآخر في القرآن: ٤٠.

(٢) سورة المائدة: آية: ٦٩، وينظر: سورة البقرة: آية: ٦٢.

(٣) سورة طه: آية: ١٢٣، ١٢٤.

(٤) سورة الحجرات: آية: ١٣.

أكان هذا المسلم منافقاً أظهر الإسلام وأضمر خلافه، أو كان جاهلاً لا يعرف من الإسلام إلا الجبهة السوداء، وكثرة قراءة القرآن. ولقد كان المنافقون أشدَّ خطراً على الإسلام من المشركين أنفسهم، ولم ينل المشركون من الإسلام ما ناله المنافقون، وحسبهم أن القرآن أنزل فيهم سورة كاملة، وقال فيهم: "... **هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** " [1]

(١) سورة المنافقون: آية: ٤.

الفصل الأول: الـ (أنا):

(مستوياتها ومرجعياتها)

مهاد نظري أول:

ثمة حاجاتٌ مركوزةٌ في صميمِ الفطرةِ الإنسانيةِ، حاجاتٌ تتجاوزُ في رسوخِها وشموليتِها الزمانَ والمكانَ والحضارةَ؛ فقد استشعرها إنسانُ الكهف قبل آلاف السنين، كما يستشعرها الإنسانُ المعاصرُ اليومَ، وإن اختلفت الصيغُ والأساليبُ في التعبير عنها. ومن هذه الحاجات حاجتُه إلى التكامل، سواء كان هذا التكامل على مستوى الإنسان نفسه أو على مستوى العالم الذي يعيش فيه. ولعل استقراءَ التاريخِ الإنساني بمختلفِ مراحلِهِ يُبَيِّنُ مدى طغيانِ شعورِهِ بالنقص في ذاته، وبالغربةِ وعدمِ الانتماءِ إلى محيطه الذي يعيش فيه، ونزوعِه إلى ما هو أكملُ وأسمى، وقد عبرت عن هذا النزوع أقدمُ ملحمة معروفة في التاريخ الإنساني، حيث جاء فيها على لسان جلجامش: " **إنني لست من هنا... إنني غريب تحت وطأة هذا التراب... إنني غريب في هذه السماء، وهذه السماء تضيِّق علي روحي وتخنقني... أيتها الآلهة انتشليني من هنا... وخذيني إلى هناك** " [١]، كما عبَّرَ عنه إنسانُ الكهف في جدارياته، وإنسانُ اثينا في فلسفته، والإنسانُ المعاصر في أدبياته.

إنَّ رحلةَ جلجامش وبحثَه عن الخلود في العوالم الأخرى، ومدينةَ أفلاطون الفاضلة، واغترابَ الأديبِ المعاصر وثورتَهُ على عالمه، وهروبَهُ إلى عالم الخيال حينا وإلى الفنتازيا حينا آخر، ما هي إلا استشعارٌ للنقص المُتَرَسِّخ في وجوده وفي عالمه، ونزوعٌ إلى الكمال، كمال العالم وكمال الفرد الإنساني. وهذا النزوع كان يشكل " **اللب والروح في جميع الأديان والعقائد والفلسفات القديمة، كما هو الحال في روح الفلسفة الآرية وروح فلسفة الصين وفلسفة الهند** " [٢]. ولعلَّ نزوع الإنسان إلى الارتباط بالأشباح والأرواح والطواطم وغيرها من القوى المشخصة في عوالم الإنسان البدئي تجسيدٌ آخر لإحساس الإنسان بعدم كمال ذاته، وعدم كمال عالمه، ونزوعٌ إلى كمالهما معاً [٣].

إن نزوع الإنسان إلى تكامل عالمه اضطرّه إلى خلق عوالمَ مثاليةٍ، خالية مما يراه ويعيشه من نقص، فصنع عالمَ المثل والمدينةَ الفاضلة والعالمَ العلوي وغيرَها، ونزوعه إلى الكمال على مستوى الفرد الإنساني اضطرّه إلى خلق نماذجَ مثاليةٍ وأبطالٍ خارقين، يتطلَّع إليهم ويتغنى بهم في أساطيره وأدبياته، سواء أكان خلقاً من العدم أم كان تضخيماً لأبطالٍ واقعيين يُسبغ عليهم الخيالُ الإنساني ـ

(١) نقلاً عن: الإمام علي: ٣٤، إذ لم يجد الباحث هذا النص في ملحمة جلجامش، ولعل الدكتور شريعتي قد نقل هذا النص من مصدر آخر غير الملحمة لم يهتد إليه الباحث، أو لعل اختلاف الترجمات هو السبب في ذلك.

(٢) الإمام علي: ٦٠.

(٣) ينظر: التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر: ٢٥.

الذي تحركه الحاجة الى الكمال ـ كلَّ ما من شأنه أن يسدَّ النقصَ الذي يستشعره الإنسانُ في نفسه وفي غيره من بني البشر، فتراه يصنع نماذجَ سامية لكل القيم والمثل التي يبحث عنها، ولا يجدها في محيطه، كالتضحية والشجاعة والعلم والجمال وغير ذلك. إلا أن هذا الخلق الإنساني الذهني، وإن كان يسُدُّ ـ ذهنياً ـ حاجاته وتطلعاته، فإنه يعاني من مشكلتين:

الأولى: أنه لا يخرج عن حدود الخيال إلى الواقع المعاش؛ فهو مجرد حلم جميل ينتمي إلى عالم الأسطورة واليوتوبيا. إنه يدغدغ آمال الإنسان وأحلامه، ولكنه لا يسمن ولا يغني عن جوع. وهذا الخيال قد ينكفئُ على نفسه أحياناً دون أن يحقق ما يصبو إليه، وأفعى جلجامش شاهدة على ذلك إذ: " **أبصر جلجامش بئراً باردة الماء، فورد (نزل) فيها ليغتسل في مائها، فشمت الحية شذى (نفس) النبات، فتسللت واختطفت النبات، ثم نزعت عنها جلدها، وعند ذاك جلس جلجامش وأخذ يبكي، حتى جرت دموعه على وجنتيه**"(١).

والثانية: أن الإنسان وإن أدرك نقصه وحاجته إلى التكامل إلا أنه لا يستطيع أن يُشخِّصَ المصداق الحقيقي لكماله المنشود، وإن فرضنا قدرته على ذلك، فإنه لا يستطيع تشخيص السبيل الموصل إلى تحقيق هذا الكمال أو المحافظة عليه (٢). وقد تفرقت الإنسانية في ذلك مذاهب شتى، ووُضِعت الفلسفاتُ والأيديولوجياتُ والمذاهبُ المختلفةُ باختلاف واضعيها، وتصارعت فيما بينها بالفكر حيناً، وبأقسى ما وصل اليه العقل الإنساني من أسلحة الدمار والفناء حيناً آخر.

أمَّا رسالات السماء فهي تحدِّد وتجسِّد المصداق الحقيقي للكمال الذي تنشده الإنسانية تجسيداً واقعياً حياً، على مستوى الإنسان أولاً، وعلى مستوى العالم الذي يعيش فيه ثانياً، كما تبيِّن الطريق المثلى المؤدية إليه، وتعلِّم كيفية الحفاظ عليه، وهي بهذا تتكفل إشباع جميع حاجات الإنسان في طريقه نحو التكامل. فقد أشبعت حاجته إلى العالم المتكامل بالجنة التي وُعِد بها الإنسان لتكون ملاذه الأخير، وأشبعت حاجته إلى تكامله النوعي ببعث الأنبياء والرسل نماذجَ انسانيةً واقعيةً تجسِّد المصداقَ الحقيقي الأسمى للكمال الإنساني، وتهدي إلى السراط المستقيم الذي يأخذ بيدها في مسيرتها نحو هدفها.

(١) ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان: ١٠٣.

(٢) ينظر: نظرية الإمامة رؤية قرآنية: ٤٣.

إن العالم المشوب بالنقص الذي يعيش فيه الإنسان ليس هو عالمه الحقيقي، بل هو لعب ولهو. إنه سجن كما يُعبِّر الحديث النبوي [١]، وهو مجرد خطوة في الطريق إلى العالم الحقيقي الذي لا يشوبه نقصٌ ولا فناء " **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** "[٢]. أما النقص الذي يشوب الإنسانَ نفسَه فهو نقص مرحليٌّ أيضاً، فالإنسان في هذه الحياة إنما يسير في طريق تكامله، والنموذجُ الأسمى الذي يَؤُمُّهُ في طريقه هذا هو الرسول، وهو بشرٌ واقعي يمشي على الأرض تراه وتسمعه وتتحسسه وتتفاعل معه بمنتهى الواقعية، وهو يمثل النموذجَ الأسمى لكل ما تهفو إليه الإنسانية من صفات السمو والكمال، وعليها أن تتمثل به وتقتدي به لتصل إلى كمالها المنشود: " **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** " [٣].

إذن فوجود النبي حاجة إنسانية لأنّه يلبي نداء الفطرة الإنسانية في نزوعها إلى التكامل، وبما أن هذه الفطرة موجودة ومستمرة باستمرار الوجود الإنساني على الأرض، وبما أن النبي مهما عمّر لا يستطيع أن يغطي ـ زمانياً ـ إلا مدَّة حياته، ولا يستطيع أن يغطي ـ مكانياً ـ إلا المساحة التي يمارس فيها حياته الطبيعية أو قريباً منها، فهو يحتاج في استكمال دوره إلى آخرين يتحرك من خلالهم في الزمان والمكان، وبمقدار قرب هؤلاء الأشخاص من روح النبوة وبمقدار ما استوعبوه منها، يمكن أن تكون دعوتهم امتداداً حقيقياً للرسالة التي يحملها النبي، والتاريخ الديني حافل بمثل هؤلاء الأشخاص الذين مثّلوا النبي: أو بتعبير آخر امتدَّ الوجود النبوي من خلالهم زمانياً ومكانياً، كالأسباط والحواريين والأوصياء وغيرهم.

(١) ينظر: صحيح مسلم: ٤: ٢٢٧٢: " الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ ".

(٢) سورة العنكبوت: آية: ٦٤.

(٣) سورة الأحزاب: آية: ٢١.

مهاد نظري ثان:

لعلنا لا نختلف في ان هدف رسالات السماء، مهما تعددت ومهما اختلفت المجتمعات التي نزلت فيها، هو بناءُ الانسان فكراً وروحاً وسلوكاً، من أجل تهيئته لحمل اعباء دوره في خلافة الأرض، وذلك من خلال ربطه بربِّه وبمعاده أولاً، ومن خلال المضامين العقيدية والفكرية والقيم الخُلُقية والسلوكية التي تتبناها الرسالة وتعمل على غرسها وترسيخها في نفسه ثانياً.

فالارتباط بالمطلق هو الذي يعطي حياةَ الإنسان، ووجودَه على الأرض، معنى وهدفاً، ويجعله أكثر وعياً لذاته وإدراكاً لدوره في الوجود، حيث يكون هذا الوعيُ فنَ حياةٍ وممارسةً عمليةً لعلاقة الإنسان بنفسه وبمحيطه وبالآخرين (١)، وليس مجرد معرفة نظرية، او ترف فكري لا علاقةَ له بهموم الإنسانية وتطلعاتها. وهو بهذا المعنى ضرورةٌ لا غنى عنها، بل لا يمكن أن نتصور حياة الإنسان إذا لم يكن واعياً لذاته ومدركاً لأهدافه، وبتعبير أمير المؤمنين عليه السلام: " **هلك امرؤ لم يعرف قدره** " (٢). والدعوة الى معرفة النفس بهذا المعنى تصبح " **دعوة إلى الحكمة** " (٣)، ومن ثَمَّ محوراً لجميع الكمالات الإنسانية، وأول هذه الكمالات معرفة الباري عز وجلّ، فـ " **من عرف نفسه فقد عرف ربه** " (٤). وهكذا تكون حركة الإنسان بين نفسه وربه على مسرح الحياة عروجاً متواصلاً نحو الكمال الإلهي المطلق: " **يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ** " (٥)، من أجل تحقيق كماله النوعي الخاص الذي تعبر عنه النصوص القرآنية بـ " **اليقين** "، الذي هو الغاية النهائية من خلق الإنسان على الأرض (٦)، حيث تكون العبودية لله في قوله تعالى: " **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** " (٧) غاية متوسطة؛ لأنها بدورها وسيلةٌ لغاية أخيرة هي الوصول إلى اليقين " **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِين** " (٨).

---

(١) ينظر: معرفة الذات: ٣١

(٢) نهج البلاغة: ٧٤٨

(٣) معرفة الذات: ١٩

(٤) بحار الأنوار: ٢: ٣٢، كما روي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام في المصدر نفسه: ٦: ٢٥١

(٥) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

(٦) ينظر: نظرية الإمامة رؤية قرآنية: ٤٢.

(٧) سورة الذاريات، أية: ٥٦.

(٨) سورة الحجر، أية: ٩٩.

ومن خلال هذه الرؤية المعرفية الشمولية التي تنفتح حلقاتها على الله والإنسان والحياة، ومن خلال الرسالة التي تنظم العلاقة بين هذه المحاور الثلاثة عن طريق منظومة من القيم الفكرية والروحية والسلوكية تتكامل الصورة الكلية لبناء الإنسان، ويتلاقح العلم والعمل والفكر والروح، وينفتح الأفقُ الإنساني على مديات أكثرَ رحابةً.

إلا أن " **الإنسان بحسب طبيعته، وجهازه المعرفي، وتكوينه النظري، خُلِق حسياً أكثر منه نظرياً** " (١). وهذه الطبيعة التي تشده باستمرار إلى التأثر بالمادي المحسوس أكثر من تأثره بالفكري المعقول، تجعل من الصعوبة بمكان أن يتجرد من غرائزه الحسية، وأن يُحلِّقَ في عالم المثل الفكرية والأخلاقية التي تحملها الرسالة، وإن آمن بها صادقاً؛ وهذا يُحوِجه إلى أُنموذج من جنسه يستطيع أن يجسِّد كلَّ ما تحمله هذه الرسالة من قيم وأفكار ومبادئ تجسيداً حقيقياً وكاملاً يقربها الى حواسه ومشاعره، ويُسَهِّلُ عليه التفاعلَ معها إيجابياً. وهنا يأتي دور الرسول فضلاً عن دوره في التبليغ والدعوة. لذلك كانت شخصيات الرسل والأنبياء، بما تفردت به من كمالات، من أهم عوامل التربية والجذب والاستقطاب في حياة الرسالات السماوية، وقد حرصت الرسالات، على طول الخط، على أن تصطفيَ وتربيَ وتؤدبَ مرسليها تربية خاصة وتوصلَهم إلى أعلى درجات التكامل الانساني حتى قبل أن تبعثَهم أنبياء مبلغين لرسالات السماء: " **وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ تَعَالَى بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَه**"(٢)، وقد قال رسول الله ﷺ : " **أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي** " (٣). ومن هنا جاءت نظرية عصمة الانبياء حتى في سلوكهم اليومي فضلاً عما يتفق عليه المسلمون من عصمتهم فيما يتعلق بتبليغ الرسالة، ولهذا أيضا كانت سُنّةُ الرسول ﷺ في كل ما يقول أو يفعل أو يقرر جزءاً أساسياً من الرسالة، ومصدراً للتشريع جنباً الى جنب مع القرآن الكريم: " **مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** " (٤). إذ لا فرق ولا تباين بين القرآن وبين الرسول ﷺ؛ لأنَّ شخصيته ﷺ ما هي إلا ترجمة حية للقرآن (٥).

(١) أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية: ٣٨.

(٢) نهج البلاغة: ٤٩٠.

(٣) كنز العمال: ١١: ١٨٣، وبحار الانوار: ١٦: ٢١٠.

(٤) سورة الحشر: أية: ٧.

(٥) ينظر: النبي الإنسان ومقالات اخرى: ١٣.

ولكن ماذا بعد أن يلتحقَ الرسولُ بالرفيق الأعلى؟ هل تستطيع الرسالة أن تحفظ نفسها من الانحراف، وتحافظ على وهجها وفاعليتها في النفوس؟ وإلى أي مدى من الزمن؟

لا شك أن عمر الرسالة يعتمد، بدرجة كبيرة، على ما تمتلكه في ذاتها من عناصر البقاء والديمومة، من جانب، وعلى طبيعة المجتمع الذي نزلت فيه، والظروف والملابسات التي تحيط به من جانب آخر، إلا أن وجود الرسول " **حِسًّاً مُرَبِّيَاً** "(١) يتحرك بين الناس، ويتفاعل معهم، ويتفاعلون معه، له الدور الأكبر في عملية التربية الرسالية وديمومتها، ومن ثَمَّ فإن غياب الرسول قد يعرض الرسالة للخفوت والأفول أو الانحراف؛ لا سيما وأَنَّ بناءَ المجتمعات روحياً وفكرياً وسلوكياً ليس أمراً يحدث بين يوم وليلة، بل غالباً ما يحتاج الى أزمان طويلة لا يتسع لها عمرُ الفرد الطبيعي، وهذا بطبيعة الحال يعتمد، بدرجة ما، على المساحة الزمانية والمكانية التي يراد للرسالة أن تمتد فيها، ومقدار تخلف الواقع الاجتماعي عن الأهداف المرسومة لتلك الرسالة، وهذا نوحٌ عليه السلام مثلاً قد لبث في قومه " **أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** "(٢). ألف سنة إلا خمسين عاماً من الدعوة والجهاد وما زالوا مقيمين على ظلمهم الذي استحقوا به عذاب الطوفان.

ولئن استطاعت بعض الرسالات أن تُثَبّتَ جذورَها وتؤتيَ أُكُلَها في حياة انبيائها، فإنها غالباً ما يخفت بريقها في النفوس بتطاول الزمن، وتضعف فاعليتها في القلوب، لا سيما بعد أن تفقد عنصر إشعاعها المباشر بموت الرسول، والنتيجة النهائية هي انحراف المجتمع عن خط الرسالة، والعودة إلى ما تَرَسَّخَ في النفوس من قيم جاهلية، وهذا ما عانته الرسالات السابقة، و تنبَّأ به القرآن الكريم بالنسبة لرسالة الإسلام، أو لا أقل من أنه حذَّرَ منه بقوله تعالى: " **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**.. "(٣). ولهذا تتابعت الرسالات لتقوِّم التاليةُ منها انحرافَ السابقة، ولهذا أيضاً احتاجت الى من يَخْلُفُ الأنبياءَ في أقوامهم، فكان الأسباط وكان الحواريون وكان الأوصياء. ولعلنا نستطيع ان نلمح شيئاً من تلك الحاجة في دعاء بعض الأنبياء الصريح كموسى وزكريا عليهما السلام والاستجابة لهما بهارون ويحيى عليهما السلام؛ إذ لا معنى لحمل حاجتهما إلى وزير أو وريث على المعنى الدنيوي، لأن نفوس الأنبياء عليهم السلام أسمى من أن تتعلق بشيء من حطام الدنيا فيكون همُّهم فيمن سيرث ما يُخَلِّفونه وراءهم منه.

---

(١) أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية: ٤٣.

(٢) سورة العنكبوت، أية: ١٤.

(٣) سورة آل عمران، أية: ١٤٤.

وهذا يفسر ما نجده في التاريخ الديني من حرص الانبياء عليهم السلام على تربية نماذج معينة من أُممهم وإعدادهم إعداداً خاصاً، جنباً إلى جنب مع حرصهم على تربية أممهم واعدادها بشكل عام، بصرف النظر عن عنوان هذا النموذج المُعَدّ نبياً كان أم وصياً أم وزيراً أم خليفة؛ ليكون امتداداً حقيقياً لهم ومُكمِّلاً لمسيرة الرسالة ومُحقِّقاً لأهدافها، وهذا المعنى سيتأكد حتماً إذا كان الرسول هو الخاتم الذي ستنقطع بموته العلاقة الطويلة بين الأرض والسماء: " **بأبي أنتَ وأمي لقد انقطعَ بموتِك ما لم ينقطعْ بموتِ غيرِك من النبوةِ والإنباء وأَخبارِ السماء** " [1]. ولعل في تربية الرسول صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام وإعداده له أوضح مصداق على ذلك، فقد رُوِيَ عنه صلى الله عليه وآله: " **أنا أديب الله وعلي أديبي...** "[2]، ورُوِيَ عن علي عليه السلام: " **يا كميل إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أدَّبَه اللهُ عزَّ وجلَّ وهو أدَّبني وأنا أُؤَدِّبُ المؤمنين، وأُورثُ الأدبَ المُكرمين** " [3].

(١) نهج البلاغة: ٥٦٨.

(٢) مكارم الأخلاق للطبرسي: ١٧، بحار الأنوار: ١٦: ٢٣١.

(٣) بشارة المصطفى: ١: ٥١، بحار الأنوار: ٧٤: ٢٦٧.

المبحث الأوَّل: تمظهرات الـ (أنا) ومستوياتها:

إذا أردنا تقصي ملامح الـ (أنا)، من خلال نصوص نهج البلاغة، فعلينا أولاً أن نتنبّه إلى ملاحظة مهمة ومحورية، قد يؤدي إغفالُها إلى تناقض ظاهري بين بعض النصوص، أو ارتباك الصورة الكلية للـ (أنا). وهذه الملاحظة هي أن النص في نهج البلاغة، يتحرك على ثلاثة محاور أو مستويات، ويمكن أن تختلف الصورة التي تتمظهر بها الـ (أنا) أو بعض ملامحها باختلاف المحور أو المستوى الذي يتحرك فيه النص، وإن كانت هذه الصور لا تتناقض مع بعضها، ولا يلغي بعضُها بعضاً. وهذه المستويات هي:

المستوى الأول: أنا الإمامة أو (الأنا الواقعية *):

هو حقيقة الـ (أنا) كما هي، أو كما يراها أمير المؤمنين عليه السلام ويعيشها. وهي حقيقةٌ عَزَّ من أدرك غورَها من المسلمين في زمانه، بل حتى في زماننا هذا؛ لأنها تجسِّد المفهوم الإسلامي، أو الرؤية الإسلامية، للكمال الإنساني، في حين أن العرب، والناس عامة، لم يعتادوا وجود مصداق واقعي يجسد هذا المفهوم، وإن كانوا ينزعون اليه طبيعياً، أو قل لم يفهموا أنَّ هذا المفهوم يمكن أن يتجسد في بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، إذ يجب أن يكون الكمال ـ حسب أفهامهم ـ مختصاً بإله مثل هبل واللاة، أو مَلَكٍ من الملائكة، أو حتى شيطان من شياطين عبقر الذين كانوا يلهمونهم الشعر. وهذا ما حكاه القرآن عنهم: " **وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً** " (١).

وإذا كان هؤلاء قد تقبلوا ـ بعد اللَتَيَّا والَّتي ـ أو اضطروا لتقبل حقيقة الرسول صلى الله عليه وآله؛ فذلك لأنه صلى الله عليه وآله كان مؤيداً بمعاجزَ إلهيةٍ، وكان مؤيداً بالقرآن الذي أكَّد على هذه الحقيقة مراراً وتكراراً، كما في قوله تعالى: " **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ**"(٢)،

* يقسم بعض علماء النفس والاجتماع الذات إلى واقعية واجتماعية ومثالية، حيث الواقعية هي إدراك الفرد لذاته كما هي على حقيقتها، والاجتماعية هي الذات كما يراها الآخرون، والمثالية هي الذات كما يتمناها الفرد. ينظر: ثنائية الذات والآخر في شعر السياب: ٢ وما بعدها.

(١) سورة الفرقان، أية: ٧، ٨.

(٢) سورة الفرقان: أية: ٢٠.

وقوله تعالى: " **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** " (١)، وقوله تعالى: " **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** " (٢).

أما مع علي عليه السلام فالأمر مختلف، هذا إذا تجاوزنا الدوافع التي تدعو بعضهم إلى الجحود بما استيقنته أنفسُهم: كالحسد، والطمع، والتِرات، ومحاولة الكيد للرسالة الإسلامية من خلال طمس معالمها أو تحريفها، وكثيراً غير ذلك. وقد بلغ من جهل بعضهم بعلي عليه السلام وحسدهم إياه أن اتهموه بالكذب. ومن العجيب أن يُتَّهم مثلُه بالكذب، وإنْ كان الإنسان، بطبعه المادي، قد اعتاد أن ينكر ما لا يستطيع أن يحيط بعلمه، وقد أنكر موسى عليه السلام، وهو نبي مرسَل، على الخضر عليه السلام أشياء لأنه لم يكن يحيط بها علماً. ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: " **إنَّ أمَرنا صعبٌ مستصعَبٌ، لا يَحْتَمِلُهُ إلا عبدٌ مؤمن امتَحَنَ اللهُ قلبَهُ للإيمان، ولا يَعِي حديثَنا إلا صدورٌ أمينةٌ وأحلامٌ رزينة**"(٣).

في هذا المستوى تبدو الـ (أنا) ذاتاً عاليةً ومتفردةً، تمتاز بما لا يمكن لغيرها أن يتصف به، فهي ذات اختصَّها الله بما لم يختصَّ به أحداً بعد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: " **لا يُقاسُ بآل محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الامة أحدٌ، ولا يُسوَّى بهم من جرت نعمتُهم عليه أبداً. هم أساسُ الدين، وعمادُ اليقين، إليهم يفئُ الغالي، وبهم يُلحَقُ التالي ولهم خصائصُ حقِ الولاية. وفيهم الوصيةُ والوراثةُ**"(٤).

ولأن هذا المستوى من الـ (أنا) هو المستوى الحقيقي لها، وهو المركز والمحور الذي تتحرك حوله في المستويات الأخرى التي يطرحها النص لأسباب معينة، فلعل الحاجة تدعو إلى بيان بعض ما اختصت به من خلال ما تطرحه نصوص النهج بالنقاط الآتية:

١. **الولادة على الفطرة،** قال عليه السلام: " **أَلاَ وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي؛ فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي، فَإِنَّهُ لي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ؛ وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلاَ تَتَبَرَّأُوا مِنِّي، فَإِنِّي وَلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ** " (٥). نعم هذه الفطرة هي كلمة الإخلاص التي فطر الله عليها خلقه جميعاً ،

(١) سورة المائدة: أية: ٧٥.

(٢) سورة الأنبياء: أية: ٧، ٨.

(٣) نهج البلاغة: ٤٦١.

(٤) نفسه: ٧٢ . ٧٣.

(٥) نفسه: ١٦٣.

حسب تعريف أمير المؤمنين عليه السلام[1]، ولكن ثمة من لوثتهم الانحرافاتُ والشياطين، فبدلوا عهدَ الله إليهم، واتخذوا الأنداد معه "**فبعث فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ**"[2]. أمَّا عليٌّ عليه السلام فقد وُلِدَ من سلالة الأنبياء، وفي بيت الله الحرام، وتربَّى في حجر رسولِ الله صلى الله عليه وآله، ولم يشرك بالله طرفة عين، وقد سبق إلى الإيمان، حين سبق غيرُه إلى الشرك.

٢. **اليقين** الذي هو الغاية القصوى في طريق تكامل الإنسان، قال عليه السلام: " **إِنِّي وَاللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَهُمْ طِلاَعُ الأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَلاَ اسْتَوْحَشْتُ، وَإِنِّي مِنْ ضَلاَلِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالْهُدَى الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لَعَلى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي** " [3]، وقال عليه السلام: " **مَا شَكَكْتُ فِي الحَقِّ مُذْ أُرِيتُه** " [4]، " **وهذه مزيةٌ له ظاهرةٌ على غيره من الناس فإنَّ أكثرَهم أو كلَّهم يشك في الشيء بعد أنْ عَرَفَه، وتعتوره الشُبَهُ والوساوسُ ويُرَانُ على قلبه، وتختلجه الشياطينُ عمَّا أدَّى إليه نَظَرُه** " [5]. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: " **يا علي ما عرف الله حق معرفته غيري وغيرك، وما عرفك حق معرفتك غير الله وغيري** " [6]، كما عرف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: " **لَو كُشِفَ الغِطَاءُ ما ازدَدْتُ يَقِيناً** " [7].

٣. **الانفتاح على العالم الآخر**، والقدرة على الارتباط حسياً مع ما يعدّه الآخرون مجرداً لا يمكن الاتصال به، فهو عليه السلام يرى نور الوحي والرسالة ويشم ريحَ النبوة ويسمع رنَّةَ الشيطان [8]، وقد وُلِّيَ الإمامُ غُسلَ رسول الله صلى الله عليه وآله وَالْمَلاَئِكَةُ أَعْوَانُه " **فَضَجَّتِ الدَّارُ والأَفْنِيَةُ، مَلأٌ يَهْبِطُ، وَمَلأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ** " [9].

٤. **الاختصاص بالعلم** الذي لا يحمله الآخرون ولا يحتملونه، ولا يدعيه إلا كاذبٌ وباغٍ، قال أمير المؤمنين عليه السلام: " **بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاَضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي**

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٦.
(٢) نفسه: ٦٧.
(٣) نفسه: ٦٩٢.
(٤) نفسه: ٨٤، ٨٥.
(٥) شرح ابن أبي الحديد: ١٨: ٣٠٠.
(٦) مناقب آل أبي طالب: ٣: ٦٠، وينظر: المختصر: ٧٨، ومختصر بصائر الدرجات: ١٢٥.
(٧) عيون الحكم والمواعظ: ٤١٥، مناقب الخوارزمي: ٣٥٦، شرح ابن ابي الحديد: ٧: ١٩٨.
(٨) ينظر: نهج البلاغة: ٤٩٠.
(٩) نفسه: ٥٠٧.

الطَّوِيِّ البَعِيدَةِ! " [١]، وقال عليه السلام: " **أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعَنَا اللهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ** " [٢]، وهو الذي قال أكثر من مرة: " **سلوني قبل أن تفقدوني** " [٣]، وقد " **أجمعَ الناسُ كلُّهم على أنه لم يقل أحدٌ من الصحابة ولا أحدٌ من العلماء سلوني غير علي بن أبي طالب** عليه السلام " [٤]. وهذا العلم هو علم علَّمه الله لنبيه صلى الله عليه وآله الذي اختصَّ به أميرَ المؤمنين عليه السلام، ودعا اللهَ بأن يعيه صدره، وتضطم عليه جوانحه [٥].

٥. **الاختصاص بالهداية:** " **بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى، وَبِنَا يُسْتَجْلَى الْعَمَى. إِنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيش غُرِسُوا فِي هذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِم، لاَ تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلاَ تَصْلُحُ الْوُلاَةُ مِنْ غَيْرِهِمْ** " [٦]، لأنهم: " **لاَ يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، هُمْ دَعَائِمُ الإِسْلاَمِ، وَوَلاَئِجُ الاعْتِصَامِ، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ فِي نِصَابِهِ، وَانْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَة وَرِعَايَة، لاَ عَقْلَ سَمَاع وَرِوَايَة، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ** " [٧]، ومن ثم فإن اتباعهم والتزام منهجهم عليه السلام هو الضمانة الوحيدة التي تعصم من الضلال والهلكة: " **انْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، وَلاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا**"[٨].

٦. **عدم الاستقلال** عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله بشيء، فالأئمة هم صنائع الله عزّ وجلّ [٩]، وهم المصباح الذي يضئ بنور ربه، والعين الصافية التي روقها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله من الكدر، قال عليه السلام: " **أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاح وَاعِظ مُتَّعِظ، وَامْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْن قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ** " [١٠]، وهم الذين اختصهم الرسول صلى الله عليه وآله بالعلم دون المسلمين.

---

(١) المصدر نفسه: ٨٦.
(٢) نفسه: ٣٤٤.
(٣) نفسه: ٢٤٦.
(٤) شرح ابن ابي الحديد: ١٣: ٨٠، ٨١.
(٥) ينظر: نهج البلاغة: ٣٢٥.
(٦) نفسه: ٣٤٤.
(٧) نفسه: ٥٧١.
(٨) نفسه: ٢٥٥.
(٩) ينظر: نفسه: ٦٠٩.
(١٠) نفسه: ٢٦٩.

٧. **الوصية**، إذ تشير بعض نصوص النهج تصريحاً أو تلميحاً إلى أن رسول الله ﷺ قد أوصى بالخلافة والإمامة إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وأن الصحابة يعلمون ذلك، مثل قوله عليه السلام: "**ولهم خصائصُ حقِ الولاية. وفيهم الوصيةُ والوراثةُ** " (١)، وقوله حكايةً عن الرسول ﷺ: " **إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ، وَلكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْر** " (٢)، ولعل أبرز ما ورد في هذا المجال هو الخطبة الشقشقية حيث يقول في بعضها: " **أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَها فُلانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنهَا مَحَلُّ القُطْبِ مِنَ الرَّحَا... فَيَالله وَلِلشُّورَى! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هذِهِ النَّظَائِرِ** " (٣).

٨. **الحِجِّيَّة على الخلق**. وهذه الحجية وإن كانت تستمد شرعيتها مما تتصف به هذه الذات من الاستقامة على منهج الإسلام وعدم الحياد عنه مطلقاً، وهذا ما لا يمكن أن يدعيه غيره عليه السلام، فإن بعض نصوص النهج تشير إليها تصريحاً أو تلميحاً مثل قوله عليه السلام: " **وَإِنَّمَا الاَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ، لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِلاَّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ** " (٤)، وقوله عليه السلام: " **عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لاَ تُعْذَرُونَ بِجَهَالَتِهِ** " (٥). وفي هذا يقول ابن أبي الحديد: " **وهو حقٌ على المذهبين جميعاً، أمَّا نحنُ فعندنا أنَّه إمامٌ واجبُ الطاعة بالاختبار، فلا يُعذَر أحدٌ من المكلفين في الجهل بوجوب طاعته، وأمَّا على مذهب الشيعة فلأنَّه إمامٌ واجبُ الطاعة [بالنص] *، فلا يُعذَر أحدٌ من المكلفين في جهالة إمامته**"(٦).

ولعل الباحث يستطيع أن يضيف بعض الصفات الأخرى، أو يدعم التي ذُكِرَت أعلاه بنصوص أُخرى، وليس هذا غرض البحث. ولكن غرضه الإشارة إلى بعض هذه الصفات بما يعطي فكرةً واضحةً عن الذات المنتجة للنص في النهج؛ حتى نتمكن من فهم نظرتها للآخر وطبيعة علاقتها به وعلاقته بها، والمرجعيات التي تحكم كلَّ ذلك.

---

(١) المصدر نفسه: ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) نفسه: ٤٩٠ ـ ٤٩١.

(٣) ينظر: نفسه: ٧٣ وما بعدها.

(٤) نفسه: ٣٦٢.

(٥) نفسه: ٧٥١.

* يبدو أن ما بين المعقوفتين قد سقط أثناء الطباعة من النسخة التي اعتمدها البحث، وقد وجدها الباحث في نسخ أخرى فأثبتها؛ إذ بها يستقيم سياق كلام الشارح، ويتفق مع ما يذهب إليه الشيعة.

(٦) شرح ابن أبي الحديد: ١٨: ٢٩٩.

المستوى الثاني: الـ (أنا) الاجتماعية:

وهو المستوى الذي تتنزل فيه الـ (أنا) عن خصوصياتها التي لا يشاركها فيها غيرها، وتتحرك ضمن الحدود التي يمكن أن يفهمها الآخرون ويتحركوا ضمنها، وإن كان هذا لا يلغي تفرد الـ (أنا) في هذا المستوى وامتيازها عن الآخرين، فالشجاعة مثلاً صفة يمكن أن تشترك فيها هذه الـ (أنا) مع الآخرين، ولكن شتان بين شجاعة وشجاعة، وهكذا في الصفات الأخرى، ومن ثم فإن الـ (أنا) في هذا المستوى متصفة بصفات اعتاد الناس أن يجدوها في محيطهم من حيث العموم، وإن كان لهذه الصفة أو تلك، إذا ما اقترنت بهذه الـ (أنا)، خصوصية لا أقل من أنها كمية، إذا ما قورنت بصفات الآخرين.

وعلى العموم، فإن الـ (أنا) هنا تتحرك ضمن الحدود الطبيعية التي اعتاد العامة فهمها والتعامل معها؛ فعلي عليه السلام في نظر أغلبهم خليفة رابع، وحاكم سياسي آخر حَكَمَ قبلَه غيرُه؛ فهو يُخطئ ويصيب كما أخطأ من كان قبله وأصاب، ويحتاج إلى من يعلّمه حين يجهل، ومن يشير عليه حين تتأزم الأمور، بل من يقوّمه بسيفه إذا انحرف عن جادة الصواب. ولعل تجربة الخليفة الثالث، وما آلت إليه الأمور أيامَ خلافته ومقتله، ألقت بظلال كثيفة [1] على الواقع الذي عاش فيه الإمام أيام خلافته، إذ تحولت الخلافة من نيابة عن الرسول صلى الله عليه وآله إلى غنيمة يتقاسمها الأمويون فيما بينهم وليس لأحد أن يعترض على ذلك وإلا فمصيره الإذلال والإبعاد والنفي؛ لذلك تراه عليه السلام تارةً يعلم الناس أبجديات العلاقة بين الحاكم والمحكوم عموماً، كقوله عليه السلام: " **أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْما تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ: فَالوَفَاءُ بِالبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ** " [2]، وكقوله أيضا: " **إِنَّهُ لَيسَ عَلَى الإِمَامِ إِلاَّ مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الإِبْلاَغُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَالإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ** " [3].

(١) ينظر: الفتنة الكبرى: ٢: ١٣.

(٢) نهج البلاغة: ١٣٩.

(٣) نفسه: ٢٧٠

وتارة يذكِّرهم بما يعرفونه ويشهدونه من فضائل أخلاقه وسابقته في الإسلام وقربه وقرابته من رسول الله ﷺ: " **فَقُمْتُ بِالأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَعْتَعُوا، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا، وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً، وَأَعْلاَهُمْ فَوْتاً، فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا، وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا، كَالْجَبَلِ لاَ تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ، وَلاَ تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ. لَمْ يَكُنْ لأَحَد فِيَّ مَهْمَزٌ، وَلاَ لِقَائِل فِيَّ مَغْمَزٌ، الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا له أَمْرَهُ. أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ وَاللهِ لأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ فَلاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ** " (١)، مذكِّراً إياهم بين الحين والحين ببعض ما قال فيه الرسول الأعظم ﷺ: " **لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي: وَذلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " لاَ يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ** " (٢)، محاولاً في كل ذلك أن يعيد العلاقة بين الحاكم والمحكوم إلى ما كانت عليه أيامَ رسول الله ﷺ، كخطوة أُولى في طريق الإصلاح بعد أن أغامت الآفاق وتنكَّرت المحجّة، وعاد كثيرٌ من الناس سيرتَهم الأولى، مصرِّحاً بذلك حيناً: " **أَلاَ وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ** " (٣)، وملمِّحاً حيناً آخر: " **لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً، إِنِّي أُرِيدُكُمْ للهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لأَنْفُسِكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِي عَلى أَنْفُسِكُمْ، وَأَيْمُ اللهِ لأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ، وَلأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً** " (٤)، محاولاً في أحيان أن يستثير فيهم رغبتهم بالتغيير، تلك الرغبة التي دفعتهم إلى الجزع، بل إساءة الجزع كما يعبّر أمير المؤمنين عليه السلام (٥)، حتى قتلوا خليفتهم: " **لَوْ قَدِ اسْتَوَتْ قَدَمَايَ مِنْ هذِهِ الْمَدَاحِضِ لَغَيَّرْتُ أَشْيَاءَ** " (٦).

وهذا المستوى وإن كان لا يتناقض مع المستوى الأول إلا أنه يسكت عن الحقائق التي قد تكون صادمة للآخرين ويركز على ما هو طبيعي بمقاييس الجماعة، وهو مع ذلك يطرح ذاتاً كاملة وخالية من العيوب لا يتطرق اليها الزيغ والاعوجاج وليس لأحد فيها مهمز ولا مغمز. كل ذلك من خلال ما

(١) المصدر نفسه: ١٤٢ . ١٤٣
(٢) نفسه: ٧٢٢ . ٧٢٣
(٣) نفسه: ٩٦
(٤) نفسه: ٣٣٥
(٥) نفسه: ١٢٧
(٦) نفسه: ٧٧٥

يدركونه بحواسهم ويتعاملون معه يومياً بحيث أصبح بديهياً في أذهانهم، ولعلنا نستطيع أن نشير باختصار إلى بعض مواصفات الـ (أنا) في هذا المستوى:

١. السابقة التي لا ينازعه عليها أحد من المسلمين: " **فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لاَ يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلاَّ أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّع مَا لاَ أَعْرِفُهُ، وَلاَ أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ** " [١]. وتاريخ علي الرسالي يشهد له بذلك دون ريب: " **وَايْمُ اللهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، وَاسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا، مَا ضَعُفْتُ، وَلاَ جَبُنْتُ، وَلاَ خُنْتُ، وَلاَ وَهَنْتُ**"[٢].

٢. الاستقامة في الدين والخلق بحيث لم يستطع أحد أن ينكر عليه فعلاً ولا قولاً: " **فَلَمْ آتِ ـ لاَ أَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً، وَلاَ خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلاَ لبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ** " [٣]، وقال أيضاً: " **وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً** " [٤]، ولعل من الواضح أن مصدر هذه الاستقامة هو الانقياد التام للقرآن والسنة وعدم الحياد عنهما مطلقاً: " **وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّد ﷺ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى الله وَلا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ...** " [٥]، وسيرته عليه السلام في رعيته تشهد له بذلك: " **لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتي لاَ يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلاَّ هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ!** " [٦].

٣. الشجاعة التي ليس لها نظير، ولا تدانيها شجاعة، ولكنها شجاعة المؤمن التي لا تتجاوز به حدود الله تعالى؛ فالرجل الذي يقول: " **أَنَا وَضَعْتُ بَكَلاَكِلِ الْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ** " [٧]، والذي يقول: "**وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا**"[٨]، هذا الرجل هو نفسه الذي اقتيد إلى بيعة أبي بكر مرغماً، ولم يجد في ذلك غضاضة[٩]؛ لأنه أقسم أن يسالم ما سلمت أمور المسلمين، وإن كان هو مظلوماً مدفوعاً عن حقه مستأثَراً عليه[١٠]: "**وَوَاللهِ لأُسْلِمَنَّ**

(١) المصدر نفسه: ٥٨٦
(٢) نفسه: ٢٦٧
(٣) نفسه: ٣٢٣
(٤) نفسه: ١٠٨
(٥) نفسه: ٥٠٦، ٥٠٧
(٦) نفسه: ٣٠٧
(٧) نفسه: ٤٨٩
(٨) نفسه: ٦٥٠
(٩) ينظر: نفسه: ٦١٠.
(١٠) ينظر: نفسه: ٨٧

مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لأَجْرِ ذلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيَما تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ " (١).

٤. الزهد الذي تصبح معه الدنيا كلها أهون من عراق خنزير في يد مجذوم (٢)، ولكنه ليس زهد العاجز الذي لا يجد ما يطمع فيه؛ فيقنع بالزهد عِوَضَاً عمَّا يريد، ولكنه زهد المتمكِّن العفيف: " **وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفَّى هذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هذَا الْقَزِّ، وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ . وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لاَ طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ . أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى** " (٣)، ففي مقاييس علي " **ليس الزهد أن لا تملك شيئاً، بل الزهد أن لا يملكك شيء** " (٤)، فهو زهد واعٍ يصدر عن فلسفة عامَّةٍ في الحياة أولاً، وفلسفة في طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم ثانياً.

المستوى الثالث: الـ (أنا) المحاجِجة:

أما في هذا المستوى فيتحرك النص داخل أُطُر الآخر وضمن مرجعياته ومنطلقاته، سواء أكانت حقيقية أو مدَّعاة، بحيث تتنازل الـ (أنا) أحياناً عن مرجعياتها ومرتكزاتها ـ ولو مؤقتاً ـ لا إيماناً بمرجعيات الآخرين ولا زهداً في مرجعياتها الذاتية، بل لمقارعة الخصم داخل ميدانه وبسلاحه نفسه، من باب " من لسانك أدينك "، ومن ذلك ما قاله عليه السلام حين انتهت اليه أخبار السقيفة:

" **ما قالت الأنصار؟**

قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير.

قال عليه السلام: فَهَلاَّ احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ: بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟

قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم؟

فقال عليه السلام: لَوْ كَانَتِ الامارة فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ.

ثم قال: فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟

---

(١) المصدر نفسه: ١٨١، ١٨٢

(٢) نفسه: ٧٦٣، ٧٦٤

(٣) نفسه: ٦٤٩

(٤) ميزان الحكمة: ٤: ٣٠٧

قالوا: احتجت بأَنها شجرة الرسول ﷺ .

فقال عليه السلام: احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ " (١).

فالإمام عليه السلام لم يحتجَّ على المهاجرين والأنصار بما يعتقده هو عليه السلام من أحقيته بالخلافة حسب وصية الرسول ﷺ ، وحسب فهمه هو لذاته وللإمامة وما تتطلبه من إعداد خاص لم يتوفر لغيره عليه السلام، بل كانت حجته عليهم من سِنْخِ حُجَّتهم التي طالبوا بالخلافة على أساسها. فالأنصار نصروا الرسالة الإسلامية وقدموا لها الكثير الكثير، فمن حقهم على الرسالة إذن أن ترد لهم صنيعهم بما يحفظ مكانتهم وتضحياتهم، ويحميهم من انتقام من وتروه في سبيلها من قريش بأن تجعلهم زعماء التجربة وقادتها بعد استشهاد الرسول ﷺ . فيجيبهم الإمام عليه السلام ببساطة: لو كانت الرسالة ترى لكم هذا الحق لما أوصت بكم؛ لأن الوصية لا تكون بمن كانت له الإمارة. أما المهاجرون فقد احتجُّوا بأنهم عشيرة الرسول ﷺ وأهله، ومن ثَمَّ فهم أحق من الأنصار بوراثة سلطانه، وليس للأنصار، ولا لغيرهم، منازعتُهم هذا السلطانَ. فالمنطق الذي يتحركون فيه هو منطق قرابة النسب، وبالمنطق نفسه ردَّ الإمام عليه السلام عليهم حجتهم: إن كنتم شجرة الرسول ﷺ، فأنا ثمرة هذه الشجرة، إن كنتم عشيرته فأنا ابن عمه وربيبه. وقد كان للإمام عليه السلام أن يقول: أنا أعلمكم بالشريعة ولن يردَّ عليه أحد، وكان له أن يقول: أنا أسبقكم بالإسلام، وأكثركم جهاداً في سبيل الله، وأقضاكم، ولن يرد عليه أحد.

ولعل النص الأخير يمكن أن يحمل مستويين آخرين من الدلالة، إذ يمكن أن تكون الثمرة التي أشار إليها الإمام عليه السلام هي الرسول ﷺ، وبهذا يكون المعنى أنهم أضاعوا وصية الرسول ﷺ، بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كما يمكن أن تُفهم الكلمة على ظاهرها ويكون الإمام هو الثمرة، وهذا ـ بطبيعة الحال ـ لن يجعل الرسول ﷺ غصناً من أغصانها، ما يعني أن الرسول والإمام عليهما السلام سيكونان معاً ثمرة هذه الشجرة، إشارة إلى أن علياً عليه السلام هو نفسُ الرسول ﷺحسب ما تدل عليه آيةُ المباهلة؛ فقد ذكر الكثير من أصحاب التفسير(٢) أن المقصود من " **أنفسنا**" في قوله تعالى: " **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**"(٣)، هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

(١) نهج البلاغة: ١٧٣

(٢) ينظر مثلاً: تفسير البغوي: ١: ٣١٠، فتح القدير: ١: ٣٤٧

(٣) سورة آل عمران: آية: ٦١

ومن هذا المستوى أيضاً بعض مخاطباته عليه السلام مع معاوية: " **وقد أكثرتَ في قتلةِ عثمان، فادخلْ فيما دخل فيه الناسُ، ثم حاكمْ القومَ إليَّ، أحملْكَ وإيَّاهُمْ على كتابِ الله تعالى** " (١). فعلي عليه السلام يعلم أن تمرُّدَ معاوية لم يكن يتعلق بقتلة عثمان، ولكنَّ قميصَ عثمان الملطَّخَ بالدماء كان الرايةَ التي رفعها معاوية في حربه من أجل الإمرة * على المسلمين، فأراد الإمام عليه السلام أن يُسقِطها من يده، ويفضح جاهليته المقنعة بقناع الإسلام. فأما أن يكون معاوية يصدر في مطالبته عن روح الإسلام وشريعته، فهذا عليٌّ خليفة المسلمين، وقد بايعه " **الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْر وَعُمَرَ وَعُثْمانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلاَ لِلغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُل وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذلِكَ لله رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْن أَوْ بِدْعَة رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ منه، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلاَّهُ اللهُ مَا تَوَلَّى** " (٢)، فالحجة التي ألزمت معاوية بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان بالأمس، تلزمه اليوم بخلافة علي عليه السلام، وعليه أن يرفع خصومتَه إلى خليفة المسلمين، إن كان مسلماً، فإن لم يفعل، ولن يفعل، فهي الجاهلية التي يريد معاوية أن يُلبِسَها لباسَ الإسلام.

موازنة بين المستويات:

ولا بدَّ هنا من الإشارة إلى ملاحظات عدة يمكن إجمالها فيما يأتي:

إنَّ هذه المستويات، وإن كانت مختلفة عن بعضها نوعاً ما، إلا أنها لا تتضادُّ فيما بينها، بل يمكن عدُّ المستويين الثاني والثالث حقائق جزئية بالنسبة للمستوى الأول الذي هو الحقيقة الكلية لهما، أو مصداقين من مصاديق المستوى الأول الذي هو بمثابة المفهوم الكلِّي لهما، أو، بتعبير أهل التفسير، يمكن عد هذه المستويات بطوناً للحقيقة الكلية التي تجسدها ذات الإمام عليه السلام. فاحتجاج الإمام عليه السلام على معاوية ببيعة الناس له مثلاً يمكن عده من المستوى الثالث، لأنه يلزم معاوية بما ألزم به نفسه، ويمكن عده من المستوى الثاني لأن أكثرية الناس في ذلك العصر اعتادوا على أن تكون البيعة هي مصدر شرعية الحاكم، كما يمكن عده من المستوى الأول لأن الإمامة في فهم أمير

(١) نهج البلاغة: ٦٩٦

* ذكر أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبيين: ٧٧، وابن أبي الحديد في شرح النهج: ٣: ٣٨٢ أن معاوية قال أيام خلافته: " **ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، انكم لتفعلون ذلك ولكن قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وانتم كارهون** "

(٢) نهج البلاغة: ٥٨٣

المؤمنين، وإن كانت حقاً له عليه السلام، إلا أن الممارسة الفعلية للحاكمية لا تجب على الإمام إلا برضى الناس وبيعتهم " **أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى العُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ** " (١)

إن الحديث عن الـ (أنا) أو توصيفها ضمن المستوى الأول غالباً ما يكون بألفاظ تدلُّ على مجموعة وليس على فرد مثل . (نحن، إنَّا، آل محمد، أهل البيت، أهل بيت نبيكم، الأئمة من قريش)، وغير ذلك من الألفاظ، ويبدو، من النصوص، أن هذه المجموعة كانت معلومة في أذهان الناس آنذاك، وإن لم تكن كلُّ خصائصها واضحة لدى أكثرهم. في حين أن الحديث عنها ضمن المستويين الثاني والثالث يكون في الأعمِّ الأغلب بألفاظ وضمائر تدل على فرد بعينه هو أمير المؤمنين عليه السلام.

ويرى الباحث أن السبب في ذلك قد يعود إلى أن الإمامةَ ـ وهي المحور الرئيس للـ (أنا) كما سيأتي ـ كما تطرحها نصوص النهج ليست محصورةً في علي عليه السلام، وإن كان هو أُسَّها وأساسَها، بل هي تشمل مجموعة معينة ومحددة: " **إِنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيش غُرِسُوا فِي هذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِم**"(٢) إذ إن العلة، التي تستدعي أن يكون بعد النبي من يكمل مسيرته في الأُمة ليصل بها إلى برِّ الأمان، هي نفسها التي تستدعي تعدد الأئمة لكي تكتمل صنائع الله ورحمته بعباده: " **أَلاَ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله، كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ: إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ، وَأَتَاكُم مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ** " (٣). ومن ثم فمتى ما كان الحديث عن الإمامة بوصفها مفهوماً كلياً ينطبق على مصاديقه كلها، كان الضمير المستخدم هو ضمير الجماعة مثل نحن وإنَّا وهم، وكانت الصفات متعلقة بالمجموعة، وليس بفردٍ معين منها، وهي في الغالب صفات نظرية تتناول الخطوط العامة؛ لأنها تهدف إلى التأسيس الآيديولوجي لنظرية الإمامة، ومتى ما كان النص متعلقاً بالإمام عليه السلام، بوصفه المصداق المتحرك على الساحة الإسلامية المجسد لذلك المفهوم الكلي، كان الحديث بضمير المفرد وكانت الصفات متعلقة بشخص الإمام عليه السلام، وهي في الغالب صفات ملموسة لأنها تتعلق بواقع حي ملموس هو الإمام عليه السلام. ومن ثم يمكن القول إن الصفات المتعلقة بشخص الإمام عليه السلام هي مصداق يجسد المفهوم العام الذي ترسم أبعادَه وملامحَه الصفاتُ المتعلقة بالمجموعة.

(١) المصدر نفسه: ٨١ ـ ٨٢

(٢) نفسه: ٣٤٤

(٣) نفسه: ٢٦٠

المبحث الثاني: مرجعيات الـ (أنا):

لا شك أن لأمير المؤمنين عليه السلام ميزات عدة امتاز بها عن بقية الصحابة والمسلمين، حتى أصبحت شخصيته عليه السلام ظاهرةً فريدةً في حياة الإسلام والمسلمين، ولا أدلَّ على ذلك من هذا الحضور الفريد الذي تمتاز به عند رسول الله صلى الله عليه وآله أولاً، وعند الصحابة والمسلمين بمختلف مشاربهم وعلى مرِّ أجيالهم ثانياً، وفي المجتمع الإنساني بصورة عامة ثالثاً، فلا نكاد نجد شخصية حظيت بمثل ما حظيت به هذه الشخصية من الاهتمام على مرِّ العصور. وإذا كان الخلاف مع علي عليه السلام والاختلاف فيه قد زاد من هذا الاهتمام بدرجة صغيرة أو كبيرة، فإنه لا يكفي، وحدَه، في تفسير هذا الحضور الفريد في التاريخ الإنساني، ولا بد من وجود بواعثَ وأسبابٍ كبيرةٍ كِبَرَ هذا الفارق بين حضور علي عليه السلام وحضور غيره. وإذا لم يكن لأحد أن يدعي إمكانية الإحاطة بشخصية الإمام عليه السلام إحاطة وافية تكشف كل أسرارها وخفاياها، فإنَّ مما لا شك فيه أنَّ لكلِّ شخصية جوهراً معيناً أو محوراً تطوف حوله كل الصفات الأخرى التي تتصف بها هذه الشخصية.

فمحور شخصية الرسول صلى الله عليه وآله مثلاً هو النبوة والإمامة التي اختصه الله تعالى بها وأعده لها إعداداً خاصاً، وبعد ذلك تكون كل صفاته صلى الله عليه وآله تحصيلَ حاصلٍ وأعراضاً لجوهر النبوة والإمامة فيه، فهو صلى الله عليه وآله كريم وشجاع وغيور وحيي وعالم لأنه نبي مؤدَّب من قبل الله ليكون إماماً للإنسانية جمعاء، بل يكفي أن نقول إنه إمام الإنسانية لندلَّ على أنه يتصف بكل صفات الكمال البشرية، بل على أنه هو الكمال الإنساني المطلق. كما يكفي أن نقول مثلاً: إن فلاناً شاعرٌ مجيد ليفهم السامعُ أنه يتمتع بقدر كاف من علوم العربية كالنحو والصرف والعروض والبلاغة وغيرها كما أنه لا بد أن يتميز بقدر من رهافة الحس والخيال المحلِّق، وغير ذلك من مقومات الشاعر المجيد.

ولا شكَّ أن الإمام عليه السلام هو شخصية إسلامية بامتياز، ابتداءً من مولده المبارك في بيت الله الحرام، حدثاً وتراً في تاريخ الإنسانية المعروف، ومروراً بتربيته في حِجر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله واتِّباعِهِ له اتِّباعَ الفصيل أَثَرَ أمِّه، وما تحمَّله في سبيل الرسالة والرسول، وانتهاءً باستشهاده في محراب الصلاة. ومن ثَمَّ فإن هذا المحور أو القطب أو الجوهر ـ سَمِّهِ ما شئتَ ـ لا بدَّ أن يكون شيئاً غرسته فيه هذه الرسالة المباركة، بعيداً عن كل ما يمكن أن يكون مؤثِّراً في شخصيات غيره من الصحابة والمسلمين كالأعراف والقيم العربية والعصبيات القبلية وغيرها. وإغفال هذه النقطة سيؤدي حتماً إلى قراءة ناقصة أو مشوهة لهذه الشخصية الفذة.

وقد حاول بعض الدارسين أن يدرسوا شخصية الإمام عليه السلام دون أن يهتدوا إلى جوهر يمكن أن يلملم أجزاء الصورة الكلية، فكانت دراساتهم ـ رغم ما فيها من أهمية كبيرة ـ صوراً جزئية لا يربط بعضَها إلى بعض نظامٌ متين، وحاول بعضهم أن يُمَحْوِرَ شخصيته عليه السلام حول صفة معينة، ولكنها لم تكن حجر الأساس فيها فكان بناءً هشاً لا يمكن لأسواره أن تحيط بكل فضاءات شخصيته التي لا يمكن أن تُحَد بحدود العادي المألوف.

فالأُستاذ العقاد مثلاً ـ رغم ضخامة الفكر والمنطق الذي عالج به الكثير من القضايا الخلافية في شخصية الإمام عليه السلام، ورغم الفهم العميق لكثير من جوانب هذه الشخصية ـ يذهب إلى أن: " **آداب الفروسية هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير** " [١]. ولا شك أن علياً عليه السلام هو الفارس النبيل الذي تجلَّت فيه كلُّ فضائل الفروسية أروعَ ما يكون التجلِّي، ولكنْ أنْ نجعل من آداب الفروسية محوراً تدور في فلكه كل صفاته عليه السلام فذلك ظلم للحقيقة سيؤدي حتماً إلى قصور في فهم هذه الشخصية العملاقة. ويبدو أنَّ قراءة الأُستاذ العقاد هذه كانت تَصدُر عن مرجعيات عربية أكثر مما هي إسلامية، لدى العقاد نفسه، أسقطت حمولاتِها على شخصية الإمام عليه السلام؛ إذ غالباً ما " **تُحرّك مرجعياتُ التأسيس المحلية معظمَ فعاليات الإنسان وأنشطته الحيوية على الأصعدة اللسانية والشعورية كافة** " [٢]. كما يبدو أن محاولات الأُستاذ العقاد للحفاظ على " عبقريات " الآخرين، جنباً إلى جنب مع عبقرية علي وعبقرية الرسول صلى الله عليه وآله، هي التي حددت فكره الكبير بهذه الحدود. ولعلَّ قراءةً فاحصة لهذه الشخصية ستقترح الكثير من الأسباب التي لا تترك مجالاً للاتفاق مع ما يذهب إليه، منها:

١. أنَّ علياً عليه السلام تربَّى في حجر الرسول صلى الله عليه وآله، منذ أن كان صغيراً، وكانت العبودية الخالصة لله تعالى هي محور هذه التربية، وهذا ما تجلَّى في سلوكه أروع تجلٍّ، وفاض على لسانه عليه السلام أكثر من مرَّة: " **إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً** " [٣].
٢. أنَّ الفروسية ليست ميزةً طارئةً على جزيرة العرب، بل هي من صميم أخلاقهم وسلوكياتهم، حتى عُرف بها الكثير منهم، مسلمين وغير مسلمين، ولكنَّها لم تسمُ بأحدٍ منهم سُمُوَّ أميرِ المؤمنين

(١) عبقرية الإمام علي: ٣٥، وينظر: العقل في المجتمع العراقي بين الأسطورة والتاريخ: ٢٨٦، إذ يقول مؤلفه د. شاكر شاهين: إن " بطولة علي في الزهد هي المفتاح لبطولاته الأخرى في القتال والعدل والعلم والقضاء والتنبؤ بالغيب.. ".

(٢) ثنائية الذات والآخر في شعر السياب: ٢٥

(٣) مسند الرضا عليه السلام: ٨٤، وينظر: الخصال: ٤٢٠

عليه السلام ولم تبلِّغْ أحدَهم ما بلغه عليه السلام من الكمال. لا سيما وأن الفارق بينه وبين غيره كان فارقاً نوعياً قبل أن يكون كمياً.

٣. أنَّ أخلاق الفروسية، وإن سَمَتْ بصاحبها في كثير من الجوانب الأخلاقية والسلوكية، إلا أنها غالباً ما تُشاب ببعض الأخلاق الجاهلية كالبطش والجهل والخيلاء، ولا يستطيع مدعٍ أن يدعيَ أنَّ علياً عليه السلام خُولِط بشيءٍ من هذه الجهالات.

٤. أننا لا نجد في سلوكيات الإمام وأقواله عليه السلام ما يشير إلى أنه كان يصدر عن روح وآداب الفروسية العربية، بل كان، في كل صفاته وسلوكه، يصدر عن عبوديته لله تعالى، فهو مثلاً يكره ثناء غيره عليه " **انْحِطَاطاً لله سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ**"(١)، وهو أحرص الناس على جماعة أُمة محمد صلى الله عليه وآله وأُلفتهم لأنه يبتغي " **بِذلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ الْمَآبِ** " (٢).

٥. أنَّ آداب الفروسية لا تستطيع أن تفسر الكثير من الصفات التي تميزت بها شخصية الإمام عليه السلام كالعبادة والتقوى والعلم والعرفان وغير ذلك. كما لا تستطيع أن تفسر الكثير من مواقفه عليه السلام.

وهذا معاوية ـ بمقاييس الفروسية التي يعرفها العرب ـ يعيب على علي عليه السلام أنه اقتِيد إلى بيعة أبي بكر مرغماً، ولكن علياً عليه السلام لا يرى الأمور كما يراها معاوية؛ لأن آداب الفروسية العربية ليست من مقاييسه عليه السلام ما لم تكن تتطابق مع الأخلاق الإسلامية: " **وقلت: إني كنتُ أُقادُ كما يُقادُ الجملُ المخشوشُ حتى أبايعَ، ولعمرُ اللهِ لقد أردتَ أن تَذُمَّ فمدحتَ، وأن تَفضحَ فافتَضَحْتَ. وما على المسلمِ من غضاضةٍ في أن يكونَ مظلوماً ما لم يكنْ شاكّاً في دينه ولا مرتاباً بيقينه**"(٣).

وهنا لا بد لنا من وقفة: فالإمام هنا لا يجد غضاضة في أن يكون مظلوماً طالما كان على يقين من دينه، وهو بهذا يُؤسِّس لفهم جديد للعلاقة مع الآخر، هذا الفهم بعيد كل البعد عمّا رسخ في الذاكرة العربية الثقافية من أورام الذات وانغلاقها على نفسها، مستوحياً في ذلك الروح الإسلامية في نظرتها للظالم والمظلوم، ومُجسِّداً قوله لرعيته: " **وَاقْدمُوا عَلَى اللهِ مَظْلُومِينَ، وَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ** " (٤)، وإلّا فكيف تفسر آدابُ الفروسية أن يَعُدَّ الإمامُ عليه السلام قولَ معاوية مدحاً لا قدحاً؟ ألا يعيب

(١) نهج البلاغة: ٥٩٣

(٢) نفسه: ٧١٠

(٣) نفسه: ٦١٠

(٤) نفسه: ٣٦٠.

الفارسَ، وهو أبيُّ الضيم، أن يُقادَ مكبَّلاً إلى ما يكره!؟ إنَّ من الواضح أنَّ أفخرَ ما يفتخرُ به العربيُّ هو إباؤه للضيم، وليس قبوله مهما كان الثمن. ولذلك لم يقل عليه السلام: ما على العربي، ولم يقل: ما على الفارس، بل قال: وما على المسلمِ من غضاضةٍ في أن يكونَ مظلوماً؛ لأن المقياس عنده هو الإسلام، وليس مهمّاً بعد ذلك ما يقوله معاوية وأمثاله. إنه يرى، في ما تراه الفروسيةُ عاراً، يرى فيه عزاً وكرامة ما دام على دينه ويقينه. وهذا بطبيعة الحال موقف من مواقف كثيرة تشير إلى المرجعيات الإلهية التي يتحرك على هداها الإمامُ والمرجعيات الأُخرى التي تُحَرِّكُ الآخرين.

وهذا هو الفارق بين علي عليه السلام وبين غيره، هذا هو سبب محنته بقومه وشعوره بالغربة بينهم، تلك الغربة التي يضيق بها صدره أحياناً فيفيض بها لسانه ألماً وشكوى يتوجه بها إلى أنيسه الوحيد: " **اللَّهم إنِّي قد مَلِلْتُهُم ومَلُّوني وسَئِمْتُهُم وسَئِمُوني، فأبدِلْني بهم خيراً منهم وأبدِلْهُم بي شرّاً مني**"(١). هذا الشعور العميق لم يكن وليدَ اختلاف في اللغة أو القومية أو القبيلة، بل كان وليدَ اختلاف في المرجعيات والاهداف، كان ناشئاً من اختلاف في الايديولوجيات الموجِّهة، والوعي والهمِّ الرساليِّ الذي كان يحمله عليه السلام، وهذا ما عبر عنه صراحةً بقوله عليه السلام: " **وليسَ أمري وأمرُكُم واحداً. إنِّي أُرِيدُكُم للهِ وأنتم تريدونني لأنفسكم** " (٢).

على أن هذا هو سبب تفرده عليه السلام بينهم أيضاً، وقد أشار إلى ذلك الأديب جبران خليل جبران بوضوح حين قال: " **في عقيدتي أنَّ ابنَ أبي طالب كانَ أولَ عربي لازَمَ الروحَ الكلية وجاوَرَها وسامَرَها، وهوَ أولُ عربيٍّ تناولتْ شفتاهُ صدى أغانيِّها على مسمع قوم لم يسمعوا بها من ذي قبل، فتاهوا بين مناهج بلاغته وظُلُمات ماضيهم، فمن أُعجِب بها كان إعجابُهُ موثوقاً بالفطرة. ومن خاصمَهُ كان من أبناء الجاهلية. مات عليُّ بنُ أبي طالب شهيدَ عظمتِه!... مات شأن جميع الأنبياء الباصرين الذين يأتون إلى بلد ليس ببلدهم، وإلى قوم ليس بقومهم، في زمن ليس بزمنهم** " (٣).

فوسط كل الاضطراب الذي شهدته الساحة الإسلامية بعد التحاق الرسول صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى بقي عليٌّ عليه السلام على الطريقة الغرَّاء والمحجَّة البيضاء.. ولسانُ حاله ينطق بمقاله: " **ما شككتُ في**

(١) المصدر نفسه: ١١٥

(٢) نفسه: ٣٣٥

(٣) نقلاً عن: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ٢: ٩٥٢، خصال الأمير: ١٣٥، ومصادر أخرى كثيرة لم تشر إلى مصدر النص الأصلي الذي لم يعثر عليه الباحث.

الحقِّ مُذ أُريتُه " [١] و " **إنَّ معي لَبَصِيرَتي ما لَبَّسْتُ علي نفسي ولا لُبِّسَ عَلَيَّ** " [٢]، " **وإني من ضلالهم الذي هم فيه، والهدى الذي أنا عليه، لعلى بصيرة من نفسي ويقين من ربي** " [٣]. وهذه الحال، من اختلاف المرجعيات المؤسسة والمحركة بينه وبين غيره، ومن وضوح الرؤية لديه وضبابيتها لدى غيره، هو ما ألمح إليه عليه السلام حينَ دُعِيَ للخلافة بعد مقتل عثمان حيث قال: " **إنَّ الآفاقَ قد أَغامتْ والمحجَّةَ قد تنكَّرت. واعلموا أنّي إنْ أَجَبتُكم رَكِبتُ بِكُم ما أعلمُ ولم أُصغِ إلى قولِ القائل وعتبِ العاتب** " [٤]، وفي الحقيقة، فإن هذا ليس موقفاً مرتجلاً، استغل فيه الإمام عليه السلام حاجة الأُمة إليه ليملي عليها شروطه، بل هو مبدأ ثابت يستمد جذوره من رؤيته الواضحة للإمامة ودورها في المجتمع من جانب، ومن قراءته للإمامة أو الخلافة التي جسّدها أو يمكن أن يجسِّدها الآخرون، وهو الموقف عينه الذي وقفه عليه السلام حين أراد عبدُ الرحمن بن عوف مبايعته " **على كتابِ اللهِ، وسُنَّةِ رسولِ الله، وسيرةِ الشيخين: أبي بكر وعُمَر. فقال: بل على كتابِ الله وسنةِ رسوله واجتهادِ رأيي** " [٥]، فصفق ابنُ عوف على يد عثمان مبايعاً إياه بالخلافة بعد أنْ أعاد قولَه على أمير المؤمنين عليه السلام ثلاث مرات والإمامُ لا يتراجع عن موقفه، ولقد كان للإمام أن يكون خليفةً للمسلمين لو أنَّه قَبِل بشروط ابن عوف، ولكنه أبى أن يعمل بسيرة الشيخين أو غيرهما، وأصر على أن تكون خلافته مشروطةً بأن يعمل بما يراه هو، وليس بما رآه أو يراه الآخرون، لأنَّ الآخرين لم يُعَدُّوا كما أُعِدَّ هو ولم يُرَبَّوا كما رُبِّيَ هو؛ ومن ثمّ فإن الآخرين هم الذين يجب أن يسيروا على سنته ومنهجه وليس العكس.

من هذا كله يرى الباحث ضرورة القراءة المتأنية لطبيعة العلاقة بين الإمام عليه السلام من جهة، وبين الرسول صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم من جهة ثانية ـ بوصفهما المرجعين المؤسسين للبناء الإسلامي كله ـ من أجل فهم جوهر هذه الشخصية وطبيعة المرجعيات المؤسسة لسلوكها ومتبنياتها الفكرية والعاطفية.

(١) نهج البلاغة: ٨٤ . ٨٥

(٢) نفسه: ٩٠

(٣) نفسه: ٦٩٢

(٤) نفسه: ٢٤٥

(٥) شرح ابن أبي الحديد: ١: ١٨٤

الرسول ﷺ والـ (أنا):

لا يختلف اثنان في خصوصية الاهتمام الذي احاط به رسولُ الله ﷺ أميرَ المؤمنين عليه السلام منذ اليوم الذي وُلِدَ فيه في بيت الله الحرام، حيث قال فيه: " **لقد وُلِد لنا الليلةَ مولودٌ يفتحُ اللهُ علينا به أبواباً كثيرةً من النعمة والرحمة** " [١]، كما أنه ﷺ كان يتيمَّنُ بولادته وبالسنة التي ولد فيها ويُسمِّيها سنة الخير وسنة البركة وهي السنة نفسها " **التي بُدِئَ فيها برسالة رسول الله ﷺ فأُسمِع الهتافَ من الأحجار والأشجار وكُشِف عن بصره فشاهدَ أنواراً وأشخاصاً، ولم يُخاطَب فيها بشيء. و... ابتَدَأَ فيها بالتبتل والانقطاع والعزلة في جبل حِراء فلم يزل به حتى كُوشِف بالرسالة وأُنزِل عليه الوحيُ** " [٢]، وقد أحبه رسولُ الله حباً شديداً حتى أنه ﷺ كان يقول لأُمه: " **اجعلي مهده بقرب فراشي وكان ﷺ يطهر علياً في وقت غسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويلاحظه ويقول: هذا أخي، ووليي وناصري وصفيي وذخري وكهفي، وصهري، ووصيي وزوج كريمتي وأميني على وصيتي وخليفتي** " [٣]، وقد ضمّه بعد ذلك إلى بيته وتكفل إعالته وتربيته حين أصابت قريشاً سنةُ قحط.

وهكذا فإن رسول الله ﷺ هو الذي باشر تربية أمير المؤمنين منذ ولادته عليه السلام، حتى اليوم الذي توفي فيه ﷺ ورأسه على صدر الإمام عليه السلام حيث سالت نفسه الشريفة في كفّ الإمام فأمرَّها على وجهه [٤] على حد تعبيره عليه السلام. والحقيقة أن العلاقة بينهما عليهما السلام أوضح من أن يستدل عليها بنص، ولكنَّ غاية البحث هنا هي استقصاءُ بعضِ ملامح هذه العلاقة ودلالاتها والآثارِ المترتبة عليها، من لسان عليٍّ عليه السلام نفسه. ومن ثم فإن هذه الدراسة سوف تنأى بنفسها عن استعراض النصوص النبوية الكثيرة جداً في حق الإمام عليه السلام لسببين: الأول أنها واضحة وضوح الشمس، وكثيرة بحيث لا يكاد يخلو منها مصنَّف كُتِب عن أمير المؤمنين عليه السلام، والثاني أن الباحث يعتقد أن هذه النصوص النبوية الشريفة ـ على قيمتها الكبيرة ـ هي نتيجة (معلول) لطبيعة تلك العلاقة الفريدة بينهما عليهما السلام، وإذا تم إثبات العلة فإن النتائج ستكون تحصيل حاصل.

---

(١) المصدر نفسه: ٤: ٥٦.

(٢) نفسه.

(٣) خصائص الوحي المبين: ٢٥.

(٤) ينظر: نهج البلاغة: ٥٠٧.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ: وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وليدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْل، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْل. وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ تَعَالَى بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لي فِي كُلِّ يَوْم عَلَماً مِنْ أَخْلاَقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَة بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: " هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ، وَلكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْر " "** (١).

وهذا النص يؤكِّد بدايةً على أن منزلة الإمام الخَصِيصَةَ من الرسول ﷺ كانت معروفة لدى الآخرين، وأن الكثير مما سيذكره الإمام ـ إن لم يكن كله ـ ليس إخباراً عن مجهول بقدر ما هو تقرير لمعلوم ثابت، ثم يفصِّل النصُّ بعضَ ملامح هذه المنزلة والآثار المترتبة عليها. والحقيقة أن عبارات هذا النص مترابطة مع بعضها ترابط المقدمات مع النتائج، حتى ليكاد النص أن يكون محاججةً منطقية أكثر مما هو سرد لوقائع وحقائق تاريخية: فالرسول ﷺ وضع الإمام عليه السلام في حجره وهو وليد، وضمه إلى صدره، وكنفه في فراشه، وأمسَّه جسدَه، وأشمَّه عَرفَه، ومضغ الطعامَ في فمه الشريف ﷺ قبل أن يلقمَهُ إياه، فِعلَ الأُم الرؤوم بولدها الأثير. وبعبارة أُخرى فإن الرسول ﷺ هو الذي تولى تربية الإمام عليه السلام بنفسه منذ ولادته، وهذا ما تؤكده الكثير من المصادر التاريخية، ثم يشير النص إلى النتائج المترتبة على هذه التربية، وهي أنْ كان عليٌّ كما أراده رسولُ الله ﷺ: لا كذبَ في قول ولا خطل في فعل. مع ملاحظة أن هذه الفقرات أشارت إلى مرحلة واحدة من مراحل التربية، وهي مرحلة الطفولة، وهي المرحلة التي تُرسَم فيها الخطوط العريضة للشخصية بما يوجه ميولها وسلوكها في المراحل اللاحقة.

بعد ذلك ينتقل النص إلى مرحلة أُخرى من مراحل حياة الإمام هي مرحلة الإدراك والاقتداء، وهنا يقدم النص مقدمة مهمة، وهي أن الله تعالى قرن برسوله ﷺ ـ من لدن أن كان فطيماً ـ أعظم

(١) المصدر نفسه: ٤٩٠ ـ ٤٩١

ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ـ ليله ونهاره ـ؛ ذلك لأن هذه المرحلة هي مرحلة اقتداء وتعليم، وهي بطبيعة الحال تعتمد على ثلاثة عناصر رئيسية هي: استعداد المقتدِي أو المتعلِّم، ومادة التعلم، وإمكانات المعلِّم أو المقتدَى به. وإذا كان النص قد بيَّنَ استعدادات المتعلِّم في الفقرات السابقة " **وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْل، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْل** "، فإنه بحاجة إلى أن يبين طبيعة المعلِّم وطبيعة ما يعلِّمُه، لذلك ذكر النص أنه ﷺ مُسَدَّد وموجَّه من قبل الله تعالى بأعظم ملك من ملائكته، وفي هذا إشارة إلى تأديب الله تعالى لرسوله، ليكون تأديبه ﷺ لعلي هو تأديب من قبل الله تعالى. ولنلاحظ أن هذه المرحلة اعتمدت أسلوبين من أساليب التربية هما: الاقتداء: " **ولقد كنت أتَّبِعُه اتباعَ الفصيل أثَرَ أُمِّه** "، والتعليم المباشر: " **يرفع لي في كل يوم علَماً من أخلاقه ويأمرني بالاقتداء به** "، وإذا كان الاتِّباع هو فعل للمتَّبِع يعكِس إرادته الذاتية، فإن التعليم هو فعل وإرادة للمعلِّم الذي هو الرسول ﷺ، وهذا يدل على الإرادة المشتركة التي جمعت بين الرسول والإمام في هذه المرحلة، في حين كان الفعل والإرادة في المرحلة الأُولى خاصاً بالرسول ﷺ.

بعد ذلك ينتقل النص إلى المرحلة الأخيرة، التي يمكن أن نسمِّيَها مرحلة المصاحبة، حيث جبل حراء، ونور الوحي والرسالة، وعبق النبوة الخاتمة، وحيث يسمع الإمام ما يسمعه الرسول ويرى ما يراه، لا يفرِّق بينهما إلا النبوة، وحيث يكون الإمام وزيراً وعلى خير، بشهادة الرسول ﷺ نفسه.

وباختصار فإن الرسول احتضن الأمام في طفولته فوجد وأوجد فيه استعداداً وقبولاً، ثم رباه وأدبه بما تأدب به ﷺ من قبل الله تعالى حتى أصبح يرى ما يراه الرسول ويسمع ما يسمعه، وبهذا أصبح قادراً على تحمل أعباء دوره الذي أُعِدَّ من أجله وهو أن يكون وزيراً للرسول ﷺ. وخليفة له يحمل أُمته على الخير والمحجة البيضاء.

وثمة نص آخر مهم يأتي جواباً لسائل سأله عليه السلام عن أحاديث البدع، وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر، فقال عليه السلام: " **إنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وَبَاطِلاً، وَصِدْقاً وَكَذِباً، وَنَاسِخاً وَمَنْسُوخاً، وَعَامّاً وَخَاصّاً، وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً، وَحِفْظاً وَوَهْماً، وَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: " مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ". وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَال لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ: رَجُلٌ مُنَافِقٌ... يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُتَعَمِّداً.... وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهِمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً،... وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ نَهَى عَنْهُ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَىُ عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ المَنسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ... وَآخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللهِ، وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ**

لِلْكَذِبِ، خَوْفاً لله، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللهِ، وَلَمْ يَهِمْ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، وَحَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، وَعَرَفَ الْمُتَشَابِهَ وَمُحْكَمَهُ. وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْكَلاَمُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلاَمٌ خَاصٌّ، وَكَلاَمٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ مَا عَنَى اللهُ بِهِ، وَلاَ مَا عَنَى بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الأَعْرَابِيُّ أَوْ الطَّارِئُ، فَيَسَأَلَهُ ﷺ حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لاَ يَمُرُّ بِي مِنْ ذلِكَ شَيْءٌ إِلاَّ سَأَلْتُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ " [1].

وهذا نص خطير جداً، إذ يناقض مضمونُه ـ جملةً وتفصيلاً ـ ما رواه بعضهم عن الرسول ﷺ من قوله: " **أصحابي كالنجومِ، فبأيِّهِم اقتديتم اهتديتم** " [2]. أو قوله ﷺ: " **سألت ربي عن اختلاف أصحابي من بعدي فأوحى الله إليَّ يا محمَّد إنَّ أصحابَك عندي بمنزلةِ النجوم في السَّماءِ بعضُها أقوى من بعض ولكلِّ نورٌ فمن أخذَ بشيءٍ ممَّا هم عليه من اختلافهم فهو عندي على هُدىً** " [3]، فهو يصنف الصحابة من حيث روايتهم للحديث، ومن ثَمَّ، فهمهم لأحكام الشريعة إلى أربعة أصناف لا خامس لها: أما الأول فهو منافق يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ، وأما الثاني والثالث فلا يمكن الاطمئنان إليهما أيضا لأنهما ممن حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء، فلم يسلم لنا إذن من الأصناف الأربعة إلا صنف واحد لا ندري كم كانت نسبته إلى مجموع الصحابة. هذا إذا سألوا، وليس كل أصحاب رسول الله يسألونه.

ويبدو أن الشريف الرضي لم يروِ لنا هذا الحديث كاملاً، إذ تروي بعض المصادر لهذا الحديث نهاية مختلفة: "... **حتى أن كانوا ليحبون أن يجيئ الأعرابي والطاري فيسأل رسول الله صلى الله عليه واله حتى يسمعوا، وكنت أدخل على رسول الله ﷺ كلَّ يوم دخلة وكلَّ ليلة دخلة فيخليني فيها، أدورُ معه حيثما دار، وقد عَلِمَ أصحابُ رسول الله ﷺ أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري ... وكنت إذا دخلتُ عليه بعضَ منازله أخلاني وأقامَ عني نساءَه فلا يبقى عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في بيتي لم تقم عنه فاطمةُ ولا أحدٌ من بني، وكنت إذا سألتُهُ أجابني وإذا سكتُّ**

(1) المصدر نفسه: ٥٢٧ ـ ٥٣٠

(2) مشكاة المصابيح: ٣ : ١٦٩٦

(3) نفسه: ٣ : ١٦٩٦، وينظر: كنز العمال ١: ١٠٤.

عنه وفنيتْ مسائلي ابتدأني، فما نزلتْ على رسولِ اللهِ ﷺ آيةٌ من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها علي فكتبتُها بخطي، وعلمني تأويلَها وتفسيرَها، وناسخَها ومنسوخَها، ومحكمَها ومتشابَهَها، وخاصَّها وعامَّها، ودعا اللهَ لي أن يعطيني فهمَها وحفظَها، فما نسيتُ آيةً من كتابِ الله ولا عِلماً أملاه علي وكتبتُه، منذ دعا اللهَ لي بما دعاه، وما ترك شيئاً علَّمَهُ اللهُ من حلالٍ ولا حرامٍ، أمرٍ ولا نهيٍ، كان أو يكون، ولا كتاب منزل على أحد قبله في أمرٍ بطاعة أو نهي عن معصية إلا علَّمَنِيه وحفَّظَنِيه فلم أنسَ حرفاً واحداً، ثم وضع ﷺ يَدَهُ على صدري ودعا اللهَ لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً، فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأُمي إني منذُ دعوتَ اللهَ عزَّ وجلَّ لي بما دعوتَ لم أنسَ شيئاً ولم يفُتْني شيءٌ لم أكتبه أفتتخوَّفُ عليَّ النسيانَ فيما بعد؟ فقال: لا لست أخاف عليك النسيان ولا الجهل " (١).

وواضح أن هذا النص قد جاء ليبين سبب اختلاف ما بين أيدي الناس من الحديث ويعزوه إلى الكذب، أو سوء الفهم، أو الفهم الجزئي، وليس إلى أن اختلاف الأمة فيما تروي عن نبيها رحمة،. كما أن نهاية الحديث واضحة جدا في المفاضلة بينه عليه السلام وبين غيره من الصحابة، على أساس الإحاطة بالشريعة إحاطةً كاملة؛ فهو أطول منهم صحبة للرسول ﷺ، وهو يسأل حين لا يسألون، كما أن الرسول ﷺ كان يختلي به ـ كل يوم وكل ليلة دون بقية أصحابه ونسائه ـ فيجيبه حين يسأله ويبتدره حين يسكت أو تفنى مسائله.

كما أن النص يصرح بطبيعة العلوم التي كان الرسول ﷺ يودعها لدى أمير المؤمنين عليه السلام، وهي علوم القرآن من تأويل وتفسير، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وخاصّ وعام، وحلال وحرام، وأمر ونهي، سواء في ذلك ما كان وما يكون، كما علمه ما في كتب الأولين مِن أمرٍ بطاعة أو نهي عن معصية، ودعا الله له أن يملأ قلبه علماً وفهماً وحكماً ونوراً، ولتأكيد حجية الإمام فيما ينقل ويفهم عن الرسول ﷺ، يروي عليه السلام عن الرسول ﷺ قوله: " **لا لست أخاف عليك النسيان ولا الجهل** ".

ومحصلة هذين الحديثين وأحاديث أخرى كثيرة في نهج البلاغة تشير إلى ما مرَّ سابقاً من أن الرسول ﷺ كان يمارس نوعين من التأديب والتعليم لأُمته: الأول هو التأديب العام الذي تشترك فيه جميع الأمة، وهو تأديب يتناول الخطوط العريضة للشريعة بحسب ما تفرضه ظروف الواقع وبحسب حاجة السائل أو المستمع وقدرته على الفهم والاستيعاب، وهو يكون في المحافل العامة، أما لسؤال

(١) بحار الأنوار: ٢: ٣٢٠

سائل، أو ابتداراً من الرسول ﷺ بحسب ما يقدِّره من حاجة الأمة الآنيَّة، وقدرتها على الفهم والاستيعاب، والنوع الثاني هو التأديب والتعليم الخاص الذي كان يؤثر به أمير المؤمنين عليه السلام دون غيره من الأمة، وواضح أن الفارق بين النوعين كبير جداً كمَّاً ونوعاً.

القرآن والـ (أنا):

القرآن الكريم هو منهاج المؤمنين، وعلي عليه السلام هو أمير المؤمنين، ولا شك أن ثمة نقاط التقاء بين الطرفين، بل لا شك أن ثمةَ ما يجمع بين أيِّ مؤمن وبين القرآن، فكلاهما مخلوقان لله، وكلاهما مظهر من مظاهر قدرة الله وعظمته، وكلاهما يدعو إلى الله وما إلى ذلك، ولكن البحث سيحاول أن يثبت أن ثمة علاقةً فريدةً بين علي عليه السلام والقرآن لها بعد دلالي خاص، مما يلقي كثيراً من الضوء على الـ (أنا) ومرجعياتها.

يقول أمير المؤمنين عن عترة النبي عليهم السلام: " **فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ** " [1]. وهذا أمر للمكلفين " **بأن يُجْروا العِترةَ في إجلالها وإعظامها والانقياد لها والطاعة لأوامرها مَجرَى القرآن** " [2]. فثمَّة إذن علاقة تطابق وتلازم بين القرآن الكريم وبين العترة الطاهرة؛ إذ دونَ هذه العلاقة لا يمكن أن ننزلهم بمنزلة القرآن، فضلاً عن أحسن منازله. ولعل بعض النصوص المروية عن الرسول ﷺ، مثل حديث الثقلين [3]، تؤكد هذه العلاقة، إلّا أن البحث هنا يريد أن يستكشف طبيعتها من خلال الأوصاف المشتركة التي تضفيها نصوص النهج على كلا الطرفين.

قال أمير المؤمنين عليه السلام حين أنكر الخوارجُ تحكيمَ الرجال وقالو لا حكم إلا لله: " **وهذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ** " [4] ويقول: " **ذلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ** " [5]، فما الذي يعنيه هذان

(١) نهج البلاغة: ٢١٤

(٢) شرح ابن أبي الحديد: ٦: ٢٩٢

(٣) تواتر حديث الثقلين بألفاظ متقاربة منها ما جاء في المستدرك على الصحيحين: ٣: ١٦٠ " إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض "

(٤) نهج البلاغة: ٣١٨

(٥) نفسه: ٣٧٨

النصان؟ وما الفرق بينهما؟ وما الفائدة من إنزال قرآن " لن ينطق "؟ أليس المفروض فيه أن يخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام؟!

وللإجابة عن هذه التساؤلات سنفترض أنَّ أحد العلماء رأى بلداً متخلِّفاً وأراد أنْ يطورَه فألّف موسوعةً علمية تضم كلَّ معارفِ العالم المتطور، وأرسلها إليهم، ولم يكن فيهم مَنْ يجيد القراءة أو الكتابة. فما مقدار النفع الذي ستقدمه هذه الموسوعة لأهل هذا البلد؟ مع مراعاة أنّها لن تنطق؛ لأنها مجرد كلمات مكتوبة على ورق.

وإذا تقدمنا خطوةً إلى الأمام وافترضنا أن هذا العالم أرسل معها شخصاً متعلِّماً من بلده ليعلمهم ما تحتويه الموسوعة... لا شك هنا أنهم سوف ينتفعون منها بمقدارٍ ما، ولكن هل يستطيع هذا الشخص ومن ثم البلد المتخلف أن يحيط بكل محتوياتها؟ هذا إذا تجاوزنا مدى إمكانية التفاهم والتناغم بين المرسَل والمرسَل اليهم، بحكم طبيعة البيئة والثقافة وأساليب التفاهم المختلفة لكل منهما.

والآن لنتقدم خطوة أخيرة ولنفترض أن هذا العالم كان قد انتخب فرداً من أفراد البلد المتخلف نفسه، وأعدَّه إعداداً خاصاً وعلمه؛ حتى حفظ، عن ظهر قلب، كل ما تحتويه الموسوعة من معارف، كما علمه كيفية تطبيق هذه المعارف والانتفاع بها عملياً، وأرسل معه أُنموذجاً أو نماذج من أجهزة وآلات صُنِعت على ضوء النظريات والقوانين التي تحتويها الموسوعة؛ لتكون دليلاً عملياً ملموساً على ما يمكن لهذه النظريات أن تصنع، ولنتصور مقدار ما يمكن أن يصل إليه هذا البلد المتخلف من التطور، لا سيما إذا ما افترضنا أنَّ هذا العالم لم يقم بإعداد فرد واحد فقط، بل مجموعة أفراد ليكمّل اللاحق منهم ما بدأه السابق.

في المثال المفترض أعلاه نستطيع أن نقول إن هذه الموسوعة غير ناطقة بحكم كونها مجرد كلمات مكتوبة على ورق، بغض النظر عن مقدار المعارف التي تحتويها. وإنها تحتاج إلى قارئ " **ترجمان**". وإن مقدار ما يمكن أن يُفهَمُ منها يتوقف على مقدار ما يفهمه الترجمان أصلاً، وبمقدار قدرته الذاتية على التواصل والتوصيل.

كما نستطيع أن نقول إن كل من تعلم القراءة والكتابة أو حفظ شيئاً من هذه الموسوعة يستطيع أن ينطق عنها، ولكنَّ أفضل من يقوم بهذا الدور هو ذلك الشخص الذي أُعِدَّ إعداداً خاصاً لهذه المهمة، بحيث يمكن أن نسميه ـ وحده ـ الموسوعة الناطقة إذا ما اتفقنا على تسمية الموسوعة المكتوبة بـ " الصامتة ".

ومن هنا يعتقد الباحث أن قوله عليه السلام "... **وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ** "، يبين الحقيقة الأولية التي تقرر حاجة القرآن إلى ترجمان، وأن قوله عليه السلام "... **وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ** " ـ وكثيراً من النصوص الأخرى المبثوثة في النهج ـ يشير إلى المصداق الأكمل لهذا الترجمان، وإنْ كان المعروف من علم الإمام عليه السلام، يمكن أن يكفي في فهم هذا المعنى دون الحاجة إلى نصوص؛ فـ " **إنّ معاني القرآن لا يدركها، ولن يدركها على حقيقتها، ويعرف عظمتها إلاّ من يُحِسُّها من أعماقه، وينسجم معها بقلبه وعقله، ويختلط إيمانُه بها بدمه ولحمه، وهنا يكمن السرُّ في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السَّلام: " ذاك القرآن الصامت، وأنا القرآن الناطق** " "[1]، فهو عليه السلام أعلم الصحابة بالقرآن وأكثرهم ذوباناً في الإسلام، وقرباً من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

كما يعتقد أن طبيعة هذه العلاقة بين الإمام والقرآن هي التي تفرض اشتراكهما في كثير من الصفات، بغض النظر عن مدى قصدية التوصيف في نصوص النهج. وقد يبدو لقائل أن يقول: إن القرآن الكريم والعترة يَرِدان في نصوص النهج في معرض المديح، بطبيعة الحال، ومن الطبيعي أن تتكرر الصفة نفسها، لممدوحَين أو أكثر، إذا كانا ينتميان إلى بيئة واحدة وكان المادح واحداً، لا سيما وأن المديح الإسلامي يعتمد على مرتكزات ثابتة ومحددة تقريباً كالهدى والصلاح والاستقامة والعلم وغيرها. وهذا ما يشهد به أدب المديح العربي في كل عصر من عصوره، فكل ممدوح شجاع وكل ممدوح كريم وكل ممدوح مقدام وأديب....

ولئن كان هذا القول يمكن أن يصدق على ممدوحَين من بني البشر؛ لأن صفات الكمال البشرية واحدة، إذا كانت البيئة واحدة، فإن من الصعوبة بمكان أن تتحد هذه الصفات أو تتشابه في ممدوحَين من جنسين مختلفين كالكتاب والعترة، إلا إذا كان بينهما عامل مشترك اتُّخِذَ أساساً للمديح، شرطَ أن يكون هذا العامل جوهرياً في كل منهما وليس عرضياً هامشياً. وفي هذه الحالة لا بد أن تتمحور الصفات المشتركة على هذا العامل المشترَك.

وهذه الصفات يمكن أنْ تقسم إلى مجموعتين هما: صفات مشتركة بين الطرفين بحيث يتساويان في امتلاكهما لهذه الصفة أو تلك: فـ " **الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لاَ يَغُشّ** "[2]، والإمام عليه السلام هو الناصح الشفيق العالِم المجرِّب[3]، والقرآن " **يَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلى بَعْض، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي اللهِ، وَلاَ يُخَالِفُ**

(١) المناهج التفسيرية في علوم القرآن: ٤٨

(٢) نهج البلاغة: ٤٢١

(٣) ينظر: نفسه: ١٤٠

بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ " [١]، وأهل البيت " **يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ، لاَ يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ** " [٢]، والقرآن هو " **أَثَافِيُّ الاْسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ** " [٣]، وأهل البيت " **هُمْ دَعَائِمُ الإِسْلاَمِ** " [٤] و " **هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ اليَقِينِ** " [٥] وغير ذلك من الصفات المشتركة بني الطرفين.

وصفات أُخرى تكاملية، تتكامل فيها الـ (أنا) مع القرآن، والقرآن مع الـ (أنا). وثمة نص يجسد هذا التكامل بصورة واضحة هو قوله ﷺ: " **بِهِمْ عُلِمَ الْكِتَابُ وَبِهِ عُلِمُوا، وَبِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا** " [٦]. ولهذا التكامل صور متعددة بتعدد زوايا النظر أو الصفة التي يوصفان بها، فإذا كان القرآن هو " **يَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ** " [٧]، فأهل البيت هم " **الْخَزَنَةُ وَالأَبْوَابُ، وَلاَ تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلاَّ مِنْ أَبْوَابِهَا** " [٨]، وإذا كان القرآن " **حَقّاً لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ** " [٩]، فأهل البيت عليهم السلام " **هُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ** " [١٠]، وإذا كان القرآن " **هُدىً لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ** " [١١]، فبأهل البيت عليهم السلام " **يُسْتَعْطَى الْهُدَى**" [١٢]، وكثير غير ذلك، بل لعلَّ أغلب أوصاف القرآن في النهج تتشابه وتتكامل مع ما تصف به الـ (أنا) نفسَها.

وإذا أردنا أن نجمع هذه الأوصاف الجزئية ونوحدها في معنى كلي عام، فسنجد أن هذا المعنى يتمحور حول الدور الذي يفترض أن يقوم به كل من القرآن والعترة في حياة الأُمة الإسلامية، والمقومات التي يمتلكها كل منهما، والنتائج المترتبة على التفاف الأُمة حولهما أو تخلفها عنهما. كما أن هذه الأوصاف تشير إلى أنَّ هذه القيادة لها ما يميزها عن غيرها؛ فإذا كانت القيادة في أي تنظيم بشري تستمد شرعيتها من نفسها؛ بمعنى أن كون القائد قائداً هو ما يُلزم الآخرين باتباعه، بغض

(١) المصدر نفسه: ٣٣٢
(٢) نفسه: ٥٧١
(٣) نفسه: ٥١٣
(٤) نفسه: ٥٧١
(٥) نفسه: ٧٣
(٦) نفسه: ٨٠٨.
(٧) نفسه: ٥١٣.
(٨) نفسه: ٣٦٦.
(٩) نفسه: ٥١٢.
(١٠) نفسه: ٢١٤.
(١١) نفسه: ٥١٣.
(١٢) نفسه: ٣٤٤.

النظر عن مؤهلات هذا القائد، وطريقة تسنمه لمنصب القيادة، فإن قيادة القرآن والعترة ـ الـ (أنا) ـ تَستَمِدُّ شرعيتَها من طبيعة القرآن والعترة أنفسهما؛ بمعنى أن المسلم مكلف باتباع القرآن لأن القرآن " **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** " (١)، ومكلف بإطاعة أهل البيت لانهم " **لاَ يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ** " كما مر. وهذا هو معنى الإمامة التي لا يسلبها حقيقتَها تعطيلُ الناس لها، فعلي عليه السلام إمام سواء مارس الحكومة في الأُمة أم لم يمارسها، كما أن القرآن هدى سواء اهتدى به الناس أم هجروه، والحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا كما أن سفينة نوح هي سفينة النجاة ركبها الناس أم لم يركبوها، مع أنه لا عاصم من طوفان الانحراف غيرها. وما على الإمام ـ قرآناً كان أم بشراً ـ إلا أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة " **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** " (٢)، وهذا ما يشير إليه النهج تماماً: " **فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ** " (٣)، إلى جانب قوله: " **انْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، وَلاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا** " (٤).

ولعل من الغريب أن يشترك القرآن والعترة عليهما السلام حتى في طبيعة الظلم الذي يتعرضان له من الأمة، فالإمام يصف حال الناس وحال القرآن في زمن السوء الذي سيُنفَى فيه القرآن ويُحرَّف عن مواضعه فيقول: " **كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ اسْمُهُ، وَلاَ يَعْرِفُونَ إِلاَّ خَطَّهُ وَزَبْرَهُ** " (٥)، ويصف حالَ الناس وحاله في زمن الانحراف والفتن الذي عاش فيه فيقول: " **لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً! وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً** " (٦).

(١) سورة فصلت: آية: ٤٢.
(٢) سورة الأنفال: آية: ٤٢.
(٣) نهج البلاغة: ٢٢٣
(٤) نفسه: ٢٥٥
(٥) نفسه: ٣٥١
(٦) نفسه: ٥٢٥

قطب الرحى:

من خلال ما تقدم يرى الباحث أن قطب الرحى الذي تدور حوله صفات الـ (أنا) ومميزاتها في نهج البلاغة هو الإمامة، على أن لا نفهم من الإمامة هنا معناها السياسي فحسب، بل المعنى الذي حاولنا الإلماع إلى بعض خصائصه وصفاته فيما سبق، والذي هو امتداد للنبوة، في التبليغ عن الله تعالى: " **واللهِ مَا أَسمَعَكُمُ الرسولُ ﷺ شَيئاً إلّا وها أنا ذَا اليومَ مُسْمِعُكُمُوه، وَمَا أَسْمَاعُكُمُ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالأَمْسِ، وَلاَ شُقَّتْ لَهُمُ الأَبصَارُ، وَجُعِلَتْ لَهُمُ الأَفْئِدَةُ فِي ذلِكَ الأَوَانِ، إلاَّ وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هذَا الزَّمَانِ** "(١)، وذلك من خلال ما علّمه الرسول ﷺ ومن خلال قدرته على الفهم الصحيح للقرآن وقدرته على تأويله بما يتناسب مع مستجدات الأمور على الساحة الإسلامية. وبهذا المعنى تكون الإمامة جزءاً لا يتجزأ من الرسالة، إذا أريد لها أن تستمر بالحياة وجوداً وفاعليةً، بعد وفاة الرسول ﷺ؛ لأنها نيابة عن الرسول في أمته بما هو رسول مصطفى ومعَدٌّ سلفاً، ومعصومٌ ومسدَّدٌ من قبل السماء، وبها تبقى " **القيادة الإسلامية من بعد الرسول ﷺ حيةً محرِّكةً لعجلة الحياة الدينية بالوجه الكفيل لسعادة الدنيا من ناحية،...، ولسعادة الآخرة من ناحية أخرى** " (٢)، وهي بهذا المعنى الضمانةُ الوحيدة التي تحفظ الأمة من الانحراف بعد الرسول ﷺ، وهذا يعني أن الرسالة قد تحتاج إلى أكثر من إمام لكي " **لاَ تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِم للهِ بِحُجَّة، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، أَوْ خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلاَّ تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهُ. وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ أُولئِكَ؟ أُولئِكَ ـ وَاللَّهِ ـ الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَالأَعْظَمُونَ قَدْراً، يَحْفَظُ اللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ** " (٣).

والإمام هو الامتداد الطبيعي للنبي في تجسيد المَثَل الأعلى الذي تحتاجه الإنسانية وتَؤُمُّهُ في مسيرتها التكاملية على الأرض. الإمام، بهذا المعنى، هو " **ذلك النموذج الأعلى الذي كانت الانسانية على طول تاريخها تشعر بالحاجة اليه، حيث كانت تبحث بدافع الحاجة الملحة عن المُثل والنماذج العليا للفضائل الإنسانية ـ المفقودة في هذا العالم ـ فلا تراها، وتلح الحاجة فتنطلق الإنسانية إلى صياغتها في عالم الذهن وتتخذ منها قدوة وأسوة، وتحبها وتقدسها وتتعامل معها كنماذج مثالية تسمو على التراب** " (٤). الإمام هو النموذج الكامل الذي رسمته السماء وحددت ملامحه، ليكون

(١) المصدر نفسه: ٢١٨

(٢) المرجعية والقيادة: ١٣

(٣) نهج البلاغة: ٧٤٧، ٧٤٨

(٤) الإمام علي: ٩٨ – ٩٩

معياراً للإنسانية، وغايةً قصوى في طريق تكاملها: " **أَنَا يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ** " [١]، ويكون حجة عليها، أمام ربها، لأنه الحد الفارق بين الحق والباطل، والضلال والهدى " **أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ، وَخَصِيمُ الْمُرْتَابِينَ، عَلَى كِتَابِ اللهِ تُعْرَضُ الأَمْثَالُ** " [٢]. وبهذا الفهم فقط يمكن أن يصدقَ قول رسول الله ﷺ " **عليٌّ مع الحقِّ والقرآن، والحقُّ والقرآن مع عليٍّ ولن يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوضَ يوم القيامة** " [٣]. والإمام في كل هذا لا يخرج عن كينونته البشرية ووجوده الواقعي على مسرح الحياة التي يعيشها عامة الناس، ولكن الله تعالى اختصه برحمته، وأعده إعداداً خاصاً ليكون خليفةً له في أرضه. وبهذا فلا يمكن للإنسانية بحال أن تعرج الى ربها في مسيرة التكامل إلا عن طريق الإمام؛ لأنه المنهاج الذي رسمه الله تعالى لهذه الغاية؛ لذلك ورد في الحديث " **مَنْ مَاتَ بِغَيْرِ إِمَامٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً** " [٤]؛ وهذا الحديث يفترض في الإمام أن يكون سراطاً مستقيماً اختطه الله لعباده، وأمرهم بالالتزام به، وبغير معرفة هذا السراط والالتزام به لا يمكن السير إلى الله تعالى، لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: " **وَإِنَّمَا الأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ، لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِلاَّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ**"[٥]. وأول وأكمل مصداق للإمام بهذا المعنى هو الرسول الأكرم ﷺ الذي هو إمام المتقين وأول أهل البيت الذين يقول فيهم تثبيتاً لهذا المعنى " **إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ. إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مَثَلُ بَابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، من دخل غفر له**"[٦].

(١) نهج البلاغة: ٧٨٣

(٢) نفسه: ١٨٢

(٣) المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين: ١١٩

(٤) مسند أحمد بن حنبل: ٢٨: ٨٨ ـ ٨٩.

(٥) نهج البلاغة: ٣٦٢

(٦) المعجم الأوسط: ٦: ٨٥.

المبحث الثالث: الإمامة والمسلمون:

لعل الإمامة هي أول قضية اختلف فيها المسلمون بعد رسول الله ﷺ بل لعلنا لا نجد فرقة إسلامية تختلف مع أخرى، إلا لأن هذه تأتمُّ بهذا وتلك بذاك، ولقد بلغت أهمية الإمامة بمعناها العام، في الفهم الإسلامي، أن رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال: " **إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا عليكم أحدكم** "(١)، ومع ذلك لا نجد المسلمين يتفقون على فهم موحد ومتكامل لقضية الإمامة يضم جميع أطرافها في نظرية ناضجة متكاملة، وقد يكون هذا النقص هو أكبر نقاط ضعفهم على المستوى الفكري والتطبيقي، وهو ما فتح الباب واسعاً أمام أمثال يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ليجلس على كرسي رسول الله ﷺ، ويقتل ابن بنته، ويسبي نساءه وذريته، ثم يستبيح دماء صحابته وأعراضهم في المدينة المنورة، ثم يضرب بيت الله الحرام بالمنجنيق. والمضحك المبكي أنه فعل كل ذلك باسم رسول الله (فهو خليفة رسول الله)، وبأيدي المسلمين الذين هم جند الله.

والبحث هنا لا يريد أن يؤسس لنظرية جديدة في الإمامة، كما لا يريد أن ينتصر لنظرية على حساب أخرى، بقدر ما يريد أن يستقرئ نصوص نهج البلاغة، ليستشف منها رؤية الإمام عليه السلام ومفهومه لهذه القضية الجوهرية في الفكر الإسلامي، وذلك لأنها كما يرى الباحث قطب الرحى والجوهر الحقيقي الذي تتمحور حوله الـ (أنا) من جانب، ولأن من نصوص النهج ما يصرح بأن الإمامة حق لهذه الـ (أنا) وقد دُفِعَت عنه لسبب أو لآخر، ومن ثم فإن مفهوم الآخر للإمامة وطريقة تعامله معها يمكن أن يُعدَّ نقطة جوهرية في تحديد صورة هذا الآخر وطبيعة العلاقة معه.

ومهما يكن من أمر فإن البحث لن يدخل في جدل حول إثبات الإمامة لهذا الطرف أو ذاك، ولا حول طبيعتها أو أساس شرعيتها، بقدر ما يحاول استقراء بعض نصوص النهج وما يمكن أن تُجلِّيه في هذا المجال.

قال تعالى: " **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي، اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي** " (٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه لمعاوية: " **فدعْ عنكَ مَنْ مالتْ بهِ الرَّمِيَّةُ، فإنّا صنائعُ ربّنا والناسُ بعدُ صنائعُ لنا** " (٣).

---

(١) المعجم الكبير: ٩: ١٨٥

(٢) سورة طه: الآيتان: ٤١، ٤٢

(٣) نهج البلاغة: ٦٠٩

ولا شكَّ أن علياً عليه السلام تلميذ القرآن الكريم، وقد " **أُشرِبت روحُه حبَّ القرآن فعاد سلوكاً وعملاً ومنطقاً** " [١]، " **فكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية، يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ** " [٢]، ولا شك أيضاً أن بين الرسول صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام من جانب، وبين موسى وهارون عليهما السلام من جانب آخر، الكثير من الترابط في الذهنية الإسلامية، وذهنية الأمام عليه السلام بشكل خاص؛ بسبب ما تواتر عن الرسول صلى الله عليه وآله من تشبيهه منزلةَ علي عليه السلام منه بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام [٣]. وكل هذا يوحي، بجلاء، أن علياً عليه السلام كان يستحضر هذه الآية المباركة، بحمولاتها المعرفية، حينما وظَّف لفظة " صنائع " تحديداً؛ ومن ثَمَّ فلا يمكن فهم مدلولات عبارته بعيداً عن مدلولات الآية الكريمة، وإن كانت بنفسها واضحة الدلالة.

لكلمة صنيعة في معاجم اللغة معنيان: الأول: " **ما اصطنعتَ من خيرٍ إلى غيرِك**" [٤]، وهذا المعنى يُستخدم في وصف الأفعال، فيقال مثلاً: " **اصطنعتُ عندَ فلانٍ صنيعةً** " [٥]، وهي العطية والكرامة والإحسان [٦]. والمعنى الآخر يُستخدم في وصف الأشخاص فيقال: **هو صَنيعي وصَنيعَتي أي اصْطَنَعْتُه ورَبَّيْتُه وخرَّجْتُه وأدَّبْتُه** " [٧]، " **واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسي: اخْتَرْتُكَ لخاصَّةِ أمْرٍ أسْتَكفيكهُ**"[٨]. فاللفظ بمعناه اللغوي يدل على أنَّ الله تعالى هو الذي اختار هذه المجموعة وربّاها وأدّبها وخرّجها وأهَّلها للقيام بدور خاص، سواء كانت هذه التربية بالإلهام أو النكت في القلب أو غيره: " **إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى** " [٩]، أم كانت بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله: " **يا كميل إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أدَّبَه اللهُ عزَّ وجلَّ وهو أدَّبني وأنا أُؤدِّبُ المؤمنين** " [١٠]، وهذا الدور هو تربية وإعداد الناس. ووجود الإمام

(١) الأثر القرآني في نهج البلاغة: ٣٨

(٢) عبقرية الإمام علي: ٤٩

(٣) ينظر مثلاً: صحيح البخاري: ٣: ١٣٥٩، وصحيح مسلم: ٤: ١٨٧٠

(٤) كتاب العين مرتباً على حروف المعجم: ٢: ٤١٧، وينظر: المحكم والمحيط الأعظم: ١: ٤٤٤، وينظر قريباً منه في لسان العرب مادة " صنع "

(٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ٣: ١٢٤٦

(٦) ينظر لسان العرب: مادة صنع

(٧) تاج العروس: ٢١: ٣٦٦

(٨) القاموس المحيط: ٢: ٢٩٨

(٩) نهج البلاغة: ٤٩١

(١٠) بحار الأنوار: ٧٤: ٢٦٧

بهذا المعنى إحسانٌ من قبل الله، ونعمةٌ له تعالى على العالمين، وهذا يؤكد ما تطرق إليه البحث سابقاً من أنّ الإمام هو امتداد للرسول ﷺ الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين.

وقد ذكر المفسرون لهذه الآية مجموعة من الدلالات التي تؤكد هذا المعنى وتبرِّز خصوصياته، فقد قال الزمخشري: " **مثّل حالَه بحال من يراه بعضُ الملوك، لجوامعِ خصالٍ فيه وخصائصَ، أهلاً لئلّا يكونَ أحدٌ أقربَ منزلةً منه إليه، ولا ألطفَ محلّاً، فيصطنعه بالكرامة والأثرة ويستخلِصُه لنفسِه ولا يُبصِرُ ولا يَسمَعُ إلا بعينِه وأذنِه، ولا يأتمنُ على مكنونِ سرِّه إلا سواء ضميره** " (١)، وقال الفخر الرازي: " **قالت المعتزلة: إنَّه سبحانه وتعالى إذا كلَّفَ عبادَه وجبَ عليه أن يلطُف بهم، ومن جملة الألطاف ما لا يُعلم إلا سمعاً، فلو لم يصطنعه بالرسالة لبقي في عهدة الواجب، فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه في أداء ما وجب على الله تعالى، فصح أن يقول واصطنعتك لنفسي. قال القفال واصطنعتك أصله من قولهم اصطنع فلان فلاناً إذا أحسن إليه حتى يضاف إليه فيقال هذا صنيع فلان وجريح فلان، وقوله لنفسي أي لأصرفك في أوامري، لئلا تشتغل بغير ما أمرتك به، وهو إقامة حجتي وتبليغ رسالتي، وأن تكون، في حركاتك وسكناتك، لي لا لنفسك ولا لغيرك** " (٢).

مما تقدم يبدو أن هذا النص، على إيجازه، يكاد يلخص الخطوط العريضة لنظرية الإمامة كاملة؛ وسيحاول البحث تأشير بعض النقاط التي يطرحها النص، وهي:

١. أن الإمام ـ إذا لم يكن مُعَدّاً سَلَفَاً لأداء هذا الدور روحياً وفكرياً ـ قد ينحرف عنه قليلاً أو كثيراً، بسبب من خصوصية هذا الدور، كما تنحرف الطريدة " الرَّمِيَّة " بالصيَّاد حين ينسى أو يتجاهل سبيله الواضح في غمرة السعي وراءها. هذا طبعاً حين تكون الإمامة أَثَرَة تشح عليها نفوس (٣).
٢. أن عليّاً عليه السلام مُعَدٌّ إعداداً خاصاً من قبل الله تعالى رحمةً منه بعباده وإنعاماً عليهم، " **تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاَتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتَ. وَعِنْدَنَا ـ أَهْلَ الْبَيْتِ ـ أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الأَمْرِ أَلاَ وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ، مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ** " (٤).

(١) الكشاف: ٤: ٨٣
(٢) التفسير الكبير: ٢٢: ٤٩ ـ ٥٠
(٣) ينظر: نهج البلاغة: ٣٨٩
(٤) نفسه: ٣٠٧ ـ ٣٠٨

٣. أن دور الإمام هو تربية الأُمة وإعدادها للسير في طريق تكاملها، عن طريق قيادتها على المنهاج الإلهي الواضح الذي لا يضل سالكه " **وَاللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ ﷺ شَيْئاً إِلاَّ وَهَا أَنَا ذَا الْيَوْمَ مُسْمِعُكُمُوهُ** " (١).

٤. أن الأثر المترتب على تربية الله للإمام غير قابل للتخلف بدليل الاتصال المباشر بين الصانع والمصنوع " **صنائع ربنا** "؛ لذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **مَا كَذَبْتُ وَلاَ كُذِّبْتُ، وَلاَ ضَلَلْتُ وَلاَ ضُلَّ بِي** " (٢)، في حين يمكن أن يتخلف الأثر المترتب على تربية الإمام للأمة لوجود الفاصل بين الصانع والمصنوع " **صنائع لنا** ": " **أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الأَسَدِ!** " (٣).

٥. أن عدم امكانية تخلف الأثر المترتب على تربية الله تعالى للإمام يعني أن الإمام لا يمكن أن يحيد عن الإرادة الإلهية والخط الإلهي في قيادة الأمة " **لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لاَ يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلاَّ هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ!**"(٤).

٦. أنَّ الأُمةَ مُلزَمةٌ بإطاعته في طريقها إلى الله لإمكانية انحراف غيره، وعدم إمكانية انحرافه عما رسمه الله للإنسانية " **عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لاَ تُعْذَرُونَ بِجَهَالَتِهِ** " (٥)

٧. أن الإمامة ليست مختصة بفرد واحد بل هي تنطبق على مجموعة معينة" **صنائع ربنا** "، تشير نصوص النهج وبعض ما رُوِيَ عن الرسول ﷺ إلى أنهم أهل البيت عليهم السلام.

وهذه الجماعة لها حضور كبير في نصوص النهج، كما مرَّ سابقاً، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى نص واحد يقول فيه أمير المؤمنين عليه السلام: " **هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ... لا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّد ﷺ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً. هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ اليَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الغَالِي، وَبِهِمْ يَلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلايَةِ، وَفِيهِمُ الوَصِيَّةُ وَالوِرَاثَةُ** " (٦). حيث يشير هذا النص إلى مجموعة من الخصائص التي خص الله تعالى بها هذه المجموعة وفضلهم بها على غيرهم، بحيث

(١) المصدر نفسه: ٢١٨
(٢) نفسه: ٧٥٤
(٣) نفسه: ٣٢٨
(٤) نفسه: ٣٠٧
(٥) نفسه: ٧٥١
(٦) نفسه: ٧٢، ٧٣

لا يقاس بهم أحد من هذه الأمة التي كانت " **خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** " [١]، وحصر فيهم الولاية والوصية والوراثة.

ولكنَّ الزمن الذي عاشه الرسول ﷺ في الأمة لم يكن كافياً لإيصالها إلى مرحلة النضج النهائي الذي تستطيع من خلاله أن تفهم فلسفة الحياة والوجود الإنساني على الأرض، ولعل علاقة بعض المسلمين ـ قلّوا أو كثروا ـ بالرسول ﷺ، وبالرسالة، كانت قائمة على الشدِّ العاطفي أكثر من قيامها على رسوخ العقيدة بآيديولوجياتها الجديدة عليهم، وفي تاريخ المسلمين الكثير مما يدل على ذلك، فحين " **أعطى رسول اللَّهِ ﷺ ما أعطى من تِلْكَ الْعَطَايَا في قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، ولم يَكُنْ في الأَنْصَارِ منها شيء وَجَدَ هذا الحي مِنَ الأَنْصَارِ في أَنْفُسِهِمْ حتى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، حتى قال قَائِلُهُمْ لقي رسول اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ... فَأَتَاهُمْ رسول اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عليه بالذي هو له أَهْلٌ ثُمَّ قال يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ مقالة بلغتني عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا في أَنْفُسِكُمْ. أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ الله وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ الله وأعداء فَأَلَّفَ الله بين قُلُوبِكُمْ؟ قالوا بَلِ الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ. قال أَلاَ تجيبونني يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ. قالوا وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ. قال أَمَا والله لو شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فأغنيناك. أَوَجَدْتُمْ في أَنْفُسِكُم يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ في لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بها قَوْماً لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إلى إِسْلاَمِكُمْ؟! أَفَلاَ تَرْضَوْنَ يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ان يَذْهَبَ الناس بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ في رِحَالِكُمْ؟! فوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امرأ مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ الناس شِعْباً وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللهم ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ. قال فَبَكَى الْقَوْمُ حتى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْماً وَحَظّاً** " [٢]. ولا شك أن الأنصار في مقالتهم هذه قد انطلقوا من فهم مغلوط للرسول والرسالة بحيث قالوا عن الرسول ﷺ: إنه وجد أهله، وهذا يعني أنه ﷺ ـ في نظرهم ـ إنسان مثلهم تؤثر فيه أواصر القرابة والعصبية بحيث حاد عن الحق في قسمته للغنائم، كما يتضح من النص أنه ﷺ لم يركز على الجانب العقلي والشرعي في إقناعهم بقدر تركيزه على الجانب العاطفي، لأن آيديولوجيات الإسلام لم تكن بعد قد ترسخت في نفوسهم.

(١) سورة آل عمران: آية: ١١٠

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ١٨: ٢٥٣ ـ ٢٥٥.

ولعل من الأنصار والمهاجرين من كان يرى في اهتمام الرسول ﷺ بالإمام علي عليه السلام، وكثرة وصاياه فيه وفي أهل بيته شيئاً من هذا القبيل. فقد جاء في تفسير الثعلبي أن الحارث بن النعمان الفهري، لما بلغه حديث الغدير " **أتى النبيّ ﷺ وهو في ملأ من أصحابه فقال يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلّي خمساً فقبلناه منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا بالحجّ فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم شهراً فقبلنا، ثمّ لم ترض بهذا حتّى رفعت بضبعي ابن عمّك ففضلته علينا وقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه فهذا شيء منك أم من الله تعالى؟ فقال (والّذي لا إله إلاّ هو هذا من الله). فولّى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول اللهمّ إن كان ما يقوله حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**"(١). ولا شك أن هذا الموقف ـ وإن كان متطرفاً ـ يعبِّر عن نوع من التداخل والاختلاط بين الإسلامي والجاهلي في نفوس بعض المسلمين، وإلا فكيف يمكن أن يكون حديث الغدير ـ أو غيره ـ من الرسول ﷺ ولا يكون من الله تعالى إلا إذا كانت سلوكيات الرسول ﷺ مشوبةً بما كان يفعله الجاهليون من إيثار ذويهم على غيرهم بسبب من العصبية القبلية. وإذا كان هذا محالاً على الرسول ﷺ، فلا شك أن هذا التصور ناشئٌ مما تخلف في نفوس بعض المسلمين من أخلاق الجاهلية. والغريب أن قَسَمَ الرسول ﷺ لم يبدد تصور الحارث بن النعمان، وهذا يدل على مدى رسوخ هذه الأخلاقيات في نفوس بعضهم.

بين الخلافة والإمامة:

رُويَ عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أنه قال يوماً " **والناسُ حوله: والله ما أدري أخليفةٌ أنا أم مَلِك، فإنْ كنتُ مَلِكاً فقد وُرِّطْتُ في أمر عظيم، فقال له قائلٌ: يا أميرَ المؤمنين إنّ بينهما فرقاً، وإنَّك إن شاء اللهُ لعلى خير. قال: كيف؟ قال: إن الخليفةَ لا يأخذُ إلا حقاً ولا يضعُهُ إلا في حقٍّ، وأنت بحمد الله كذلك، والملِك يعسفُ الناسَ ويأخذ مالَ هذا فيعطيه هذا. فسكتَ عمرُ، وقال: أرجو أنْ أكونَهُ** " (٢).

إن هذا النص بحاجة إلى تأمل دقيق، فالمتكلم هنا لا يساوي بين الخلافة والملك، إذ إن مجرد التردد بينهما يعني تمايز دلالتيهما في ذهنه، فضلاً على أنه يرتب على أحدهما ما لا يرتبه على

(١) تفسير الثعلبي: ١٠: ٣٥، وينظر: تفسير القرطبي: ١٨: ٢٧٨ ـ ٢٧٩، والميزان في تفسير القرآن: ٦: ٥٠ وما بعدها.
(٢) شرح ابن أبي الحديد: ١٢: ٥٣، وينظر: تاريخ الخلفاء: ١٤٠، والدر المنثور: ٧: ١٦٩، وكنز العمال: ١٢: ٢٥٤.

الآخر (التورط في أمر عظيم). ولكن السؤال الملح هنا: لماذا يتردد الخليفة بين نسبة نفسه إلى الخلافة ونسبتها إلى الملك؟

لقد كان مفهوم الخلافة ـ بمعناها العام ـ مفهوماً إسلامياً مركزياً استطاع القرآن الكريم أن يُجَذِّره في وعي المسلم بوصفه خليفةً لله في أرضه، كما كان مفهوم الخلافة ـ بمعناها الخاص ـ معروفاً ومتداولاً بين المسلمين أيامَ أبي بكر بوصفه خليفة لرسول الله ﷺ، ولعل هذا المفهوم يرتكز على الشرعية التي يضفيها المُستَخلِفُ على عمل المُستَخلَفُ، فالإنسان لا يكون خليفة لله في أرضه إلا إذا التزم بشريعة الله تعالى، وإلا خرج عن دائرة الخلافة ودخل في دائرة أخرى، وخليفة رسول الله هو امتداد للرسول ﷺ في تطبيق هذه الشريعة في الأرض، وتابع له في ذلك، بحيث يستمد شرعية وجوده من هذا الاتباع على الحق والشريعة وهذا ما تَنَبَّهَ له المجيبُ: " **إن الخليفةَ لا يأخذُ إلا حقاً ولا يضعُهُ إلا في حقٍّ ... والملِك يعسفُ الناسَ** ... " ولا شك أن الخليفة الثاني لا يجهل هذا الفارق بين الخلافة بمفهومها الإسلامي والملك بحمولاته الجاهلية القائمة على القوة والتعسف.

ويبدو أن الخليفة لم يكن متردداً بين المفهومين بقدر ما كان متردداً في المصداق، بمعنى أن التساؤل كان عن مدى مطابقة أفعاله ـ بوصفه قائداً للأُمة ـ للشريعة الإسلامية التي كان مؤتمناً عليها بوصفه خليفة لرسول الله ﷺ، لذلك كان في قول القائل بعد تعريفه للخليفة " **وأنت بحمد الله كذلك** " نوع من التطمين للخليفة حتى قال: " **أرجو أنْ أكونَهُ** "، ولعل في هذا تواضعاً أو تحرزاً يُحمَدَ للخليفة، فهو رجل لم يدّعِ العصمة يوماً، ولم يدّعِها له أحد من المسلمين، وهو بهذا معرَّض للخطأ في الاجتهاد، ومن ثم، فمن حقه، بل قد يجب عليه، أن لا يجزم بأنّ ما يفعله أو يقوله هو الشريعة بعينها، وهذا واضح في جانب كبير من سيرة الخليفة الثاني، حتى أنه لم يكن يتحرج من أن يتراجع عن رأي رآه، بعد أن يتنبه إلى خطأ هذا الرأي، حتى وإن كان المنبِّهُ امرأةً من المسلمين[1]. إلا أن إمكانية الخطأ في فهم الشريعة أو تطبيقها تعني إمكانية الخروج من دائرة الشريعة والدخول في دائرة أخرى. قد يكون المتحكمُ فيها الظنَّ أو الاستحسانَ أو حتى ما يمكن أن يمر من عادات الجاهلية وقناعاتها، وهذا هو الفارق بين الخلافة بوصفها قيادة غير معصومة يختارها الناس لأنفسهم وبين الإمامة بوصفها قيادة معصومة يختارها الله للناس.

(١) ينظر: السنن الكبرى للبيهقي: ٧: ٣٨٠.

ويبدو أن هذا الاضطراب في الفهم واختلاط الإسلامي بغيره، فكراً وسلوكاً، لم يكن ظاهرة شاذة في الحياة الإسلامية، سواء أكان هذا التداخل بقصد أم بغير قصد، لأن مفاهيم الإسلام وقيمه ورؤاه لم تكن قد ترسخت تماماً في أذهان المسلمين، حتى كانت تختلط مع غيرها بشكل أو آخر، فلم يكن الفارق بين الإسلامي وغير الإسلامي واضحاً دائماً، ففي صحيح مسلم أن أبا سفيان مر على بعض الصحابة فقال له بعضهم: " **والله ما أَخَذَتْ سُيُوفُ اللَّهِ من عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مأخذها** "، فقال صحابي آخر: " **أَتَقُولُونَ هذا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ** "(١). نعم لقد كان أبو سفيان عدواً لله في أعين المسلمين، وقد كان سيداً في أعين قريش، وهذا لا يعني أن هذا (الصحابي الآخر) لم يكن من المسلمين بل يعني أن تصرفه في تلك اللحظة لم يكن صادراً عن مرجعيات إسلامية صرفة، ولعلّه لم ينتبه إلى ذلك، حتى أنه شكا فعل أصحابه إلى رسول الله ﷺ الذي نبهه إلى خطأه بقوله: " **لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لقد أَغْضَبْتَ رَبَّكَ** " (٢).

ولئن كانت هذه ضبابية على المستوى العملي فثمة ضبابية أخرى على المستوى النظري، إذ يروي السيوطي أن عمر بن الخطاب سأل طلحةَ والزبيرَ وكعباً وسلمانَ: ما الخليفةُ من المَلِك؟ فقال طلحةُ والزبيرُ: ما ندري، ولمَّا أجابه سلمان قال كعب: " **ما كنت أحسبُ أحداً يعرف الخليفةَ من المَلِك غيري** "(٣). وهذا يدلُّ على أنَّ الخلافةَ ـ بوصفها مفهوماً إسلامياً ـ لم تترسخ بعدُ في أذهان المسلمين ونفوسهم، بل بقي الصراع بينها وبين المُلك ـ بحمولاته الجاهلية ـ بين مدٍّ وجزر. إلى الحد الذي جعل سعيداً بن العاص والي عثمان على الكوفة يزعم أنَّ سواد العراق إنما هو بستان لقريش (٤). وإن كان هذا لا يعني أنَّ الفرقَ بين حاكمية الدين وبين غَلَبة الملك لم يكن واضحاً لدى الجميع، بل يعني أنَّ الأَنساق والمرجعيات الفكرية والنفسية التي خلفتها الجاهلية في عقول بعض المسلمين ونفوسهم لمَّا تزلْ تلقي بظلال كثيفة على مفاهيمهم وأحكامهم، على الرغم من أنَّ التأسيس لبناء مصطلحات وأسماء جديدة للتعبير عن المفاهيم الجديدة المباينة للمفاهيم الجاهلية قد بدأ منذ مرحلة مبكِّرة من حياة الرسالة، وهذا ما تدل عليه المحاورة التي جرت بين العباس بن عبد المطَّلِب وأبي

(١) صحيح مسلم: ٤ : ١٩٤٧.

(٢) نفسه.

(٣) الدر المنثور: ٧: ١٦٩

(٤) ينظر: تاريخ الرسل والملوك: ٢: ٦٣٧

سفيان، حيث قال أبو سفيان: " **يا أبا الفضلِ لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابنِ أخيكَ عظيماً، فقال: إنَّهُ لَيْسَ بِمُلْكٍ وَلكِنَّهَا النُبُوَّة** " (١).

ولعلّ هذا الصراع بين القديم والجديد ولو على مستوى الأفكار والمفاهيم، كان قد تسرب إلى الواقع التطبيقي الذي يَمسُّ الحياة اليومية، وأدّى في النهاية إلى أن يتصادم كبار المسلمين مع بعضهم، ويكفِّر بعضهم بعضاً على رؤوس الأشهاد، فهذه أم المؤمنين مثلاً تحرض على قتل خليفة المسلمين: " **أيها الناسُ هذا قميصُ رسولِ الله لم يَبْلَ وقد بَلِيَت سُنَّتُه، اقتلوا نَعْثَلاً قَتَلَ اللهُ نَعْثَلاً**"(٢)، في حين يشبهها الخليفة بامرأة نوح وامرأة لوط، اللتين جعلهما الله مثلاً للذين كفروا، حيث يتمثل (٣) بقوله تعالى: " **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ...** " (٤).

ومهما كانت الأعذار التي يمكن أن يُعْتَذَرَ بها لأيٍّ من أطراف هذه الصراعات الكثيرة، فإنها، لا شك، تدلُّ على عدم وضوح الرؤية والتباين الكبير في فهم كثير من جوانب الإسلام وتطبيقها، وعدم وجود آليَّة أو قيادة تستطيع أن تسيطر على هذا التباين ضمن الحدود المعقولة. و " **عندما لا تعرف الأممُ وقادتُها من أهل الرأي والفكر جوهرَ ذواتهم، ولا يتيقنون حقيقة وجهتهم وشرعتهم، فإن أمرهم حينذاك أشبه ما يكون بحال التائه في الصحراء، الذي لا يحدد لنفسه وجهةً واحدة يسير في اتجاهها بقوة وعزم** " (٥)، وما شهدته الساحة الإسلامية في خلافة الإمام علي من اقتتال داخلي وعصيان وتمرد وتخاذل، كان النتيجةَ الطبيعيةَ التي أنتجها الاضطراب وعدم وضوح الرؤية في الأيام التي سبقت خلافته عليه السلام، في مخاض عسير استمر خمساً وعشرين سنة.

(١) دلائل النبوة: ١: ٧٤

(٢) المحصول: ٤: ٤٩٢، وينظر النهاية في غريب الأثر: ٥: ٧٩

(٣) ينظر: المحصول: ٤: ٤٩٢

(٤) سورة التحريم: آية: ١٠

(٥) الإنسان بين شريعتين: ٧٣

الفصل الثاني: الآخر الموافق:

(الرسول ﷺ، المسلم النموذج)

مهاد نظري:

لا شك أن الإسلام في تصوراته ومفاهيمه، لا سيما فيما يتعلق بالله والوجود والإنسان وعلاقاته المتشعبة، كان ثورة فكرية أتت على كثير من التصورات والمفاهيم والقيم التي كانت سائدة في أذهان الجاهليين، فالإسلام في حقيقته ليس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً ﷺ رسول الله بالمعنى الساذج لهذه الكلمات، بل هو رؤية جديدة ومختلفة للكون والوجود والحياة والإنسان وعلاقاته، تستمد جذورها وفاعليتها من الفهم الجديد لطبيعة وجود الإنسان ودوره في الحياة والمسؤوليات الملقاة على عاتقه بوصفه خليفة لله في أرضه، ولهذا لم يُولِ القرآن الكريم كبير أهمية لدخول الأعراب في الإسلام: " **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** " (١)، فهؤلاء وإن كانوا قد دخلوا الإسلام وشهدوا الشهادتين إلا أن إسلامهم لمّا يتغلغلْ في قلوبهم ولمّا يغيرْ من مفاهيمهم وتصوراتهم وعلاقاتهم مع الموجودات وخالقها.

إن مفهوم الإسلام أو الإسلامية ـ بوصفها حُكماً مضافاً إلى فكرة أو قيمة أو شخص ما ـ لا بد أن يمرر عبر غربال هذه الرؤية، لمعرفة مدى تطابقه وانسجامه مع المفاهيم والرؤى الإسلامية التي يطرحها القرآن الكريم والسنة النبوية، بعيداً عن الشكليات الجوفاء التي يتمسك بها البعض كالجباه السوداء واللحى الطويلة، وبعيداً عن التسميات والألقاب التي تُضفَى على فلان وفلان.

من هنا فإن البحث في صورة الآخر ـ موافقاً كان أو مخالفاً ـ والكشف عن الأنساق والمرجعيات والمعايير المولدة والمشكلة لهذه الصورة، هو في حقيقته بحث في طبيعة الذات المولِّدة لهذه الصورة بالقدر نفسه الذي يكون فيه بحثاً في صورة الآخر. ولعل أهم الصور التي يمكن أن يُنظر إليها في الأدبيات الإسلامية هي صورة الرسول ﷺ بوصفة القيمةَ الكبرى في التراث الإسلامي رمزاً وفاعلية، والمعيارَ الذي توزن به الشخصيات وبسنته تقيم السلوكيات والأفعال.

وبشكل عام فإن ثمة نوعين من العلاقة مع الآخر: الأول هو العلاقة المنبنية على أساس من مصلحة شخصية أو آنية، تتوخاها الذات من الآخر، سواء أكانت جلب منفعة أم دفع مضرة، وفي هذا النوع من العلاقات تكون صورة الآخر في الغالب أقرب إلى المثال الخيالي الذي يريده الآخر لنفسه، ويرضاه له المجتمع، منها الى الواقع المعروف. وهي منبنية على مبالغات وتهويلات، ربما يكون الدافع النفسي من ورائها هو محاولة الذات إقناع نفسها أو إقناع الآخر، أو الآخرين، بالكذبة

(١) سورة الحجرات: آية: ١٤.

المتفق عليها ـ ضمناً ـ بين الطرفين. وصورة الآخر في هذه العلاقة غالباً ما تركز على الصفات التي يمكن أن تحقق المصلحة المتوخاة منها ـ مثل الكرم الذي يركز عليه المدّاحون المتكسبون بشعرهم ـ، لأن صورة الآخر، على وفق هذه العلاقة، وسيلة يشكلها صانعها بالشكل الذي يخدم الغرض الذي وُجِدت من أجله. وهي صورة غالباً ما تكون نصّيّةً بامتياز لا تكاد تجد لها واقعاً خارجياً. مضافاً إلى أن هذه العلاقة علاقة قصيرة الأمد غالباً، وقد تنتهي إلى نقيضها حين تتلاشى المصلحة المتوخاة منها، وقصائد المتنبي في مديح كافور ثم هجائه مثال فاضح على ذلك.

أما النوع الآخر، فهو العلاقة التي تقوم على أساس القيمة الإيجابية الحقيقية التي يمثلها الآخر للذات بعيداً عن المطامع والمصالح الآنية والشخصية. وهذه العلاقة تقوم عادةً على معرفة دقيقة وفهم عميق للآخر، وصورة الآخر في هذه العلاقة هي انعكاس لحقيقة الآخر الخارجية، وبتعبير أكثر دقة هي الصورة التي تعكسها مرآة الذات لحقيقة الآخر الخارجية.

وإذا كان من المستحيل التعرف على سرائر الناس، فإن النص يمكن أن يكون مرآة صافية لسريرة صاحبه: " **مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلاَّ ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ** " [1]. وبالعودة إلى المتنبي فإن ثمة فارقاً في حرارة العاطفة والصورة والأسلوب بين سيفياته وكافورياته. هذا الفارق إنما يعكس فارق العلاقة ـ أو الصدق في العلاقة ـ بينه وبين سيف الدولة من جانب، وبينه وبين كافور من جانب آخر. وإذا صح هذا، فإن البحث في صورة الرسول ﷺ في نصوص الصحابة سيكون مصدراً مزدوجاً للمعلومات، إذ إنه سيكشف من جانب عن دقائق ـ في شخصية الرسول ﷺ ـ ربما تكون خفيّة علينا، ومن جانب آخر، فإنه سيكون كاشفاً عن طبيعة العلاقة التي جمعت هذا الصحابي أو ذاك بالرسول ﷺ، ليس فقط من حيث صدق الانتماء والعاطفة، بل حتى من حيث مديات الفهم والاستيعاب لشخصية الرسول ﷺ، ومن ثم للرسالة الإسلامية.

(١) نهج البلاغة: ٧١٧.

المبحث الأول: الرسول ﷺ :

لا شك أن البحث في شخصية الرسول ﷺ ـ بوصفه آخرَ ـ له من الميزات والصعوبات المنهجية والاجرائية ـ وله من الأهمية ـ ما لا يمكن أن يتوافر لغيره من البحوث في الشخصيات الأخرى، فهي ليست شخصية اعتيادية يمكن أن يستوعبها الفكر الاعتيادي، وطرائقه في تناول الأشياء. بل هي شخصية ربانية بامتياز، بمعنى أنها منبنية ومتشكلة على وفق اشتراطات المطلق، بحيث يتجلى فيها جلاله وجماله بأبهى صورة يمكن لأي عقل أن يستوعبها، فهي صنيعة الله تعالى، بل هي أكبر صنائعه في عباده، إنها الشخصية التي أدبها ربها فأحسن تأديبها(١) حتى استوت على خلق عظيم(٢)، لتمثل الكمال الإنساني المطلق الذي نصبه الله تعالى إماماً للإنسانية جمعاء في طريق تكاملها وكدحها إلى الله تعالى.

هذه الشخصية **(الربانية)** لم تكن مما اعتاد العرب التعامل معه أو فهمه، ولم يستطيعوا أن يدركوا أن ثمة فارقاً جوهرياً بين شخصية الرسول ﷺ وبين غيره، لذلك كان بعضهم يعترض عليه كما يعترض على غيره من الناس، بل كان بعضهم يرد عليه ﷺ، مع أن القرآن صريح في أمره بإطاعة الرسول وعدم الاعتراض أو الرد عليه في أكثر من آية: مثل قوله تعالى: " **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً** "(٣). نعم لم يستطع المسلمون أن يفهموا أن الرسول لا ينطق عن الهوى، ولم يستطيعوا أن يفهموا أنه ﷺ كان ممثلاً للخالق جل وعلا في حركاته وسكناته كلها، لذلك فُسِّرت بعض أقواله وأفعاله على غير وجهها، وقد مرّت حادثة النعمان بن الحارث الفهري في الفصل الأول.

نعم قد تكون هذه حادثةً متطرفة في الاعتراض والرد على الرسول ﷺ، إلا أن التاريخ الإسلامي حافل بغيرها من الاعتراضات، ولا اقل، من عدم القدرة على التسليم المطلق للرسول ﷺ بوصفه الممثل المطلق للسماء، فقد كانوا يضعون آراءهم في مقابل رأي الرسول ﷺ حتى آخر أيامه المباركة، حيث طعنوا على الرسول ﷺ تأميره أسامة، وتلكأوا في بعث جيشه، رغم كثرة تأكيده عليه

(١) ينظر قوله ﷺ: " **أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي** ": النهاية في غريب الحديث والأثر: ١ : ٤ ، وكنز العمال: ١١: ١٨٣.
(٢) ينظر قوله تعالى " **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**": سورة القلم: آية: ٤.
(٣) سورة الأحزاب: آية: ٣٦.

[١] ، وقد رفضوا ـ في ما يسمى برزية يوم الخميس ـ أن يكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده، فقال بعضهم: إن رسول الله يهجر أو إنه غلبه الوجع، وإن عندنا كتاب الله وهو حسبنا! [٢]، وإلى الآن يذهب أغلب المسلمين إلى أن الرسول ﷺ ليس معصوماً إلا فيما يبلّغُ عن السماء، وفي غير ذلك هو بشر يخطئ ويصيب، وينسى ويسهو، ويجوز عليه ما يجوز على غيره من الناس، لذلك لا يجد بعضهم بأساً في أن ينسب إلى الرسول ﷺ ما لا يتناسب مع مقامه الشريف بدعوى أنه بشر يجوز عليه ما يجوز على غيره.

ولعل هذه هي الثغرة التي لوثت التراث الإسلامي بنصوص شاذة تصف الرسول ﷺ بأنه ـ جلَّ عن ذلك ـ كان يبول قائماً [٣]، أو أنه كان يطوف على نسائه، جميعاً، في ليلة واحدة أو ساعة واحدة، لأنه أُعطِيَ قوة ثلاثين [٤]، أو أنه يتدخل فيما لا يعنيه، اعتماداً على الظن، فتكون نتيجة تدخله أن يخرج تمر القوم شيصاً [٥]، أو أنه يسهو في صلاته فيصلي الظهر، أو العصر، ركعتين[٦]، أو خمس ركعات [٧]، أو أنه ينسى الصلاة حتى يذهب وقتها[٨]، أو أنه ينسى آية أو آيات من القرآن أو يسقطها، فيذكره بها أحد المسلمين [٩]، أو أنه سُحِر حتى ليخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي [١٠]...

وإذا كان في التراث الإسلامي مثل هذه النصوص، فإنها في الحقيقة تعبر عن سقم أذهان وضَّاعها ورواتها وضحالة تفكيرهم، ولكنها لا يمكن أن تعبر عن حقيقة الشخصية النبوية. وهذا انحراف كبير في الأدبيات الإسلامية، يدعو بإلحاح إلى إعادة النظر في هذه الأدبيات، وتنقيتها مما علق بها مما لا يتلاءم وروح الإسلام، بل لا يتلاءم مع صريح القرآن أحياناً.

(١) ينظر : الطبقات الكبرى:٢ :٢٤٩، وتاريخ مدينة دمشق: ٨: ٦٢، شرح ابن أبي الحديد: ١ : ١٦١.
(٢) ينظر: صحيح البخاري: ١: ٥٤، و : ٤ : ١٦١٢، وصحيح مسلم: ٣: ١٢٥٩
(٣) ينظر: صحيح البخاري: ١ : ٩٠ ، ٢ : ٨٧٤ ، وصحيح مسلم: ١ : ٢٢٨.
(٤) ينظر صحيح البخاري: ١ : ١٠٥، ١٠٩ ، ٥ : ١٩٥١ ، وصحيح مسلم: ١ : ٢٤٩.
(٥) ينظر: صحيح مسلم: ٤ : ١٨٣٦.
(٦) ينظر: صحيح البخاري: ١ : ٢٥٢ ، ١ : ٤١٢ ، صحيح مسلم: ١ : ٤٠٣، ٤٠٤ ،
(٧) ينظر: صحيح البخاري: ١ : ٤١١ ، ٦ : ٢٦٤٨ ، وصحيح مسلم: ١ : ٤٠١، ٤٠٢.
(٨) ينظر: صحيح البخاري: ١ : ٢١٤، ٢٢٩ ، وصحيح مسلم: ١ : ٤٣٨.
(٩) ينظر: صحيح البخاري: ٥ : ٢٣٣٣ ، وصحيح مسلم: ١ : ٥٤٣.
(١٠) ينظر: صحيح البخاري: ٥ : ٢٢٥٢.

وهنا تكمن القيمة الحقيقية للصورة التي يقدمها النهج لشخصية الرسول ﷺ. فهي تعكس فهماً دقيقاً وعميقاً يمكن من خلاله أن يتحسس المتلقي إشراق الشخصية المحمدية وتكاملها، لأنها ـ الصورة ـ تتأسس على فهم كلي للكون والوجود الإنساني فيه، وعلاقة هذا الوجود بخالقه، وما يترتب على طبيعة هذه العلاقة من هدى أو ضلال، ودور الرسل والأنبياء عامة في هذه العلاقة، وواجباتهم بين الله تعالى وبين خلقه، وموقع الرسول ﷺ من ذلك كله. بعيداً عن الإسقاطات الإسرائيلية والجاهلية التي استطاعت أن تتسرب إلى بعض النصوص الإسلامية. وليس غريباً أن يكون عليٌ عليه السلام هو المرآة الصافية التي تعكس إشراق الشخصية النبوية الشريفة وصفاءها، فعلي عليه السلام ربيب تلك الشخصية الفذة، وحامل أسرارها، وباب مدينة علمها الذي منه تُؤتى، وهو الذي اختصّه رسول الله ﷺ بما لم يختص به غيره من المسلمين.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن التفاوت المعرفي بين الناس جزء من طبيعتهم الإنسانية، ودرجات هذا التفاوت تختلف فيما بينها شدة وضعفاً، حتى لَتصل في بعض الأحيان حداً تتعذر معه القدرة على الفهم. وقد قال الإمام زين العابدين عليه السلام: " **واللَّه لَوْ عَلِمَ أَبُو ذَرٍّ مَا فِي قَلْبِ سَلْمَانَ لَقَتَلَه ولَقَدْ آخَى رَسُولُ اللَّه ﷺ بَيْنَهُمَا، فَمَا ظَنُّكُمْ بِسَائِرِ الْخَلْقِ. إِنَّ عِلْمَ الْعُلَمَاءِ صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لَا يَحْتَمِلُه إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَوْ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ أَوْ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللَّه قَلْبَه لِلإِيمَانِ** " [1]. ولن يقتله أبو ذر حسداً، بل لأنه لن يستطيع أن يفهم ما في قلبه فينسبه إلى الانحراف أو الكفر ويستحل بذلك قتله. ولئن كان في هذا الحديث " **مبالغة على التقية من الإخوان فضلاً عن أهل الظلم والعدوان** "[2] فإن في التاريخ الإنساني من الشواهد على ذلك الكثير. فلقد كفَّر الخوارجُ أميرَ المؤمنين عليه السلام وقتلوه طلباً للحق كما يعتقدون [3]، ولقد نسبه بعضُ أهل العراق إلى الكذب حتى قال عليه السلام: " **قَاتَلَكُمُ اللهُ! فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ؟ أَعَلَى اللهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ! أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! كَلاَّ وَاللهِ، ولكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، وَيْلُ امِّهِ، كَيْلاً بِغَيْرِ ثَمَن! لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين** " [4]. وفي هذا النص دلالة واضحة على أن سبب التكذيب هو عدم امتلاكهم القدرة

(١) بصائر الدرجات: ٤٥، والكافي: ١: ٤٠١.

(٢) شرح أصول الكافي: ٧ : ٦.

(٣) ينظر قوله عليه السلام: " **لاَ تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ** " نهج البلاغة: ١٦٦.

(٤) نفسه: ١٧٧.

الفكرية على استيعاب ما سمعوه منه عليه السلام، على الرغم من تحفظه الواضح على كثير مما لديه للسبب نفسه: " **هَا إِنَّ ها هُنَا لَعِلْماً جَمّاً لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً...**"(١).

وإذا كان هذا التفاوت بين أفراد المسلمين أنفسهم، فلا شك أنه بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله أكبر، حتى ليمكننا أن نقول: إن المسلمين عاجزون عن فهم الحقيقة النبوية ـ بما فيها من أسرار ـ فهماً كاملاً يمكن من خلاله أن نفهم الرسول صلى الله عليه وآله ـ ومن ثم الرسالة ـ فهما كاملاً نواجه به الحياة ومتغيراتها، ونحن على اطمئنان من أننا نصدر عن شرع الإسلام وروحه. إذ إن مما لا شك فيه أن للرسول صلى الله عليه وآله ما اختص به دون غيره من البشر، سواء على مستوى التكوين أم على مستوى التشريع، وهي خصائص كثيرة جداً " **ولعلها فوق الإحصاء. وبالتأكيد فإن فهم أكثرها على واقعها أمر متعذر للمستوى البشري بل لكل الخلق. يكفينا ما ورد عنه صلى الله عليه وآله من قوله: " يا علي ما عرف اللَّه إلا أنا وأنت، وما عرفني إلَّا اللَّه وأنت، وما عرفك إلَّا اللَّه وأنا** " (٢). **فالمعرفة الدقيقة تختص بخاص الخاص، ولا يمكن أن تعم أحداً سواه** " (٣).

وعلى ضوء هذا، فلا يمكن توجيه قول الرسول صلى الله عليه وآله :" **أنا مدينة العلم وعلي بابها، ولن تدخل المدينة إلا من بابها**"(٤)، على أنه إشارة إلى فارق كمي ـ أو حتى نوعي ـ بين علي عليه السلام وبين غيره، بل هو تعبير صريح عن عدم إمكانية فهم الرسول صلى الله عليه وآله فهماً صحيحاً كاملاً إلا عن طريق علي عليه السلام. وحديث الرسول صلى الله عليه وآله السابق صريحٌ في ذلك، كما أن هذا هو المستفاد من بعض نصوص النهج، ومنها قوله عليه السلام: " **نَحْنُ الشِّعَارُ وَالأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالأَبْوَابُ، وَلاَ تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلاَّ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً** " (٥).

على أن هذا لا يتعارض مع كون الرسول صلى الله عليه وآله الحسَّ المربي للأمة الإسلامية، الذي تتجسد فيه كل القيم والمثل التي تريدها السماء للإنسان، ليكون القدوة التي تؤمُّها الإنسانيةُ في طريق تكاملها، بقدر ما يعني أنه صلى الله عليه وآله حقيقة يتعالى كنه عظمتها على حدود الإدراك الاعتيادي، وفي الوقت عينه

(١) المصدر نفسه: ٧٤٧.

(٢) ورد هذا الحديث في: مختصر بصائر الدرجات: ١٢٥، والمحتضر: ٧٨، وقد ورد بلفظ آخر في: مناقب آل أبي طالب: ٣ : ٦٠ ، وبحار الأنوار: ٣٩ : ٨٤.

(٣) ما وراء الفقه: ٦ : ٤٨.

(٤) الخصال: ٥٧٤، وينظر: المستدرك على الصحيحين: ٣ : ١٣٧، ١٣٨.

(٥) نهج البلاغة: ٣٦٦.

يستطيع كلُّ إنسان أن يقتبس من إشعاعها بقدره، فهو نهر العلم وبحر الحكمة "... **والعلماء حول النهر يطوفون، والحكماء في وسط البحر يغوصون، والعارفون في سفن النجاة يخوضون** " (١). ولعل هذا ـ تحديداً ـ هو ما يميز المثال الإسلامي عن غيره، فهو مثال ينتمي إلى الطبيعة الإنسانية، وليس إلى عالم الأساطير والخرافات، يستطيع الإنسان أن يتعامل معه وجها لوجه، وفي الوقت عينه، فهو غير محدود بحدود العادي المألوف الذي يمكن أن يبلغه إنسان، فتنتهي مسيرة تكامله بانتهاء مدى مثاله. وهذا يعني أن الطريق مفتوح، والمسيرة فيه مستمرة.

وهذه الحقيقة ليست غائبة عن نصوص النهج، فهي تؤسس لها تأسيساً واضحاً في أكثر من مورد منها قوله عليه السلام: " **إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لاَ يَحْتَمِلُهُ إِلاَّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَلاَ يَعِي حَدِيثَنَا إِلاَّ صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَحْلاَمٌ رَزِينَةٌ** " (٢). فأهل البيت ـ وسيدهم الرسول صلى الله عليه وآله ـ مثال بعيد المنال، ولكنه ليس البعد الذي يقطع رجاء القاصد، بل هو البعد الذي يُبقي على طريق الاقتداء والتكامل مفتوحاً، إنه البعد الذي يفتح للإنسان مديات تكامله ورقيه إلى أبعد ما يمكن أن يبلغه إنسان. ومنها أيضاً قوله عليه السلام: " **أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُوم إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ. أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَع وَاجْتِهَاد، وَعِفَّة وَسَدَاد** " (٣)، فللإمام عليه السلام تكليفه الخاص الذي يتساوق مع إمكاناته الخاصة، نعم ثمة أصل التكليف الذي يشترك فيه الجميع من ورع واجتهاد وعفة وغير ذلك، ولكن لكلٍّ خصوصيته، **فحسنات الصلحاء سيئات الأبرار** كما يقولون، وفي قصة موسى عليه السلام مع الخضر ما يدل على اختلاف التكليف باختلاف الإمكانات، ولعل العقول الضيقة لا تستوعب ما هو أوسع من أفق إدراكها، وإذا لم تكن تتحلى بالورع والعفة والإيمان بالله ورسوله سترى النبوة سحراً أو جنوناً أو كذباً. ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت نصوص النهج تبتعد عن الخوض في دقائق وغوامض شخصية الرسول صلى الله عليه وآله.

أضف إلى ذلك أن المنهجية الإسلامية في تناول الأشياء هي منهجية موضوعية عملية، بمعنى أنها تركّز على ما له قيمة عملية في حياة الإنسان، وتبتعد عن الكماليات التي لا تعود عليه

(١) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام ورد في: شرح أصول الكافي: ٢: ٦١.
(٢) نهج البلاغة: ٤٦١.
(٣) نفسه: ٦٤٨.

بفائدة تُذكر، فثمة علم يصفه الرسول ﷺ بأنه "... **لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه**"(١). وهذه منهجية أسس لها القرآن الكريم من قبل. ففي تناوله لقصة أصحاب الكهف مثلاً، يتطرق إلى اختلاف الناس في عددهم: " **سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** "(٢)، وسيتوقع المتلقي هنا أن القرآن الكريم سيقطع نزاع القوم بالتصريح بعددهم الحقيقي، ولكن القرآن لا ينساق وراء توقعات المتلقي وترفه الفكري، بل يحاول أن يعيد بناء ذهنيته بطريقة موضوعية تتناغم مع روح الإسلام وأهدافه: " **قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ** "(٣)، فليس مهماً أن يكونوا ثلاثة أو سبعة، بل المهم هو الثيمة أو المركز الذي تتمحور حوله قصتهم وهي أنهم فتية آمنوا بربهم في قوم اتخذوا من دون الله آلهة، وهي القصة التي تكاد تتمحور حولها قصص الأنبياء والمؤمنين كلها في مواجهة الشرك والإلحاد، وليس مهماً بعد ذلك عددهم أو أسماؤهم أو ألوانهم أو قومياتهم، وهذا خطاب ضمني يحاول تعليم المسلمين التركيز على البؤرة المركزية التي تنتظم الأشياءُ حولها وترتد إليها، واستخلاص العبرة منها دون الانجرار وراء الحواشي أو الهوامش التي لا تخدم هذه البؤرة من قريب ولا بعيد.

على هذه الأسس تبني نصوصُ النهج صورةَ الآخر/الرسول ﷺ، وتوظفها في خطاب إبلاغي موضوعي توجيهي (٤)، يتجاوز بها حدود الزمان والمكان، ويُجذِّرُ وعياً حقيقياً عميقاً يتمحور حول بؤرة مركزية واحدة هي الدور الذي أناطته السماء بشخصية الرسول ﷺ، في محاولة لإعادة بعث رسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ، وتنقيتها مما علق بها بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، من أجل ربط الواقع الإسلامي بمصدره الحقيقي الذي انطلق منه أولاً، وما يثيره هذا الربط من مقارنة، واعية أو غير واعية، تضع اليد على مكمن الانحراف الذي ابتليت به الأمة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ، بعد أن مُنيَ الناس "**بِخَبْطٍ وَشِمَاس، وَتَلَوُّن وَاعْتِرَاض** "(٥) حتى عادت بليَّتُهم "**كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ** " (٦)، منطلقاً في ذلك كله من نقطة الصفر الموجب التي تفصل بين الإلحاد والشرك من جهة، وبين الإيمان والإسلام من جهة ثانية. تلك هي العبودية التي يحلو لأمير المؤمنين عليه السلام أن

(١) الكافي: ١: ٣٢.

(٢) سورة الكهف: آية: ٢٢.

(٣) سورة الكهف: آية: ٢٢.

(٤) ينظر في مستويات الخطاب في نهج البلاغة: الخطاب في نهج البلاغة: ٢٥٨ وما بعدها.

(٥) نهج البلاغة: ٧٩.

(٦) نفسه: ٩٦.

يرددها كثيراً. فلا تكاد تجد ذكراً لرسول الله ﷺ إلا وهو مبدوءٌ بعبوديته لله تعالى*. على أن العبودية في الخطاب العَلَوي لها فلسفتها الخاصة التي لا نكاد نجدها عند غيره، فهي الغاية التي ما بعدها غاية: " **إلهي، كفاني فخراً أن تكون لي رباً، وكفاني عزاً أن أكون لك عبداً، أنت كما أريد فاجعلني كما تريد** " (١)، لأنها ـ بشرطها وشروطها ـ تعني الانفتاح المطلق على الإمكانات المطلقة التي يفيضها الارتباط بالمطلق، وهي بهذا طريق تبدأ ولا تكاد تنتهي. ولا شك أن رسول الله ﷺ قد بلغ من هذه الطريق غايتها، فهو ﷺ سَيِّدُ عِبَادِ الله، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام (٢).

ولهذا تقترن العبودية ـ صفةً لرسول الله ـ في نهج البلاغة اقتراناً مباشراً بالرسالة، لأنها ـ بشرطها وشروطها، مرةً أخرى ـ مقدمة لا بد منها للرسالة التي هي المحور الذي تدور حوله صورة الرسول في الأدبيات الإسلامية، ولئن كان هذا المحور قد يختلط مع غيره مما ليس له علاقة به في كثير من النصوص، فإنه في نصوص النهج خالص لا تشوبه شائبة. وهو ينطلق من الجذور العميقة التي تتأسس عليها فكرة النبوة والرسالة في الفكر الإسلامي.

فإذا كان الهدف من وجود الإنسان على الأرض هو الوصول به إلى كماله المطلق عن طريق تحفيز ما لديه من استعدادات وامكانات وكمالات كامنة، وإذا كان هذا الكمال لا يتحقق إلا باتباع هدى الله: " **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** " (٣). فإن وظيفة الرسل المركزية هي أن يكونوا حلقة الوصل بين الأرض والسماء لإيصال هذا الهدى إلى الناس، واستثارة إمكاناتهم الكامنة ليحققوا التكامل المنشود: " **فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ** " (٤). ومن ثم فإن بؤرة التأسيس التي ستنطلق منها صورة الآخر/الرسول، وتتمحور حولها تفاصيلها كلها، ستكوْنُ الدورَ الذي أدَّاه ويؤديه هذا الآخر/الرسول، وصفات الكمال الأساسية لأداء هذا الدور، بعيداً عن كل الصفات السطحية والهامشية التي اشتغلت عليها بعض النصوص الإسلامية.

---

* وردت هذه الصفة في النهج ١٤ مرة.

(١) شرح ابن أبي الحديد:٢٠: ٢١٣.

(٢) ينظر: نهج البلاغة: ٥٣٤.

(٣) سورة البقرة: آية: ٣٨.

(٤) نهج البلاغة: ٦٧.

والبحث هنا لا يدّعي أن في شخصية الرسول ﷺ جانباً مركزياً وآخرَ هامشياً لا يخدم الجانب المركزي بكثير ولا قليل. ولكنه يشير إلى أن الأدبيات الإسلامية التي تناولت هذه الشخصية العظيمة ـ سواء على مستوى الأحاديث والأفعال المنسوبة إليها، أو على مستوى النصوص الوصفية التي تناولتها ـ قد ألحقت بها ما ليس منها عن جهل أو عمد، ولأسباب يطول الوقوف عندها، وليس هنا محل الحديث عنها. ولعل أحد أسبابها كان محاولة تبرير بعض الانحرافات التي سادت المجتمع الإسلامي في وقت لاحق، أو إسباغ الشرعية على بعض السلوكيات عن طريق نسبة أمثالها الى الرسول ﷺ.

إن القراءة الفاحصة للواقع الذي تعيشه الأمة آنذاك، والتناقضات المضحكة المبكية التي عاشها المسلمون تضع اليد على حقيقة مرعبة، وهي أن الأمة كانت تعيش بواكير مرحلة ضياع الهوية الإسلامية المحمدية، في خضم صراعاتها على المكتسبات التي حققتها باسم هذه الهوية، ذاهلةً عن المنزلق الذي تجرها اليه هذه الصراعات. لقد أصبحت هذه الأمة التي بُنيت على أساس من القيم، أصبحت تعيش أزمة في القيم كما يعبر الدكتور الجابري [١]، حيث إن " **كثيراً من سلوك المترفين لم يكن ليستجيب لأخلاق القرآن. بل إن بعض مظاهره كانت تتناقض حتى مع أحكامه نفسها** " [٢]. ومن ثم فهي بحاجة ماسة إلى إعادة قراءة واقعها، وفرز تناقضاته فرزاً واعياً، من أجل تجديد اكتشافها لذاتها الحقيقية. ومن أجل ذلك كله، فهي بحاجة ماسة إلى أن توضع في مواجهة مباشرة مع المعيار أو البوصلة التي يمكن أن تَضبط على أساسها وجهتَها الحقيقية، وتكتشف المسافة الفاصلة بينها وبين هذه الوجهة، لكي تستطيع إعادة ترسيم خارطة طريقها. وإذا كان القرآن حمالاً ذا وجوه[٣] يمكن أن يُطَوَّع في اتجاهات مختلفة، فإن الرسول ﷺ هو تجسيده الحي الشاخص الذي لا يمكن أن تخطئه الأبصار، شرط أن ينعكس عبر مرآة صافية لا تشوهه بزيغها واعوجاجها.

لذلك تجد أن للرسول ﷺ حضوراً بارزاً ولافتاً في نصوص النهج، فلا تكاد تجد خطبة من خطبه أو كتاباً من كتبه، إلا وهو مبدوء بذكره ﷺ. نعم هذه سنة درج عليها المسلمون جميعاً لا سيما في صدر الإسلام. إلا أن ما يميز نصوص النهج هو أنها لا تمر بذكر الرسول ﷺ مروراً عابراً بوصفه واجباً دينياً، أو تقليداً اعتاده الخطباء المسلمون فحسب، بل إن نصوص النهج توظِّف

(١) ينظر: العقل الأخلاقي العربي: ٦١.

(٢) نفسه: ٦٣.

(٣) ينظر: نهج البلاغة: ٧٠٩.

صورة الرسول ﷺ توظيفاً واعياً ومدروساً، تجد ذلك في طول فقرات الصلاة على النبي ﷺ أولاً، وفي الدقة في اختيار التصوير والأوصاف ثانياً، وربط هذه الصورة بالواقع الإسلامي الذي تعيشه الأمة ثالثاً. كما سيأتي.

ولن يتناول البحث جزئيات الصورة التي ترسمها نصوص النهج للرسول ﷺ ، فهي ، في إطارها العام، ليست بعيدة عن متناول المتتبع لها في نصوص القرآن الكريم، أو غيره من المصادر الإسلامية. وإن كانت لها خصوصية واضحة في نصوص النهج، إلا أن خصوصية الخطاب في نهج البلاغة، تتجاوز السرد المجرد للتفاصيل ـ وهذا لا يعني أنها تهملها ـ وتتخذ منها ومن الإطار العام للنبوة ميداناً لاشتغالاتها. وتماشياً مع آليات الخطاب العلوي، سيتتبع البحث بعض أساليب توظيف صورة الرسول ﷺ:

أساليب توظيف صورة الرسول ﷺ:

تتعدد أساليب النهج في تناول صورة الرسول ﷺ وتوظيفها بتعدد المواقف والظروف، وتكاد هذه الأساليب كلها تتفق على مشترك واحد مهم هو توظيف صورة الرسول ﷺ لمحاولة إعادة إحياء الأمة الإسلامية من جديد، عن طريق ربطها بمصدر التأسيس الأول ـ الرسول ﷺ ـ ربطاً عقلياً واعياً، وهذا لا يعني أن الخطاب يتجاهل ما تكتنز به هذه الصورة من زخم عاطفي كبير، لا سيما لدى من عاصر الرسول ﷺ ورآه. وسيتناول هذا البحث أسلوبين متميزين، وإن كانا متداخلين مع بعضهما في كثير من النصوص، ويصبان في الغاية نفسها بطريقين مختلفين:

الوصف المباشر:

ويمكن أن نسميه تعداد الصفات المفردة، بمعنى أن الصورة تنبني من مجموعة من الصفات المفردة المتجاورة مع بعضها. لتغذي الذهن بوفرة من المعطيات التي تفتح الباب واسعة للتأمل الفكري وربط النتائج بمقدماتها، مما يجعله مناسباً للإفهام والتأسيس النظري.

وضمن هذا الأسلوب تتتبع النصوص صورةَ الرسول ﷺ من أصولها العميقة، فهي تتجاوز الزمان المحسوس الذي اعتاد مجتمع الجزيرة أن يتعامل معه في سياقاته الأدبية والاجتماعية، لتغوص في أعماق أبعد من ذلك بكثير، حيث تُجذِّرَ أصول الشخصية المحمدية في شجرة الأنبياء الذين تعاقبوا على الإنسانية منذ انطلاق مسيرتها الأولى، وقد " **تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الأَصْلاَبِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ**

الأَرْحَامِ؛ كُلَّمَا مَضَى سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ. حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ إِلَى مُحَمَّد ﷺ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الأَرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ "(١). فلا شكّ أن لسلامة أصول الإنسان مدخليةً كبيرة في سلامة تكوينه النفسي والفكري والجسدي. وهو ما ينعكس إيجاباً على قدرته على أداء دوره بالشكل الأمثل، مضافاً إلى ذلك مراعاة النص للجانب النفسي لدى المتلقي، لا سيما متلقي الجزيرة العربية، حيث إن للأصول العريقة الكريمة مدخلية كبيرة في مقبولية الشخص وقدرته على التأثير في غيره، لا سيما أن النسب الذي يذكره النهج ليس نسباً قبلياً قائماً على أساس عرقي أو قومي، وإنما هو نسب إنساني، إذا جاز التعبير، بمعنى أنه نسب يستطيع أن يفخر به الإنسان مهما كانت قوميته أو لونه أو قبيلته، وبهذا يترفع النص عما انغمس فيه مجتمع الجاهلية من التفاخر بالآباء والأجداد، وفي الوقت عينه، أعطى لشخصية الرسول ﷺ زخماً قوياً في نفوس المتلقين. وهذه قضية يؤكد عليها النهج كثيراً، كما في قوله عليه السلام:" **مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِت، فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ السَّلاَمَةِ** "(٢)، "**لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ، وَلاَ ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ** "(٣)، وهذا لا يعني تجريد الإنسان من امتيازاته إذا لم يكن له نسب شريف وعريق، بقدر ما يعني أن لطهارة النسب وشرفه دوراً كبيراً في تكوين الشخصية، وهذا هو معنى الاجتباء والاصطفاء (٤) الذي يشير إليه عليه السلام في قوله: " **الْمُجْتَبَى مِنْ خَلاَئِقِهِ... وَالْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالاَتِهِ**"(٥).

ومن الواضح أن للاصطفاء حضوراً كبيراً في السياقات القرآنية، لا سيما حين يكون الحديث عن أصحاب الرسالات الكبرى من الأنبياء: " **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحاً وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** " (٦).

ولعل من الجدير بالذكر أن هذا الاصطفاء الرباني للرسول ﷺ من سلالة النبيين والصالحين، هو أحد الأدلة على أنّ الرسول ﷺ لم يولد من أبوين مشركين، وهذا حديث طويل لا يريد البحث

(١) المصدر نفسه: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٢) نفسه: ٢٥٢.
(٣) نفسه: ٥٣٤.
(٤) ينظر في معنى الاجتباء والاصطفاء: المفردات في غريب القرآن: ٨٧ و ٢٨٣.
(٥) نهج البلاغة: ٤٢٨.
(٦) سورة آل عمران: الآيتان: ٣٣، ٣٤.

الخوض فيه بقدر ما يريد أن يؤكد على أن بعض التراث الإسلامي قد ظلم هذه الشخصية العظيمة بطرق مختلفة.

بعد ذلك يأتي دور التربية الربانية التي تصقل هذا الأصل السامي لتظهر استعداداته من مرحلة الوجود بالقوة إلى مرحلة الوجود بالفعل، حيث " **قَرَنَ اللهُ تَعَالَى بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ** "[1]، حتى استوى على خلق عظيم، وليس ثمة حاجة للبحث في ماهية هذا الملك وكيفية سلوكه بالرسول ﷺ طريق المكارم؛ إذ من الثابت أن الله تعالى أدبه ﷺ فأحسن تأديبه [2]، بصرف النظر عن آلية هذا التأديب، سواء أكان بواسطة ملك أم بالإيحاء أم التوجيه المباشر أم غيره، وأن لهذا الخلق الكريم أثر مباشر في أداء الرسول ﷺ لدوره، إذ يقول تعالى: " **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** " [3].

ولم تكن نصوص النهج لتغفل هذه العلاقة بين المنبت الشريف والخلق الكريم من جانب، وبين أداء الرسول ﷺ لدوره الرسالي من جانب آخر، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام، بعد أن يتحدث عن منبت الرسول ﷺ ومستقره الشريف: " ... **قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الأَبْرَارِ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الأَبْصَارِ** " [4]، وهو تعبير فيه التفات إلى مسألتين مهمتين، الأولى أنه بنى الفعل (صُرِف) للمجهول ولم يبنه للمعلوم، ليجعله منفتحاً على الاحتمالات التأويلية كلها: " **فإن شئت قلت الصارف لها هو الله تعالى... بالتوفيق واللطف... وإن شئت قلت صرفها أربابُها** " [5]، كما يمكن أن يكون الصارف هو الرسول ﷺ نفسُه بما امتلك من خلق عظيم ومخالقة حسنة وكمالات تشد إليها قلوب الأبرار. والثانية أنه أطلق الأبصار ولم يخصصها كما خصص القلوب بإضافتها إلى الأبرار، أي أنه ﷺ ثنيت إليه أزمة أبصار الأبرار وغير الأبرار ـ وربما بشيء من الإكراه يشي به ثنيُ الأزِمَّة ـ؛ فالرسول ﷺ بوصفة ظاهرة جديدة في مجتمعه لها مؤيدون ومعارضون، ستتطلع إليه أبصار المؤيدين باحثين فيه

(١) نهج البلاغة: ٤٩٠.

(٢) مر الحديث في الفصل الأول.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٤) نهج البلاغة: ٢٥٢.

(٥) شرح ابن أبي الحديد: ٧: ٥٣.

عما يؤيد إيمانهم ويدعمه ويقويه، كما ستتربص به أبصار المعارضين باحثين عما يمكن أن يستعملوه سلاحاً في هجومهم على الدعوة الجديدة وصاحبها، مما يخلق مناخاً ثقافياً قوامه الصراع الروحي والفكري بين المؤيدين والمعارضين، و" **هذا المناخ الثقافي يترك آثاره، بلا شكّ، على المفاهيم والمؤسسات والقيم والقناعات الّتي تسود المجتمع، ويدفع بها نحو التغيير بصورة لا شعورية، فينتقل المجتمع إلى حالة أفضل في علاقاته وقيمه ومؤسساته وحوافز العمل فيه، وإن كان أكثر هذا المجتمع كافراً برسالة النّبيّ** " (١)، وهذا التأثير هو صورة من الصور التي تحقق بها الرسالاتُ أهدافها ـ أو شيئاً منها ـ على مر العصور.

كما أن صورة الرسول ﷺ في نصوص النهج لم تنشغل بنفسها، بعيداً عن المخاطب، بوصفه الآخر الذي ترسم من أجله، فثمة تزامن من نوع ما بين بناء الصورة وبين بناء الإنسان نفسه، إذ إن الآليات التي يتبعها الخطاب هي آليات موجَّهة، تحاول بناء المخاطب في الوقت عينه الذي تبني فيه الخطاب، ولعل بدايات الخطب التي أثبتها الرضي في النهج تدل على ذلك بوضوح.

ثمة فعل مدرِك وآخر غير مدرِك، فالبهيمة تأكل وتشرب وتنام وتستيقظ...، ولكنها لا تدرك علة لفعلها، وكل ما يدفعها إلى هذا الفعل هو غريزة أودعها الله تعالى فيها. أما الإنسان، فصحيح أنه يأكل ويشرب بدافع الغريزة وسد الحاجة، إلا أنه يعلم ـ على سبيل المثال ـ أن الطعام هو قوام جسده، أضف إلى ذلك أن ثمة أفعالاً يدفعه إليها إدراكُ المصالح المترتبة عليها، وإن كانت عواطفه وغرائزه تدفعه إلى الضد من ذلك. هذا الإدراك هو الذي يميز الإنسان عن البهيمة. نعم ثمة إنسان لا يدفعه إلى الفعل أو الترك إلا غرائزه وأهواؤه ـ ولعل هذا هو ما تريده الحضارة المادية البراغماتية للإنسان ـ ولكن هؤلاء لا يستحقون صفة الإنسانية: " **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** " (٢). وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: " **ان الله عز وجل ركب في الملائكة عقلا بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل. وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خيرٌ من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم** " (٣).

(١) حركة التاريخ عند الإمام علي: ٧٦.

(٢) سورة الفرقان: آية ٤٣، ٤٤.

(٣) علل الشرائع: ٥.

ولا شك أن الإنسان أكرم على الله من أن يريد له أن يردد ما يسمع، ويقلد ما يفعله الآخرون، دون وعي أو إدراك. إن رسالة السماء تريد أن ترتفع بسلوكياته إلى مستوى الفعل المدرِك الذي يرفعه عن حضيض البهيمية العمياء. وهذا ما تجسده كلمات أمير المؤمنين على مستوى الفعل الواقعي، لا على مستوى الشعارات والهتافات. ففي خطبة يعلم فيها الناس الصلاة على رسول الله ﷺ يقول عليه السلام:

" **اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّد عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالدَّافِعِ جَيْشَاتِ الأَبَاطِيلِ، وَالدَّامِغِ صَوْلاَتِ الأَضَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ، قَائِماً بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِل عَنْ قُدُم، وَلاَ وَاه فِي عَزْم، وَاعِياً لِوَحْيِكَ، حَافِظاً لِعَهْدَكَ، مَاضِياً عَلَى نَفَاذِ أَمْرِكَ؛ حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ، وَأَقَامَ مُوضِحاتِ الأَعْلاَمِ، وَنَيِّرَاتِ الأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ، وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ.** " (١).

إن الخطاب العلويّ لا يريد للصلاة على النبي ﷺ أن تكون ذكراً أجوفَ يردده المصلي امتثالاً لأمر ديني دون وعي بمحتواه أو علله، أو تقليداً أعمى ليس له في حياته مردود فكري أو نفسي يصب في مجرى عقيدته ودنياه، ففرق بين من يمارس هذه الصلاة كونها سنة يبتغي من ورائها الثواب في الآخرة، وربما يحسبها لذلك منة على الرسول والرسالة، وبين من يمارسها عرفاناً بفضل الرسول ﷺ عليه وعلى الإنسانية جمعاء. لذلك يجعل الإمام هذه العبادة القولية التي لا تحتاج ممارستها إلى كبير عناء، يجعلها محطة يسترجع من خلالها المصلي مبادئ عقيدته الأساسية، مما يشحنها بطاقات فكرية وعاطفية تشد المسلم إلى دينه وتربطه بعقيدته ربطاً واعياً.

إن الإمام يفتح أُفق هذه العبادة على الرسالة كاملة، ويشحنها بتاريخ صاحبها الجهادي الطويل، الذي جسد ـ بشكل حي وملموس ـ كمالات الرسول النفسية والفكرية والعملية، التي أدى من خلالها دوره أروع ما يكون الأداء. والصفات التي ينفتح عليها النص هنا ليس اعتباطية، فهي تركيز مكثف لتاريخ الرسالة الإسلامية وتاريخ صاحبها ﷺ. ولعلها ـ الصفات ـ إلى جانب ذلك تحمل في طياتها إجابات عن بعض ما أفرزته الأحداث من مواقف سياسية أو اجتماعية أو فكرية، مثلت انحرافاً عن خط الرسالة المحمدية، بمعنى أنها تضيء بعض المناطق التي لامستها العتمة لسبب أو لآخر، عن طريق عرضها على سنة الرسول ﷺ.

(١) نهج البلاغة: ١٧٩ ـ ١٨٠.

فقوله عليه السلام: " **المعلن الحق بالحق** "، على سبيل المثال، يلقي الضوء على إشكالية الغاية والوسيلة، وإلى أي مدى ـ على وفق المنظور الرسالي ـ يمكن أن تكون الغاية ـ مهما كانت سامية ـ مبررةً للوسيلة الهابطة؟ وهل يحق للمسلم أن يكون ممن " **يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ** " [1]، أم أن الوسيلة يجب أن تكون من جنس الغاية. وقوله عليه السلام : " **حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ** " تجسيد نبوي عملي لقوله تعالى " **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...** " [2]، فلا يحق للخليفة أو الإمام أن يُكرِه أحداً على بيعته مثلاً؛ لأن وظيفة الرسول صلى الله عليه وآله، ومن ثم الإمام أو الخليفة، هي إضاءة الطريق ـ وليس إجبار الناس عليه ـ بالحكمة والموعظة الحسنة، لكي لا تكون للناس على الله حجة [3]، وتكون الحجة لله [4]، ويكون الرسول صلى الله عليه وآله شهيداً على ذلك يوم الدين، أما إذا تحول هؤلاء الخابطون في العمى إلى أدوات يصول بها الضلال، ويشكل خطراً على التجربة الإسلامية، فالأمر حينها مختلف، وعلى الرسالة أن تحتاط لنفسها وتدافع عن وجودها.

وكثيراً ما يستدعي ذكرُ الرسول صلى الله عليه وآله ، وشهادتِهِ على أمته يوم القيامة دعاءً يستدعي تلك المواجهة المرتقبة بين المسلم وبين الرسول صلى الله عليه وآله يوم القيامة، ليحفز المسلمين على التقوى والعمل لكي لا يكونوا أمام رسولهم وربهم في غد " **خَزَايَا، وَلاَ نَادِمِينَ، وَلاَ نَاكِبِينَ، وَلاَ نَاكِثِينَ، وَلاَ ضَالِّينَ، وَلاَ مَفْتُونِينَ** " [5]

ولعل من الواضح أن نصوص النهج لم تتطرق إلى الصفات الكمالية الجسمانية، فليس في نهج البلاغة شيء عن لون رسول الله صلى الله عليه وآله أو شكل عينيه أو طوله أو غير ذلك مما شاكله، وهي وإن كان لها من الأهمية ما لا يمكن إغفاله، لأن نقصها يؤدي بالنفوس ـ حسب طبيعتها الحسية ـ إلى شيء من النفور؛ ولذلك يشترط الكثير من المسلمين في الأنبياء أن يكونوا سالمين من العاهات الجسمانية، لأن العاهة بطبيعتها مدعاة للنفور، وهو ما يقلل من كفاءة الرسول في أداء دوره الرسالي.

---

(١) المصدر نفسه: ٦٣٣.

(٢) سورة البقرة: آية: ٢٥٦.

(٣) ينظر قوله تعالى: " **رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً** " سورة النساء: آية: ١٦٥.

(٤) ينظر قوله تعالى: " **قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**" سورة الأنعام: آية: ١٤٩.

(٥) نهج البلاغة: ٢٧٢.

إلا أنها تبقى هامشية إذا ما قيست إلى الصفات الفكرية والنفسية والدور الذي أداه ويؤديه هذا الرسول أو ذاك. ويبقى الدور هو الأساس الذي تقوم عليه شخصية الرسول بما هو رسول.

التجسيد التمثيلي:

ونعني به ذلك الأسلوب الذي يُجسِّمُ أمامَ المتلقي مشهداً متحركاً قادراً على استثارة وجدانه الديني والإنساني، عن طريق تجسيد الرسول ﷺ تجسيداً حياً تكاد تشعر بوجوده وتتحسسه. وهذا الأسلوب يخلق زخماً عاطفياً كبيراً لا يمكن أن يخلقه الأسلوب الأول، مما يجعله مناسباً للخطاب بمستواه التربوي التوجيهي، الذي يراد منه ضبط مسيرة الأمة وتوجيهها الوجهة الإسلامية الصحيحة التي كان الرسول ﷺ ـ ولا يزال ـ رائدها.

من ذلك قوله عليه السلام :" **وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ كَافٍ لَكَ فِي الأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ مِنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا... فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ ﷺ فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى . وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ لأَثَرِهِ .... وَلَقَدْ كَانَ ﷺ يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ... وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِئِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ بِذلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ . وَاللهِ الْعَظِيمِ . وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ** "(١).

إن هذا النص ـ وأمثاله كثير ـ يرسم مشهداً تمثيلياً تكاد شخوصه تتكلم وتتحرك في وعي المخاطَب وحسه، وهذا التجسيد الحي للرسول ﷺ ـ شخصاً وسلوكاً ـ يحمل من الطاقات الفكرية والعاطفية ما يمكن أن يسدَّ شيئاً من الفجوة التي خلفها رحيله ﷺ ، وعمقها الواقع المر الذي ابتليت به أمته بعده. إنه يعيد ارتباط العقل والعاطفة بذلك الوهج النبوي الذي كان يمدها بالزخم العاطفي والفكري الذي يمكِّنها من مجابهة الصعاب والعقبات. ولعل الأمة الإسلامية أيامَ الإمام عليه السلام كانت في أمس الحاجة لأن تتذكر الحياة البسيطة التي كان يعيشها ﷺ، مقارَنةً بالحياة ـ المترفة حد اللامعقول ـ التي أصبح بعض كبار الصحابة يعيشونها، حيث الذهب والأموال والضياع، ليس حسداً

(١) المصدر نفسه: ٣٨١ ـ ٣٨٤.

لهؤلاء الأثرياء؛ إذ ليس ثمة ما يحسدون عليه على وفق المعايير الإسلامية، والنص واضح في ذلك: حيث أكرم الله رسوله ﷺ بالكفاف، وأهان غيره بأن بسط له الدنيا وزخارفها.

ولكي يبلغ هذا التجسيد غايته، ويؤدي دوره في الخطاب، فإن نصوص النهج تتوسل بالمقارنة والمزاوجة بين حالين: حال العرب قبل البعثة، وحالهم بعدها، وهي تزاوج في ذلك كله بين طريقتين في الخطاب: إحداهما تحاور الشفافية الروحية التي انبثقت في نفوس المسلمين بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان، والأخرى تراود فيهم حسهم الغريزي ورغبتهم في عيش حياة رخية عرفوها لأول مرة حين أناخ الإسلام في ديارهم. فحين يخاطب حسهم الديني يذكرهم بالضلال الذي كانوا فيه: " **فَالهُدَى خَامِلٌ، والْعَمَى شَامِلٌ. عُصِيَ الرَّحْمنُ، وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ، وَخُذِلَ الإيمَانُ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ، وَعَفَتْ شُرُكُهُ. أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلامُهُ، وَقَامَ لِوَاؤُهُ** " [1] وحين يخاطب رغبتهم في هناءة العيش واستقراره يجسد حياة النكد والبؤس التي كانوا يعيشونها قبل الإسلام: " **وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ العَرَبِ عَلَى شَرِّ دِين، وَفِي شَرِّ دَار، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجارَةٍ خُشْن، وَحَيَّات صُمٍّ، تشْرَبُونَ الكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ** " [2]. والرسول ﷺ هو الخط الفاصل بين المرحلتين، وهو العجلة التي نقلتهم من الضلال والشقاء إلى الهدى والرخاء، حيث بعثه الله تعالى هادياً ومنقذاً: " **فَبَالَغَ ﷺ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ** " [3]،

" **فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ، كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَالْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ، قَدْ تَرَبَّعَتِ الأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَان قَاهِر، وَآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزّ غَالِب، وَتَعَطَّفَتِ الأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْك ثَابِت، فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الأَرَضِينَ، يَمْلِكُونَ الأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ الأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ** " [4].

(١) المصدر نفسه: ٧١.

(٢) نفسه: ١١٧.

(٣) نفسه: ٢٥١.

(٤) نفسه: ٤٨٧.

هذا التجسيد التمثيلي الحي الذي يمتد من خلاله وجود الرسول ﷺ وفاعليته في الزمان والمكان، هو أحد الأساليب التي يتمظهر بها ﷺ في نصوص النهج. ولا شك أن هذه الآلية في التناول تتجاوز المكان والزمان لتضع المسلم وجهاً لوجه أمام الرسول الكريم ﷺ الذي " **جَعَلَهُ اللهُ تعالى بَلاَغاً لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لأمَّتِهِ، وَرَبِيعاً لأهْلِ زَمَانِهِ**" [1] وتجعله شاهداً ورقيباً وقدوة وأسوة، به يضبط المسلم وجهته وسلوكه. فكما كان الرسول ﷺ تجسيداً حياً للقرآن الكريم والرسالة الإسلامية، أراد هذا الخطاب أن يكون تجسيداً حياً للرسول ﷺ يبعثه من حيز الذكرى التي يعيش المسلم أطيافها، إلى حيز الوجود والفاعلية الحقيقية.

على أن نصوص النهج لا تقتصر على توظيف صورة الرسول ﷺ فقط، بل قد تتعدى ذلك إلى توظيف خط النبوة والرسالة بكامله، لأن الرسول ﷺ ـ بما هو حلقة في سلسلة النبوة الطويلة ـ لا يمكن أن يفهم فهماً دقيقاً إلا من خلال فهم هذه السلسلة كاملة، وفهم موقعه فيها. أضف إلى ذلك أن العمق التاريخي الكبير الذي تمثله هذه السلسلة، والذي يمتد بامتداد تاريخ الإنسان نفسه، سيُعمِّق صورة الرسول ﷺ ويجذِّرها في النفوس. لذلك نجد أن الخطاب العلَوي يستعين أحياناً بهذا العمق الإنساني، ولا سيما إذا كان الخطاب تربوياً توجيهياً.

فالكبر الذي ابتُلي به الكثير من المسلمين بعد أن أسلست الدنيا لهم قيادها وملكوا الضياع وجمعوا الأموال حتى كانت تركة أحدهم " **من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع** " [2]، هذا الكبر الذي جعل الأعناق تتطاول إلى ما ليس لها، وتُدخِل المسلمين في دوامات من الفتن عصفت بقواعد الأمة الوليدة، والذي أعاد الأرستقراطية والطبقية التي حاربها جميع الأنبياء والمصلحين، هذا الكبر كان بأمس الحاجة إلى أن يوضع في خط المواجهة المباشرة مع تواضع الأنبياء وزهدهم وشظف عيشهم مع ما لهم من الزلفة العظيمة عند الله، لكي يتبين موقعه النافر النابي من المنظومة الإسلامية، بل المنظومة الإنسانية بكاملها:

" **فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنبِيَائِهِ وَأَولِيائِهِ، وَلكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ، قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَابْتَلاَهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ... وَلَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ**

(١) المصدر نفسه: ٥١٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ١: ٢٠٥.

يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الْذِّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طَيْرَ السَّماءِ وَوُحُوشَ الأَرَضِينَ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاَءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ، وَلاَ اسْتَحَقَّ الْمُؤمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ " (١).

وهذا النص في الوقت الذي يعري فيه المترفين أمام أنفسهم وأمام الآخرين، ويجردهم من دفاعاتهم كلها، فإنه يواسي المستضعفين الذين نبتت لحوم المستكبرين من بقايا لحومهم، بأن يجعل الأنبياء أسوة لهم فيما يعانون من حرمانٍ وشظفِ عيش. ولا شك أن في هذا عزاءً كبيراً، يخفف على المستضعفين عبء معاناتهم. ويشعرهم بأن الله وأنبياءه معهم وليس مع المترفين والمستكبرين.

أضف إلى ذلك هذا التعليل الرائع للبلاء الذي يتعرض له الأنبياء والمؤمنون معهم على مر التاريخ، وهو مستمد من قوله تعالى: " **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** " (٢)، وقوله تعالى: " **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**" (٣)، إذ لو كان الله سخر للأنبياء والمؤمنين وسائل الغنى والراحة والترف، وسلط على الكافرين الفقر والعوز والبلاء، لما تميز المؤمن من الطامع، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين.

(١) نهج البلاغة: ٤٧٧ ـ ٤٧٨.

(٢) سورة البقرة: آية: ٢٥٦.

(٣) سورة العنكبوت: آية: ٢.

المبحث الثاني: المسلم النموذج:

لعل الإسلام هو أكبر ثورة في التاريخ الإنساني المعروف، لا سيما فيما يتعلق برؤيته للإنسان. فقد استطاع عملياً أن يحقق ويضمن للإنسان كرامته الإنسانية بعيداً عن الجنس واللون والعرق والدين وكل العصبيات التي جعلت الناسَ شيعاً على مدى التاريخ الإنساني قبل الإسلام، حتى أصبح بإمكان أيِّ مواطن، وإن لم يكن يدين بالإسلام، مقاضاةُ حاكم المسلمين، بعد أن آخى الإسلام بين القرشي والحبشي والعربي والرومي... حيث الناس سواء كأسنان المشط وحيث لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، لأن أكرمهم عند الله أتقاهم، وحيث أصبحت قيم الأخلاق والفضيلة الإسلامية هي مقياس المفاضلة بين إنسان وآخر، علماً أن هذا المقياس كان في زمن الرسول ﷺ مقياساً أُخرويّاً، بمعنى أن هذا " **الأتقى** " لم يكن له من حقوق المواطنة، في الدولة الإسلامية، أكثر مما لغيره من سائر المسلمين.

إن صورة الإنسان في المفهوم الإسلامي قد ارتكزت على محورٍ أساس هو القيم الدينية والأخلاقية التي لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالشرف الاجتماعي القبلي، أو الغنى المادي، أو العرق، أو القبيلة، أو غيرها. وعلى هذا فليس من العسير جدّاً تتبعُ هذه القيم المبثوثة في القرآن الكريم والسنة النبوية لرسم ملامح الصورة التي يريدها الإسلام للإنسان، لا أقل على المستوى التنظيري الفكري.

إلا أن هذه الصورة قد انحرفت عن محورها المركزي العام بعد وفاة الرسول ﷺ . ولعل أول انحراف أو تشوّه في هذه الصورة قد أطل برأسه ـ خَجِلاً ـ في اجتماع السقيفة، حيث حاولت الأنصار أن تتعكز على ما قدمته في سبيل الله من نصرة لرسوله ﷺ * للوصول إلى كرسيِّ الخلافة، في حين ارتقت قريشٌ هذا الكرسي على سلّم القرشية، مع أنها قيمة قبلية رفضها الإسلام أشد الرفض. تبع ذلك ما حدث في زمن الخليفة الثاني من تفضيل بعض المسلمين على غيرهم في العطاء اعتماداً على السابقة في الإسلام والجهاد والهجرة وغير ذلك مما لم يكن يُعتمد في زمن الرسول ﷺ مقياساً للتمايز الدنيوي. اما ما حدث في زمن الخليفة الثالث فهو انحراف على درجة كبيرة من الخطورة، فقد أصبح مقياس التفاضل بين المسلمين هو القرابة من الحاكم، أو التزلف له، فقُرِّب الأموي وإن كان

* لا شك أن نصرة الأنصار للرسول ﷺ وجهادهم في سبيل الله فضيلة كبيرة أشاد بها الرسول ﷺ مراراً، إلا أن ذلك لم يكن ليستتبع تمييزاً اجتماعيّاً، أو مغنماً سياسيًّا.

طريداً لرسول الله ﷺ ونُفِي المخالف لسياسة الحاكم وإن كان أبا ذر الغفاري. هذا من جانب، ومن جانب ثان فإن هذا التفضيل قد انعكس على الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، حتى أصبح فيء المسلمين بستاناً لبني أميَّة [١]، فتكدست رؤوس الأموال عند طبقة معينة وبقيت الطبقات الأخرى تكابد الجوع والحرمان.

ولعل في التاريخ الإسلامي من كثرة ووضوح ما أُشِيرَ إليه ما يغني الباحث عن الدخول في معترك الاستدلال على ما يذهب إليه. أضف إلى ذلك أن خفوتَ أصواتٍ كانت هادرة في السمفونية الإسلامية زمنَ الرسول ﷺ مثل علي بن أبي طالب عليه السلام وسلمان وعمار وأبي ذر وغيرهم، وبروزَ أصواتٍ لم يكن لها وجود يُذكر آنذاك فيه دلالة واضحة على انحراف قِيْميٍّ فيما يتعلق بصورة الإنسان بين زمن الرسول ﷺ وزمن الخلفاء الثلاثة.

هذه الانحرافات، مضافةً إلى غيرها، كانت حاضرة في ذهن الإمام عليه السلام حين انقادت إليه الخلافة، لذلك قال: " **دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ** " [٢]. فهذه الممارسات رسَخت في أذهان بعض المسلمين، لا سيما الذين لم يعيشوا في زمن الرسول ﷺ، رسخت على أنها هي الإسلام، وأي تغيير فيها قد يُعَدُّ خروجاً عن القيم الإسلامية من وجهة نظر هؤلاء. هذا إذا تجاوزنا المنتفعين من المنظومة القِيمية الجديدة وما يمكن أن يفعلوه ليحافظوا عليها كما هي. وهو ما حدث فعلاً زمنَ الإمام عليه السلام، فالصراع في معركة الجمل وصفين وحتى النهروان لم يكن صراعاً من أجل دم الخليفة المغدور أو غيره، بل كان صراعَ قيم في أكثر تجلياته وضوحاً.

وهذا المبحث لا يريد أن يرسم صورة المسلم النموذج في نهج البلاغة أو يحدد ملامحها العامة أو الخاصة، فهي صورة مرسومة على وفق التصور الإسلامي العام، وملامحها مبثوثة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، بقدر ما يسعى لاستكشاف الآليات التي اعتمدها النهج في تناول هذه الصورة ولملمة أجزائها إلى بعضها، وكيفية توظيفها في مواجهة الواقع الذي تعيشه الامة الإسلامية آنذاك.

---

(١) ينظر: تاريخ الرسل والملوك: ٣: ٣٦٥، الشافي في الإمامة: ٤: ٢٥٦.

(٢) نهج البلاغة: ٢٤٥.

آليات تناول صورة الإنسان وتوظيفها في مواجهة واقع الأمة:

لعل من العسير تتبع جميع آليات النهج في توظيف صورة المسلم، إذ إن هذه الآليات تتعدد بتعدد المواقف، وتختلف باختلاف الظروف والملابسات، وربما تداخلت آليتان أو أكثر في نص واحد، غير أن البحث سيعرض لبعض هذه الآليات بوصفها نماذج وأمثلة يمكن أن تكون كاشفة عن كيفية توظيف الإمام لصورة النموذج الإسلامي للإنسان في التشخيص والمعالجة:

أولا: المقابلة:

ونعني بها إعادة تجميع صورة المسلم على وفق مقاييس القرآن الكريم والسنة النبوية وما كان عليه المسلمون الأوائل أيام رسول الله ﷺ، ووضعها وجهاً لوجه أمام الصورة المشوَّهة التي أنتجتها الانحرافات التي ابتُليت بها الأُمة الإسلامية، في محاولة لإعادتها إلى مسارها القويم. فإذا كان فيء المسلمين بستاناً لقريش*، حسبَ ما يرى عامل الخليفة السابق، بكل ما تحمله هذه المقولة من هدرٍ لإنسانية الإنسان، وهدر للرسالة التي جاء بها الإسلام، فإن الإمام عليه السلام يوصي عامله على أذربيجان بقوله: " **وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَة، وَلكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعىً لِمَنْ فَوْقَكَ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفتَاتَ فِي رَعِيَّة، وَلاَ تُخَاطِرَ إِلاَّ بِوَثِيقَة، وَفي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلاَّ أَكُونَ شَرَّ وُلاَتِكَ لَكَ** "(١). فالعامل ليس مالكاً للناس يتسلط على رقابهم، بل هو راعٍ وهو مسؤول عن رعيته أمام الله، لذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده للأشتر لما ولّاه مصر: " **وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الَعَمْدِ وَالْخَطَأ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ**"(٢).

---

* هذه القولة معروفة في الكثير من المصادر، وقد كانت حاضرة في أذهان المسلمين آنذاك ؛ فقائلها سعيد بن العاص كان قد قدم الكوفة عاملاً عليها بعد أن شُهد على عاملها الأول الوليد بن عقبة بشرب الخمر، وقد حدث بسبب هذه القولة شجار بين صاحب شرطة سعيد وبين بعض أشراف الكوفة، وشاع الأمر بين الناس حتى أمر عثمان بتسييرهم إلى الى معاوية في الشام ثم ردهم إلى الكوفة، ثم سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في حمص ... .

(١) نهج البلاغة: ٥٨١.

(٢) نفسه: ٦٦١ ـ ٦٦٢.

وإذا كان جيش الإمام عليه السلام يتعلل بالحر والقر فراراً من الجهاد في سبيل الله، فإن حال أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه لم يكن كذلك مع رسول الله صلى الله عليه وآله: " **وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، نَقْتُلُ آبَاءَنا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذلِكَ إلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً، وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ، وَصَبْراً عَلى مَضَضِ الأَلَمِ، وَجِدّاً عَلى جِهَادِ الْعَدُوِّ،...، فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الإِسْلاَمُ مُلْقِياً جِرَانَهُ وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ، وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلاَ اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ، وَأَيْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً، وَلَتَتْبِعُنَّهَا نَدَماً!**"[1]. والفرق بين الحالين هو ما أدى إلى الفرق بين الواقعين.

ثمة واقع تاريخي هو أن المسلمين قد انتصروا وأن الإسلام قد استقر واخضر عودُهُ وقام عموده، وثمة علة لذلك: هي أن المسلمين، زمنَ رسول الله صلى الله عليه وآله، كانوا صادقين صابرين مستقيمين على الطريق الواضح جادين في جهادهم في سبيل الله، وهذه سنة إلهية أشار إليها القرآن في كثير من الآيات: " **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** " [2]. فالمنظومة القيمية الإسلامية ليست رفاهاً اجتماعيّاً نظريّاً، بل هي منظومة وظيفية يؤدي فقدانها إلى فقدان المكتسبات التي تحققت بسببها أصلاً. وفي المقابل ثمة واقع آخر مختلف، يعيشه المسلمون اليوم، وثمة علة لهذا الاختلاف هي غياب المنظومة القِيْمية التي كانت حاضرة زمن الرسول صلى الله عليه وآله. وهذا الواقع سوف يؤدي على وفق استشراف الإمام عليه السلام للمستقبل ـ القريب والبعيد ـ المبني على مقدمات الحاضر الذي يعيشه المسلمون، سوف يؤدي إلى أنهم سيحتلبونها دماً وسيتبعونها ندماً، بما كسبت أيديهم " **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** " [3]

ولا شك أن هذا الفارق يعكس فارقاً في الإيمان، وفي الانقطاع لله تعالى، بين أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وأصحاب الإمام عليه السلام، فأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله كانوا قد تركوا الدنيا وما فيها طلباً لمرضاة الله ومرضاة رسوله، أما أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فقد انشغلوا، بما أكسبهم إسلامُهم، من زخرف الدنيا وزبرجها، عن دينهم، وهذا هو أس الفساد في المجتمع الإسلامي ومن ثم في الأمة الإسلامية، وكان

(١) المصدر نفسه: ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) سورة الأعراف: آية: ٩٦.

(٣) سورة الأنفال: آية ٥٣.

التنبيه على هذه القضية، عن طريق المقابلة بين حال المسلمين في صدر الرسالة وحالهم اليوم، ضرورة ملحة لإعادة إحياء هذه الأُمة وإعادتها إلى جادة الصواب.

ثانيا: **الشحن العاطفي**:

لم تكن القناعات الفكرية المحضة هي المحرك الوحيد لسلوك المسلمين أيام الرسول ﷺ، بل كان للعاطفة الإيمانية، التي يحركها نزول الوحي حيناً ومواقف الرسول ﷺ وكلماته حيناً آخر، أثر كبير في نفوس وعقول المسلمين، وهذا ما تدل عليه الكثير من الشواهد التاريخية، فالأفكار المجردة لا تستطيع أن تصمد طويلاً أمام إلحاح النفس ولجاجتها؛ لذلك حاول أمير المؤمنين عليه السلام شحن المنظومة القيمية الإسلامية بالوهج العاطفي الذي يمدها بالقدرة على الصمود في مواجهة المغريات المادية، والفاعلية الحقيقية على مستوى الفرد والمجتمع. فالإنسان بطبيعته يتأثر بعاطفته سلباً وإيجاباً أكثر من تأثره بمعتقداته الفكرية وقيمه الأخلاقية، لا سيما أن كثيراً من هذه القيم قد تكون مضرة بصاحبهاعلى المستوى الشخصي، فـ " **الجود يفقر والإقدام قَتَّالُ** " (١) كما يقول أبو الطيب المتنبي. لذلك قد تجد من الناس من " **لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إِلاَّ مَا قَارَبَتْهُ الدُّنْيَا** "(٢)، حيث يصبح الدين ـ كما يقول الإمام الحسين عليه السلام ـ لعقاً " **على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قل الديانون** " (٣).

أما المؤمن الحقيقي الذي يريده الله فهو " **مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ ـ وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ ـ مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ** " (٤)، وهذا ما يرتقي بالإنسان ويسمو به إلى مستوى الشعور بالمسؤولية الإنسانية التي يفرضها عليه وجوده في الأرض خليفةً لله تعالى. إلا أن خلافة الإنسان في الأرض قضية فكرية قلّما يستحضرها المرء في وجدانه، وقلّما تكون دافعاً موجهاً لسلوكه، مع أنها قضية مركزية في مسيره ومصيره، وهنا يأتي دور الوهج العاطفي الذي يشحن القيم الفكرية والأخلاقية ويمازجها بما يجعلها قادرة على دفع الإنسان وتحريكه بالاتجاه الصحيح، لذلك تجد أن الكثير من نصوص النهج تنفخ الروح في هذه القيم، وتمزج وضوح الفكر مع وهج العاطفة في بوتقة البلاغة

(١) شرح ديوان المتنبي: ٣: ٤٠٦. وهو عجز بيت صدره: "**لولا المشقة ساد الناس كلهمُ**".

(٢) نهج البلاغة: ٨٠٣.

(٣) تحف العقول: ٢٤٥.

(٤) نهج البلاغة: ٣١٩.

المدهشة. ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك وصفه عليه السلام للمتقين، حتى بلغ من تأثيره في المتلقي ـ همَّام ـ أنه صُعِقَ إثرَ هذا الكلام صعقة كانت نفسه فيها [1].

يقول عليه السلام: " **فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ ... عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً ... أَرَادَتْهُمُ الْدُّنْيَا وَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا. أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ ... وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ ... فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِين، وَحَزْماً فِي لِين، وَإِيمَاناً فِي يَقِين، وَحِرْصاً فِي عِلْم، وَعِلْماً فِي حِلْم، وَقَصْداً فِي غِنىً، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَة، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَة، وَصَبْراً فِي شِدَّة، وَطَلَباً فِي حَلاَل، وَنَشاطاً فِي هُدىً، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَع. يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَل، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ ... إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمَ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ ... يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ. بَعِيداً فُحشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ. لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ. لاَ يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، ولاَ يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاء، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَة. أَتْعَبَ نفسه لآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْر وَعَظَمَة، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْر وَخَدِيعَة** "[2]

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٤٩٩.

(٢) نفسه: ٤٩٥ ـ ٤٩٩.

وأول ما يلفت النظر في هذا النص هو الموسيقى الهادئة المطمئنة التي تنبعث من ألفاظه وتراكيبه، بحيث لا تملك النفس إلا أن تنساب مع تموجاتها المتهادية في عوالم الملكوت، بعيداً عن منغصات الواقع ومكدِّراته، وكأن المتلقي يحلِّق في مستوى آخر من الوجود يختلف عن هذا المستوى الذي يعيشه يومياً.

إن هذا النص يكاد يرتكز ـ فنياً ـ على عنصري الطباق والمقابلة، كما يرتكز ـ فكرياً ـ على المقابلة بين عظم الخالق وصغر ما دونه: " **عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ**"، وهي مقابلة تستمد جذورها الفكرية والنفسية من قوله تعالى: "**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ...**"[١]، وهو " **كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين في الاعتقاد** "[٢]، ولعل اكتناز هذا النص تحديداً بالفنون البلاغية والجمالية المتعددة يعطي النص زخماً عاطفياً كبيراً يبعث في المتلقي أثراً نفسياً لا يمكن إغفاله.

ثالثا: **التوحيد أو التكامل**:

ربط هذه القيم بعضها مع البعض الآخر ربطاً سببيّاً واعياً، لتشكل ـ معاً ـ وحدةً متكاملة لا يمكن، معها، أن يغني بعضها عن بعض. فكما لا يمكننا أن نجعل القرآن عضين، أو أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، فكذلك القيم الإسلامية واحدة لا يمكن تجزئتها أو تفكيكها، أو الإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر: " **إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الأَخْلاَقِ وَتَصْرِيفَهَا** " [٣] لأنها منظومة متكاملة يؤدي بعضها إلى بعض، ويشد بعضها أزر البعض الآخر.

فالتقوى مثلاً وهي قيمة عليا جعلها الله تعالى مقياساً للتفاضل بين المؤمنين " **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** " [٤]. هذه التقوى لا يكتفي الإمام عليه السلام بدلالتها اللغوية فحسب، بل يفتح أفقها على الإنسان وعمله وعلاقاته مع الله والآخرين " **وَاللهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْتَزِنَ لِسَانَهُ، وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِإِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلاَمٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لاَ يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ، وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْد حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ،**

---

(١) سورة الأحزاب: آية: ٤.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٦: ٢٤٥.

(٣) نهج البلاغة: ٤٢٣.

(٤) سورة الحجرات: آية ١٣.

وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ »؛ فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللهَ سُبْحانَهُ وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ. " (١)

وبهذا تكون التقوى حفظ اللسان، والتدبر والتأمل قبل الفعل، والتماس الخير، ونفي النفاق، ونقاء اليد واللسان من دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، وحثّاً على كل فضيلة. بل هي أم الفضائل.

وبهذا الفهم أيضا سيتفرع الإيمان ليمتد على كامل المنظومة القيمية الإسلامية، وهذا الامتداد ليس امتداداً اعتباطيّاً بل هو امتداد ارتباطي، ترتبط فيه القيم مع بعضها ارتباط العلة بالمعلول، والسبب بالنتيجة:

" **الإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ، والْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ: فَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَربَعِ شُعَب: عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ: فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلاَ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ. وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ، وَسُنَّةِ الأَوَّلِينَ: فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الأَوَّلِينَ. وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ، وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ، وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ: فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفْرِطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً. وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ: فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنَافِقِينَ، مَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِئَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لله غَضِبَ اللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.** " (٢)

وهكذا فالتقوى هي الإسلام كله والإيمان هو الإسلام كله؛ لأن القيم الإسلامية ليست شارات وأوسمة يعلق منها المسلم ما يشاء ويترك ما يشاء، بل هي منظومة قِيميَّة واحدة يؤثر بعضها في بعض سلباً وإيجاباً، وبهذا تصبح كثرة الكلام، وهي عيب يتساهل فيه كثير منا، تصبح مدعاةً لدخول

(١) نهج البلاغة: ٤٢٤.

(٢) نفسه: ٧١٧ ـ ٧١٩.

النار؛ لأن " **مَنْ كَثُرَ كَلاَمُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ** " (١)،

وفي هذا السياق التعليلي أيضاً يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ** " (٢)، فعندما يُمنَع الناسُ حقوقَهم يضطرون لشرائها ممن منعهم إياها، ولو بطرائق منحرفة، وعندما يستخدم السلطان الباطل في سياسة الناس فإنه يقدم لهم الأسوة السيئة ـ وليست الحسنة التي أرادها القرآن ـ التي سيقتدون بها، فالناس على دين ملوكهم. وهذا ليس تسويغاً لانحراف الناس إذا انحرف حُكّامهم، بل هو تنبيه للحكام على أهمية التزام العدل والاستقامة على الجادة، لأن انحراف الحاكم له نتائج كارثية لا يمكن مقارنتها مع النتائج المترتبة على انحراف المحكوم، كما أنه حث على البدء بتربية النفس وتأديبها مقدمة لتربية الآخرين وتأديبهم: " **مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالإِجْلاَلِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ** " (٣)

رابعا: **التعليل**:

توظيف هذه المنظومة القِيمية توظيفاً واعياً. عن طريق ربط هذه القيم بالنتائج المترتبة عليها، أو التي يمكن أن تتحقق من خلالها. فالإنسان وُجِدَ على الأرض من أجل هدف معين، وقد كيَّف الله تعالى خلقة المادي والمعنوي لما يتناسب مع أداء هذا الهدف، فكما أن لوجود اليد هدفاً ولوجود اللسان هدفاً، فكذلك للفضائل الخلقية التي أُمِر الإنسان أن يتحلى بها أهداف معينة تتناسب معها، وهذا منهج قرآني ونبوي في التعامل مع القيم والأخلاق والعبادات الإسلامية:

ففي قوله تعالى: " **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** " (٤) توصيف لوظيفة من وظائف الصلاة، وسياق هذا التوصيف يُشعر بوجود ترابط سببي بين الأمر بإقامة الصلاة وبين كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر، بحيث يمكن أن نفهم أن أحد أسباب الأمر بإقامة الصلاة هو كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر. وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: " **إن فلاناً يصلّي بالليل، ويسرق بالنهار.**

(١) المصدر نفسه: ٧٨٩.

(٢) نفسه: ٧١٠.

(٣) نفسه: ٧٢٦.

(٤) سورة العنكبوت: آية ٤٥.

فقال: لعل صلاته تنهاه " [١]. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الآية تربط بين إقامة الصلاة وبين أثرها ربطاً مؤكداً بحيث تكون المحصلة النهائية: " **من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له** " [٢]، وفي رواية أخرى " **لم يزدد من الله إلا بعداً** " [٣]. وقد روي عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: " **من أحب أن يعلم أقُبِلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعته قبلت منه** " [٤]، وبهذا الفهم ستكون للصلاة غاية على المسلم أن يسعى لتحقيقها، وسيكون لها مقياس يكشف الإنسان من خلاله مدى صحة إقامته لها، ومن ثم مدى قبولها منه. والبحث هنا لا يريد التطرق إلى الآليات التي تنهى بها الصلاة عن الفحشاء والمنكر ولا يريد أن يناقش الدلالة الدقيقة لذلك، إذ قد تكفلت بهذا كله كتب المختصين من المفسرين والأخلاقيين وغيرهم [٥]. وإنما غرض البحث الكشف عن الآلية التي يتعامل بها النص القرآني والنبوي مع مفردات المنظومة القيمية الإسلامية، عن طريق ربطها بنتائجها ربطاً سببيّاً وظيفيّاً، يشكل مرجعية معرفية لنصوص نهج البلاغة.

وقد استخدم أمير المؤمنين ﷺ هذا الأسلوب كثيراً في خطاباته ووصاياه، ومن ذلك قوله ﷺ: " **لاَ تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً، وَيَقِينَكُمْ شَكّاً، إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا، وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا** " [٦]. فالعلم فضيلة حث عليها الإسلام كثيراً، لما له من أثر بالغ في تقويم مسيرة الإنسانية، ولكن هذا العلم في المفهوم الإسلامي ليس ترفاً فكريّاً، ولا ميداناً للاستعراض، بل " **الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلاَّ ارْتَحَلَ** " [٧]. والإسلام حث على العلم لأن للعلم وظيفة يؤديها، ونتيجة يوصل إليها، فإذا لم ينتفع العالم بعلمه استوى مع الجاهل. بل لعل الجاهل معذور بجهله. وهكذا اليقين إذا لم يؤد إلى الإقدام على ما تيقن المرء منه تحول إلى شك.

وانظر كيف يُفعِّل ﷺ التقوى والزهد في الدنيا ويوظفهما لسعادة الدنيا فضلاً عن سعادة الآخرة: " **أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الاْخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُهم أَهْلُ**

(١) أحكام القرآن: ٥: ٢١٧.
(٢) الدر المنثور: ٦: ٤٦٥.
(٣) مجمع البيان: ٨: ٢٩.
(٤) المعجم الكبير: ١١: ٤٦.
(٥) ينظر مثلاً: الميزان في تفسير القرآن: ١٦: ١١٦ وما بعدها.
(٦) نهج البلاغة: ٧٧٥.
(٧) نفسه: ٧٩٣.

الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ، أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ، لاَ تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلاَ يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّة " (١).

فالدنيا والآخرة في الأدبيات الإسلامية ضرتان لا يشتركان في قلب واحد، بل " **هُمَا بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمَاش بَيْنَهُمَا، كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِد بَعُدَ مِنَ الاْخَرِ** " (٢)، ولكن النص هنا يعطي للذة الدنيا معنى آخر منفتحاً على الآخرة ومؤدياً إليها، فإذا كان من المجهد لبعض النفوس أن تزهد في الدنيا، وتنعتق من أسر لذّاتها، لأن " **النَّاس أَبْنَاءُ الدُّنْيَا، وَلاَ يُلاَمُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ**"(٣)، فليس أفضل من تعيش هذه اللذات بطريقة مؤدية للآخرة، فتجمع بذلك بين الضرتين، وتوحد بين المشرق والمغرب.

ومن ذلك أيضاً توظيف الاستغفار والصلاة ـ وهما مفردتان قد يعتادهما المسلم حتى لا يجد لهما أثراً في حياته اليومية ـ بطريقة تعيد إليهما حيويتهما وفاعليتهما في حياة المسلم: " **مَا أَهَمَّنِي ذَنْبٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ حَتَّى أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَأَسْأَلَ اللهَ الْعَافِيَةَ** " (٤). فالخطاب في النهج يستثمر كل الطاقات التي توفرها صورة الإنسان المسلم مرتكزاً في كل ذلك على الأصل الذي يجذِّر نصوص نهج البلاغة كلها، وهو أصل وجود الإنسان على الأرض وعلته وغايته، ذلك الأصل الذي ما فتئت الآيات القرآنية تردده وتعيد ترداده على مسامع المسلمين، فالإنسان وُجِد على الأرض خليفةً لله تعالى فيها لكي يعمرها ويعمر نفسه على وفق آلية ومنهجية رسم القرآن الكريم والسنة النبوية خطوطها العريضة وتفاصيلها الدقيقة، والغاية هي السير إلى الله، في طريق التكامل الإنساني. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلى نِهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلإِسْلاَمِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلى غَايَتِهِ** " (٥)، فالإنسان مخلوق لغاية معينة، والطريق إلى هذه الغاية مُعَلَّمٌ بمصابيح هدى وأعلام هداية، ومن تخلف وشذَّ فإلى الهاوية.

---

(١) المصدر نفسه: ٦٠٥.

(٢) نفسه: ٧٣٤.

(٣) نفسه: ٧٨٠.

(٤) نفسه: ٧٠٨.

(٥) نفسه: ٤٢٣.

الفصل الثالث: الآخر المخالف:

(الخلفاء، المعارضون، الرعية)

مهاد تنظيري:

لقد مر في الفصل الثاني أن الإسلام كان ثورة فكرية أتت على كثير من التصورات والمفاهيم والقيم التي كانت سائدة في أذهان الجاهليين، شأنه في ذلك شأن جميع الرسالات السماوية التي جاءت " **ثورة قيم على قيم، ومعايير على معايير، وانقلاب مقاييس على مقاييس** "(١) ولذلك كان شعار الإسلام كلمة " **لا إله إلا الله** " التي تعني في جزئها الأول الرفض والثورة على كل الآلهة المزيفة والمصطنعة التي تنتج قيماً ومعايير ومقاييس منحرفة، وفي جزئها الثاني الإثبات والولاء للخالق المطلق الذي يرسم للإنسانية مسيرتها على وفق القيم والمعايير الإلهية التي تحقق للإنسانية أهدافها في الوجود (٢).

إلا أن النظر الدقيق إلى الواقع الإسلامي، أثناء حياة الرسول ﷺ وبعده، يدل على أن الرسالة لم تحقق، بعدُ، جميع أهدافها في هذا المجال، إذ كانت القيم والمعايير الجاهلية تُطل برأسها ـ ولو على استحياء ـ أحياناً، في مقابل المعايير السماوية، مما يستدعي تدخلاً مباشراً من قبل الرسول ﷺ أو حتى من قبل الله تعالى، فمنطق الجاهلية ومعاييرها هي التي حدت بعبد الله بن أبيّ ـ مثلاً ـ أن يقول ما قال حتى نزل فيه قوله تعالى " **يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** "(٣)، وفي محاولة لتعليل سلوك ابن أبيّ يقول أسيد بن حضير لرسول الله ﷺ : " **يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً** "(٤). ولا شك أن هذا الاعتذار لا يقل قبحاً عن الفعل نفسه، إذا كان صاحبه معتقدا به، وإلا فهو كاشف قباحة الفعل ومرجعياته الدنيوية الجاهلية.

إن المسلمين لم يكونوا متساوين في إيمانهم وتقواهم، ولم يكونوا متساوين في مدى فهمهم لروح الشريعة الإسلامية والمعايير الإلهية التي تبتني عليها، ولم يكونوا متساوين في دوافعهم التي أدخلتهم الإسلام، فمنهم من آمن بالله ربّاً وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام ديناً فدخل في الإسلام محبّاً طائعاً، ومنهم من رأى ظهور الإسلام على الوثنية وعلى عالم الجزيرة العربية فأحب أن يكون في الجانب

(١) إضاءات في التأصيل الثقافي: ١٠٢.

(٢) ينظر: نفسه، وموسوعة الإمام السيد الشهيد محمد باقر الصدر: ١٦: ٧٥٧ وما بعدها.

(٣) سورة المنافقون: آية: ٨.

(٤) السيرة النبوية: ٤: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

المنتصر، ومنهم من لم يترك وسيلة لمحاربة الإسلام دفاعاً عن وثنيته وجاهليته إلا مارسها، حتى إذا لم يجد من الإسلام بدَّاً دخله، حفاظاً على حياته أو مصالحه، وهو مُكرَه.

وهذا واقع يصدقه القرآن الكريم نفسه الذي عاب على بعض المسلمين ـ قلُّوا أو كثروا ـ سلوكاً غير إسلامي، وفي أكثر من موطن، من ذلك قوله تعالى: " **لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ، إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** "[1]، فهؤلاء الذين يجردهم القرآن الكريم من الإيمان بالله واليوم الآخر ويجردهم من التقوى، هم من المسلمين قطعاً لأنهم استأذنوا الرسول ﷺ ولو كانوا من غيرهم لم يستأذنوه، وقوله تعالى: " **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**"[2]، وبغض النظر عن معنى هذا الشرك الذي اختلف فيه المفسرون، فإنه يدل على وجود مرجعيات ومعايير غير إسلامية ـ جاهلية ـ تعمل جنباً إلى جنب مع المرجعيات والمعايير الإسلامية الإلهية، هذه المعايير هي التي كادت أن تخلق الفتنة بين المسلمين حين اختلف أحد المهاجرين مع أحد الأنصار فصرخ أحدهم: يا معشر الأنصار، وصرخ الآخر: يا معشر المهاجرين[3]، والله تعالى يقول: "... **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** "[4].

إن الأفعال والأقوال والمواقف والرؤى التي تصدر عن مرجعيات ومعايير غير إسلامية هي أفعال وأقوال ومواقف جاهلية بغض النظر عن صاحبها الذي قد يكون صحابياً له مكانة جليلة في التاريخ الإسلامي، فالبحث هو بحث في المفاهيم والرؤى والأفعال وهذا الصحابي أو ذاك قد يكون مصداقاً لمفهوم ما في موقف ما، ويكون مصداقاً لمفهوم مغاير تماماً في موقف آخر، لذلك نجد أن أمير المؤمنين عليه السلام قد عرف للزبير بن العوام مواقفَه أيامَ رسول الله ﷺ ، حيث قال حين أُتيَ بسيفه بعد مقتله " **طالما جلا الكروب عن وجه رسول الله** "[5]، في حين أنكر عليه نكثه ببيعته وتأليب الناس عليه عليه السلام حيث قال عنه وعن طلحة: " **اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا**

(١) سورة التوبة: الآيتان: ٤٤، ٤٥.

(٢) سورة يوسف: آية ١٠٦.

(٣) ينظر في تفاصيل الواقعة: السيرة النبوية: ٤: ٢٥٣.

(٤) سورة النساء: آية: ٥٩.

(٥) سمط النجوم العوالي: ٢: ٥٦٥.

النَّاسَ عَلَيَّ؛ فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلاَ تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلاَ وَعَمِلاَ "[1]. لأنه عليه السلام يتعامل مع الوقائع بمنظار" **لا تنظروا إلى من قال وانظروا إلى ما قال** "[2].

بناءً على ما تقدم، فإن إعادة بناء الإنسان المسلم، ومحاولة إعادته إلى فطرته الأولى، ستكون أولوية قصوى لمن يحمل هم الرسالة الإسلامية، فإذا كان الآخرون يريدون أن يغيروا العالم من الخارج، عن طريق ما يعرف في الأدبيات الإسلامية بالفتوحات، فإن الإمام عليه السلام انطلق من الداخل؛ لأن " **مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ** "[3]، وإذا أرادت الأمة الإسلامية أن تقود العالم في مسيرة الإنسان نحو كماله، فعليها أولاً أن تبدأ بنفسها.

والبحث هنا لن يحاول أن يلقي باللائمة على جهة ما، ولن يحاول أن يُخرج أحداً عن الإسلام أو يشكك في دوافعه انطلاقاً من آيديولوجيا شخصية أو مذهبية، بل سيحاول أن يستقرئ نصوص نهج البلاغة ليستجلي ما تختزنه مما يمكن أن يكون علامات في طريق القراءة الدقيقة لشخصيات هذه الأحداث بوصفها آخر مختلفاً، وسيبدأ بالخلفاء، ثم المعارضين، ثم الرعية.

(١) نهج البلاغة: ٣٣٧.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٢٤١.

(٣) نهج البلاغة: ٧٢٦.

المبحث الأول: الخلفاء:

لا يمكننا أن نفكر في الرسول ﷺ بمعزل عن التفكير في الرسالة، فقد عاش حياته كلها، وبجميع تفاصيلها مجسِّداً للرسالة، حتى كان محمد هو الرسالة والرسالة هي محمد ﷺ، ومن نذر نفسه لقضية بهذا الحجم لا يمكنه أن يهمل التفكير في مصيرها وما ستؤول إليه بعده، فليس من منطق الأشياء، ولا من الإنصاف لرسول الله ﷺ أن يقال أنه ترك الأمة من دون أن يبين لها معالم الطريق الذي ستسلكه بعده. كما ليس من الممكن أن يقال أنه ترك أمر الخلافة للأمة بعده، تجتهد فيه برأيها، لتنقسم فيه بعد ذلك إلى قائل بالشورى، وآخر بالتنصيب أو الغلبة أو برأي أهل الحل والعقد من الأمة، فسيرة الرسول تنبئنا بأنه ﷺ كان يباشر تعليم أصحابه أبسط جزئيات الحياة اليومية وتفاصيلها، من دون أن يفرضها على أحد، اللهم إلا إذا كانت من الواجب الذي أمرت به الشريعة، فيأمر وينهى ويعلِّم ويرضى ويغضب. ومن جانب آخر، إذا تنزلنا وقلنا ـ جدلاً ـ إنه ﷺ ترك هذا الأمر ولم يُشِر إليه، فإنه ليس من الإنصاف لصحابة الرسول ﷺ أن يقال إنهم أهملوه ولم يسألوا نبيهم عنه وقد كانوا يسألونه عن أشياء دون ذلك بكثير.

ولئن كان ثمة من يقول بأن الرسول ﷺ قد ترك هذا الأمر للأمة تختار فيه لنفسها، مؤولاً النصوص النبوية التي يستدل بها أصحاب الرأي الأول، ما فتح أبواب الجدل بين نظرية التنصيب الإلهي للإمام ونظرية اختيار الأمة، فإن في نصوص النهج ما يشير بوضوح، ويصرح أحياناً، بأن الإمامة ثابتة في أهل بيت النبي ﷺ الذين اختصهم بالوصية دون غيرهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن أهل البيت: " **هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ... لا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّد ﷺ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً. هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ اليَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الغَالِي، وَبِهِمْ يَلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلايَةِ، وَفِيهِمُ الوَصِيَّةُ وَالوِرَاثَةُ، الآنَ إِذْ رَجَعَ الحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ** " (١).

وقد مرّ في الفصل الأول من هذا البحث أن الخطاب في نهج البلاغة يستخدم صيغة الجمع إذا كان الحديث عن الإمامة بخطها العريض أو مفهومها العام، لأنه مفهوم يصدق على أهل البيت جميعاً، والإمام عليه السلام ليس مصداقه الوحيد، وإن كان المصداقَ الأبرز الماثل للعيان، وهو استخدام

(١) المصدر نفسه: ٧٢ ـ ٧٣.

يبدو، من خلال شيوعه بنمطية ثابتة، أنه ناتج عن قصدية وإرادة، لعل أحد دوافعها محاولة التأسيس ـ فكرياً ـ لمفهوم كلي يمتد بعده ليشمل المصاديق الأخرى من أهل البيت عليهم السلام.

إذن فالنص هنا يتحدث عن الإمامة بوصفها مفهوماً عاماً، وليس عن إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، أي أن هذا النص في مقام التأسيس، أو إعادة التأسيس الإسلامي لنظرية الإمامة بوصفها قضية جوهرية ومحورية في حياة الأمة الدينية والسياسية والاجتماعية، في مرحلة هي أحوج ما تكون إلى هذا التأسيس، فقد مرّ أكثر من ربع قرن على التحاق الرسول صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى وما زالت الخلافة الإسلامية تتخبط بين فلتة وقى الله شرها، وبين وصية هي في حقيقتها ثمرة لتلك الفلتة *، وبين شورى خص بها الخليفة الثاني ستة من المسلمين دون غيرهم وجعل السيف على رقابهم، وبين بيعة أباها بعض المسلمين ونكث بها آخرون.

إن هذا التأسيس في الوقت الذي يرتكز فيه الإمام عليه السلام على المرجعية النبوية في التأسيس الإسلامي بوصفها الشريك المبيِّن والمكمِّل للمرجعية القرآنية، فإنه لا يُغفِل ما يسميه المعاصرون بـ (مقاصد الشريعة)، ويمزج بين الاثنين مزجاً يعلل ويبين ويفلسف الوصية النبوية على ضوء مقاصد الشريعة، لأن " **الفكر الديني المتشكل في فضاء يخلو من مقاصد الدين والشريعة، لن يتمتع، بأي وجه من الوجوه، بقابلية التحرك في المساحات الاجتماعية** "(١)، والإمام عليه السلام يريد لهذا التأسيس أن يتحرك داخل هذه المساحات ويتغلغل فيها ويتفاعل معها وتتفاعل معه، فالإمام لا يمارس ترفاً فكرياً يريد من خلاله أن يثبت قدرته على الإقناع والمحاججة، وإنما يريد لهذا الفكر ـ بوصفه منهجاً وعقيدة ـ أن يربي الوسط الاجتماعي.

لم يقل النص: إن الولاية حق لنا دون غيرنا، ولم يقل: إننا موضع وصية الرسول صلى الله عليه وآله والأحق بوراثته، إلا بعد أن بين من الصفات ما يجعلهم أهلاً لهذه للولاية، وموضعاً لتلكم للوصية، فحركة الرسالة ليست خبط عشواء، وإذا كان ثمة من تنتهي إليه بعد الرسول صلى الله عليه وآله ، فيجب أن يكون لذلك علة هي من صميم أهداف الرسالة ومقاصدها، لذلك بدأ هذا النص بما اختص به أهل البيت دون غيرهم من المسلمين، مما لا يترك مجالاً للمقايسة بينهم وبين غيرهم، على وفق المعايير والمرجعيات

*. قال أمير المؤمنين عليه السلام لعمر بن الخطاب حين اشتد عليه في مبايعة أبي بكر: " **احلب حلباً لك شطره، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً** ". الإمامة والسياسة: ٢٩.

(١) فلسفة مرجعية القرآن المعرفية: ٤٣.

الإلهية التي تتخذ من العلم والحكمة والتقوى ـ وليس من العصبية القبلية ـ معياراً للتفاضل بين المسلمين.

وإذا كان موضوع التفاضل هو الأهلية لقيادة الأمة الإسلامية، فإن معايير هذا التفاضل يجب أن يكون لها من الأهمية والخطورة ما للقيادة نفسها من أهمية وخطورة. ومما يتفق عليه المسلمون بمذاهبهم جميعها، ومشاربهم باختلافها، أنهم قالوا بعصمة الرسول ﷺ فيما يتعلق بتبليغ الرسالة، وإن اختلفوا في عصمته المطلقة. إذ إن عدم العصمة في التبليغ عن الله تعالى يعني إمكانية انحراف ما يصل إلى المبلَّغين (الناس) من الشريعة، وبمعنى آخر يمكن أن يكون ما بين أيدينا من القرآن ليس من القرآن، والعياذ بالله، ويمكن أن يكون ما أحله الرسول ﷺ أو حرمه، ليس هو الحلال والحرام الذي أراده الله تعالى، وهذا ما لم يقل به أحد من المسلمين.

والحقيقة أن عصمة الرسول ﷺ أو عدم عصمته، فيما يتعدى حدود تبليغ الرسالة، هي قضية شديدة المساس بقضية الإمامة، بل لعلها أحدى نتائجها. فمن المعلوم أن هدف الرسالة هو قيادة الأمة على ضوء التشريع الإلهي، وهذا يتطلب مجموعة من المراحل هي:

١. وجود التشريع الإلهي.
٢. إيصال التشريع الإلهي إلى الأمة، بل إلى المجتمع الإنساني، إذ يتفق المسلمون على أن رسالة الإسلام رسالة إنسانية عامة.
٣. القدرة على فهم هذا التشريع فهماً كاملاً.
٤. القدرة على تطبيقه بشكل سليم غير مشوب بما يمكن أن يشاب به مما ليس منه.

وإذا تجاوزنا المرحلتين الأولى والثانية، إذ يتفق المسلمون على أن مصدر التشريع هو الله تعالى، كما يتفقون على أن الرسول ﷺ معصوم فيما يبلغ من هذا التشريع، إذا تجاوزنا هاتين المرحلتين، فإن المرحلتين الأخريين مما يشترك فيه الرسول ﷺ أثناء قيادته للأمة في حياته، مع من ينوب عنه، أو يخلفه في هذه القيادة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، إذ يذهب من لا يشترط عصمة الرسول في فهم التشريع أو تطبيقه إلى عدم وجوب عصمة من يخلفه، ولعل العكس هو الصحيح، بينما يذهب من يشترط عصمته ﷺ في الفهم والتطبيق إلى جانب عصمته في التبليغ إلى وجوب عصمة الخليفة، ولعل العكس هو الصحيح أيضا. وهنا لا بد من التساؤل: ماذا ستنفعنا شريعة كاملة إذا لم يكن القائم على تطبيقها كاملَ القدرة على فهمها وتطبيقها؟ وماذا ستنفعنا شريعة

كاملة إذا كان فهمها يعتمد على اجتهادات قد تتعارض أو تتناقض مع بعضها. ماذا لو حرّم بعض المسلمين شيئاً، اعتماداً على اجتهاده في فهم الشريعة، وأوجبه غيره؟ ماذا لو رأى طلحة والزبير وأم المؤمنين أن يقاتلوا عليّاً طلباً بدم عثمان الذي سفكوه بأيديهم، ورأى علي بن أبي طالب أن يقاتلهم حفظاً للدين؟؟ فهل ثمة معايير يحدِّدُ من خلالها المسلمُ تكليفَه أمام الله وأمام التاريخ، أم أن الأمور ستختلط عليه لأن كلاً من الصحابة (وكلهم مبشرون بالجنة) اجتهد في فهمه للدين ورأى نفسه ملزماً بفعل ما فعل؟؟! وهل سيسع اعتزالُ سعد ابن أبي وقاص (المبشر بالجنة أيضاً) وأمثاله، ممن " **خَذَلُوا الْحَقَّ، وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ**"(١)، هل سيسع هذا الاعتزالُ الناسَ كلَّهم؟؟!

نعم إن الله تعالى أكمل للمسلمين دينهم على يد رسوله ﷺ، وتعهد بحفظ الذكر في كتابه الكريم، ولكن هذا الدين هو الشريعة التي سنها الله تعالى وبلَّغها الرسول ﷺ، ولعل المرحلة الأخطر هي القدرة على فهم هذه الشريعة وتطبيقها بشكل كامل، وهنا يأتي دور القائد الميداني، سواء كان هذا القائد هو الرسول ﷺ أو خليفته، ولعل من الواضح أن إكمال الدين وحفظ الذكر لم يعصم الخلفاء من الخطأ في مسائل كثيرة كالأمر برجم امرأة لأنها أنجبت وليدها لستة أشهر وليس لتسعة(٢)، ومحاولة تحديد صداق النساء بحد معين وردِّ ما زاد عنه إلى بيت المال (٣)، وغيرها من المسائل. هذا إذا تجاوزنا الاعتداء السافر على الدين ورموزه من قبل بعض من يحسبون على الخلافة الإسلامية أيام بني أمية مثلاً. ولعلَّ قراءة محايدة للتاريخ الإسلامي تكشف الكثير من الانحراف عن مصدري التشريع الإسلامي (القرآن والسنة) على مستوى التشريع في الجزئيات أولاً، وعلى مستوى فهم التشريع وتطبيقه ثانياً. وكل هذا ناتج عن عدم عصمة القيادة الإسلامية بعد الرسول ﷺ.

على أية حال فإن الباحث لا يعدم، في نهج البلاغة، نصوصاً تشير أو تصرح بعصمة أهل البيت، وتجعل من هذه العصمة علَّةً لقصر الخلافة والإمامة عليهم، وترتب الضلال والهلاك على من تأخر عنهم، مثل قوله عليه السلام: " **انْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، وَلاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا** "(٤)، فهذا النص يُلزم باتباع أثر أهل البيت وعدم الحياد عنهم لأنهم " **لَنْ**

(١) نهج البلاغة: ٧١٥.

(٢) ينظر: مصنف عبد الرزاق: ٧: ٣٥٠، ومعرفة السنن والآثار: ٦: ٦٥ ـ ٦٦، ، وكنز العمال: ٥: ١٨١.

(٣) ينظر: السنن الكبرى: ٧ : ٣٨٠.

(٤) نهج البلاغة: ٢٥٥.

يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً "، وفي مقابل هذا المنطوق ثمة مفهوم يقول أن غيرهم يمكن أن (يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وأنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً). وهذا هو المحذور الذي اشترط، من أجله، المسلمون جميعهم عصمة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ**" [1]، إذن ثمة أمر لله في هذا الأمر (الخلافة أو الإمامة)، ولا بدّ أن يكون لله أمر وأحكام وتوجيه في أمر الإمامة، فليست قيادة الأمة أمراً يمكن أن تهمله رسالةٌ أُريدَ لها أن تظهر على الرسالات كلها، وأن تكون خاتمةً للرسالات كافة، وإذا كان لله فيه أمر، فهل يعقل أن يخفيه الله تعالى على نبيه، أو أن يخفيه النبي عن المسلمين. وهذا الأمر قد نجد بيانه في نصوص أخرى من نهج البلاغة، مثل قوله عليه السلام: " **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاؤُوا بِهِ، ثُمَّ تَلاَ** عليه السلام: " **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**"[2] "[3]،

وهنا يتخذ النص من المرجعية الإسلامية الأولى ـ النص القرآني ـ منطلَقاً للتأسيس والتقعيد، حيث ينفتح هذا التأسيس ليستمد عمقه واستمراريته من عمق خط النبوة في التاريخ الإنساني واستمراريته، حيث " **لاَ تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِم لله بِحُجَّة...** "[4]، وحيث يكون الرسول ﷺ، والذين آمنوا *، أولى بالأنبياء ـ ممثلين بشيخهم إبراهيم عليه السلام ـ لأنهم أعلمهم بما جاؤوا به.

عن هذه الرؤية ينطلق النص في نهج البلاغة، ليرسم لنا صورة الخلافة والخلفاء، الخلافة التي انحرفت عن خطها الذي أراده الله تعالى لها، وهي متجهة، ولا ريب، إلى هاوية مظلمة تُسفَكُ في متاهاتها الدماء، وتستحلُّ فيها الحرمات، وقد بُحَّ صوته عليه السلام وهو ينادي: " **فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي، عَسَى أَنْ تَرَوْا هذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لأَهْلِ الضَّلاَلَةِ، وَشِيعَةً لأَهْلِ الْجَهَالَةِ** " [5].

---

(١) المصدر نفسه: ٤١٥.

(٢) سورة آل عمران: آية: ٦٨.

(٣) نهج البلاغة: ٧٣٢.

(٤) نفسه:٧٤٧.

*. لعل في تمثُّل الإمام عليه السلام بهذه الآية الكريمة إشارة إلى قوله تعالى: " **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**". (سورة المائدة: آية: ٥٥) حيث اتفق الكثير من المفسرين على أنها نزلت في حقه عليه السلام، وعدها بعضهم نصاً على إمامته.

(٥) نهج البلاغة: ١٣٩.

إن قراءة أمير المؤمنين عليه السلام للواقع، واستشرافه الدقيق للمستقبل، لا ينطلق في رؤيته للأمور من نبوءة ـ وهذا لا يعني أنه لا يمتلكها ـ بقدر ما ينطلق من تشخيص دقيق وتحليل عميق للمسار المنحني الذي ستنزلق فيه الأحداث الى مصير مجهول. إنها سُنّة الله تعالى إذ "... **لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ، فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** "(١)، فثمة طريقة أرادها الله تعالى للناس، وثمة طرائق أُخَر يريدها الناس لأنفسهم أحياناً، وللأفعال عواقبها، والله سبحانه "... **لاَ تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ** "(٢)، وهو سبحانه يقول: " **وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً**" (٣). على الطريقة وليس على الطرائق، فثمة الطريقة، وثمة " **طرائقَ قدداً** "(٤)، وثمة السراط المستقيم، وثمة السبل التي تتفرق بالناس عن سبيل الله (٥).

ولكن من الذي حال بين الإمام وبين حقه؟ ولماذا؟ أليس هو ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعلم أصحابه وأقضاهم وأشجعهم وأسبقهم للإيمان و... وأحبهم إليه؟!

يقول أمير المؤمنين: " **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلى قُرَيْش وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي** "(٦). وفي محاورة طويلة بين عمر بن الخطاب وابن عباس قال عمر: " **أتدري ما منع قومَكم منكم بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ... كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت... فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت، فلو أن قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله لها، لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود، وأما قولك إنهم أبوا أن تكون لنا النبوة والخلافة، فإن الله عز وجل وصف قوماً بالكراهية فقال: " ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**"(٧) "(٨).

(١) سورة فاطر: آية: ٤٣.
(٢) نهج البلاغة: ٣٢٧.
(٣) سورة الجن: آية: ١٦.
(٤) ينظر: سورة الجن: آية: ١١.
(٥) ينظر: سورة الأنعام: آية: ١٥٣.
(٦) نهج البلاغة: ٤١٤.
(٧) سورة محمد: آية: ٩.
(٨) الكامل في التاريخ: ٢: ٤٥٨، وينظر: تاريخ الرسل والملوك: ٢: ٥٧٨.

إذن ثمة اختيار لقريش في مقابل اختيار الله تعالى لها، والخليفة الثاني، في هذه المحاورة، يتحدث عن آيديولوجيا قبلية ـ آيديولوجية قريش ـ قوامها التنافس والتحاسد بين مكونات القبيلة، حيث تكره أن تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد من بيوتاتها خوفاً من أن يبجح هذا البيت على قومه، أما الحق والاستحقاق، فلا مجال للحديث عنهما ضمن هذه المعايير. أما ابن عباس فيحاجج ضمن المرجعيات الإسلامية حيث يكون الخيار لله تعالى: " **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً**"(١)، وحيث تكون كراهة ما أنزل الله مدعاةً لأن تُحبِطَ الأعمال، فليس لأحد أن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

وقال عليه السلام: " **مَالي وَلِقُرَيْش! وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ** "(٢)! ولعلَّ في هذا النص ما يثير الغرابة لأول وهلة، فلماذا قريش تحديداً، وإذا تفهمنا هذا التحديد مقترناً بالكفر كونهم هم حاملي لواء الحرب على الإسلام، وإن اجتمع معهم من أعانهم. إذا استطعنا أن نتفهم ذلك، فكيف نتفهمه بعد إسلامهم؟ أليس في المسلمين مفتونون غير قريش!

إن النص هنا يتحدث عن مؤسسة، هذه المؤسسة وإن كانت خفية عن الأعين، إلا أن معاييرها تكشف عنها. بمعنى أن النص يريد أن يقول: إن المعايير الجاهلية التي قاتلها الإمام بالأمس، هي نفسها التي يقاتلها اليوم، إنه لا يقاتل أشخاصاً بل مرجعيات فالذي حارب الإسلامَ هي المرجعيات الجاهلية القبلية وغيرها متلبسة بشخص أبي جهل أو أبي لهب أو أبي سفيان أو غيرهم، والذي يحارب علياً اليوم هي المرجعيات أيضاً، ولكنها هذه المرة تلبست بمسلمين، إنه صراع المرجعيات ... المرجعيات الإسلامية في مقابل المرجعيات غير الإسلامية. وإلا فما معنى قوله عليه السلام: " **وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ** "؟، وما معنى قول الخليفة الثاني لابن عباس: إنهم ـ يعني قريشاً ـ " **لينظرون إليكم نظر الثور إلى جازره** " (٣)

نعم إنها المعايير الجاهلية التي ما تزال تتحكم بأصحابها، سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا. وهذا لا يعني أنهم كافرون بقدر ما يعني أنَّ الجاهلي اختلط بما هو إسلامي في نفوس الكثير من

(١) سورة الأحزاب: آية: ٣٦.

(٢) نهج البلاغة: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣) شرح ابن أبي الحديد: ١٢: ١٠.

الصحابة وعقولهم. ولعل هذا الجاهلي كان يعمل ويتحرك في النفوس بخفاء بحيث لم يشعر به حتى حاملوه.

الخليفة الأول:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنهَا مَحَلُّ القُطْبِ مِنَ الرَّحَا، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً، وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَد جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَة عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ. فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذىً، وَفِي الحَلْقِ شَجاً، أرى تُرَاثي نَهْباً**"[1].

ينطلق هذا النص من مقدمة هي أن الخلافة حق للإمام وأن فلاناً (كناية عن الخليفة الأول) قد تقمصها وهو عالم بأنها ليست من حقه ، بل وهو عالم بأنها لا تصلح بغير علي عليه السلام كما لا تصلح الرحا بغير قطبها. والنص بعد ذلك صريح في رفض الإمام عليه السلام لخلافة أبي بكر، إذ يصفها بأنها طخية عمياء ... وأنه صبر عليها وفي العين قذىً، وفي الحلق شجاً. ولو لم تكن اليد جذّاء لما صبر عليها. أما لماذا؟ فالإمام يقول: " **إِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ** "[2]، أما التعليلات التي يعتذر بها القوم، من حداثة السن، وكره قريش لعلي لأنه وتر أكثرهم، أو أن قريشاً كرهت أن تجتمع النبوة والإمامة في بني هاشم، فهي كلها تتخذ من معايير المؤسسة الجاهلية منطلقاً لها، إذ لم يكن الرسول صلى الله عليه وآله أسن قريش حين اختاره الله للنبوة، ولم يكن أسامة بن زيد أسن المسلمين حين اختاره الرسول للإمارة، ولو كان الأمر بالسن لكان أبو قحافة أولى من ابنه بالخلافة كما قال[3]. أما الذين قتلهم علي عليه السلام في حروبه مع الرسول صلى الله عليه وآله فهم أعداء الإسلام ولا علاقة للمسلمين بهم إلا علاقة العصبية الجاهلية، والله تعالى يقول: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**

---

(١) نهج البلاغة: ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) نفسه: ٣٨٩.

(٣) ينظر: شرح ابن أبي الحديد: ١: ٢١١، وكتاب الأوائل للعسكري: ١: ٢١٧ ، وقد ذكر الشيخ الطبرسي في كتاب الاحتجاج: ١١٥: أن أبا بكر لما تولى الخلافة بعث إلى أبيه كتاباً يسأله القدوم عليه، فلما قرأ الكتاب، قال للرسول: " **ما منعكم من علي؟ قال: هو حدث السن وقد أكثر القتل في قريش وغيرها وأبو بكر أسن منه. قال أبو قحافة: إن كان الأمر في ذلك بالسن فأنا أحق من أبي بكر، لقد ظلموا عليا حقه وقد بايع له النبي صلى الله عليه وآله وأمرنا ببيعته** ".

"[1]، فإذا كان في المسلمين من يتولى هؤلاء العتاة من الكفرة، ويعد عليّاً واتراً له بهم، فهل يستحق هذا (المسلم) أن يراعيَ الصحابةُ مشاعرَهُ القبلية الجاهلية، وينحّوا الخلافة عن أمير المؤمنين عليه السلام رعاية له!

ويجد الإمام نفسه بين أن يصول بيد جذاء أو يصبر على طخية عمياء، ولكن لماذا يصول؟ أوليس هو القائل: إن نعله التي كان يخصفها أحب إليه من الإمرة " **إلاّ أَن أُقيم حقّاً، أَو أَدفع باطلاً** "[2]، ولماذا عدَّ خلافة أبي بكر طخية بهذا العمى؟؟ إن هذا النص لا يجيب عن هذه الأسئلة مثلما هو لم يطرحها، ولكن القراءة بوصفها فعلاً واعياً ستطرح الكثير من هذه الأسئلة وستبحث عن إجاباتها بين السطور وخلف السطور. فإذا كانت الإمرة التي يريدها أمير المؤمنين هي التي تُقيم الحق وتدفع الباطل، فلا شك أن خلافة أبي بكر (التي لم يقبلها الإمام، ولم يبايع صاحبها إلا بعد وفاة الزهراء عليها السلام) لم تكن لتقيم هذا الحق ولا لتدفع ذاك الباطل، ولهذا وحده كانت، في نظر الإمام عليه السلام، طخية عمياء، نعم إنها طخية عمياء لأنها لم تقم على المعايير التي يؤمن بها عليه السلام ويعتقد أنها معايير الإسلام، إنها على وفق معايير الإمام رجوع على الأعقاب: " **حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ صلى الله عليه وآله، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الأَعْقَابَ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلاَئِجِ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهَ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ**"[3].

إن بناءً نُقِل عن رصّ أساسه وبُني في غير موضعه، لن يكون البناء المتين الذي أُرِيد له أن يُظلَّ المسلمين، وإذا كان هذا الأساس وهذا الموضع هو المعايير الإلهية ـ إذ مر في الفصل الأول أن مرجعيات الإمام عليه السلام هي مرجعيات إلهية خالصة ـ فبأية معايير أُسِّسَ لخلافة غيره؟ وعلى أية معايير ساست هذه الخلفةُ أمور المسلمين؟

الخليفة الثاني:

ثم ينتقل النص إلى مرحلة أخرى، أو صورة أخرى: " **حَتَّى مَضَى الأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فلان بَعْدَهُ... فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُها في حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لآخر بَعْدَ وَفَاتِه. لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا، فَصَيَّرَهَا في حَوْزَةِ خَشْنَاءَ، يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ العِثَارُ فِيهَا وَالاْعْتَذَارُ مِنْهَا،**

(١) سورة التوبة: آية: ٢٣.

(٢) نهج البلاغة: ١٣٤.

(٣) نفسه: ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النَّاس ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ بِخَبْط وَشِمَاس، وَتَلَوُّن وَاعْتِرَاض. فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ "[١].

فأدلى بها ... عقدها، هكذا أنهى الخليفة الأول خلافته للنبي ﷺ، مع أنه قال بأن النبي لم يستخلف أحداً بعده، فاتحاً الباب أمام للخليفة الثاني لأن يستخلف ولا يستخلف: "**فإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني وإن أترك فقد ترك من هو خير مني** " [٢]، عقدها لآخر دون أن يترك لقريش أن تختار لنفسها، كما اختارت من قبل، ودون شورى يبدي من خلالها المسلمون، أو أصحاب الحل والعقد، آراءهم، بل رغم اعتراض المعترضين على تولية عمر بسبب غلظته[٣]، فقد كان عمر " **سريعاً إلى المساءة، كثير الجبه والشتم والسب لكل أحد، وقل أن يكون في الصحابة من سلم من معرة لسانه أو يده، ولذلك أبغضوه وملوا أيامه مع كثرة الفتوح فيها** " [٤]، وهنا لا بدّ من التساؤل: لمَ لم يكن بُغضُ القوم لخلافة عمر حائلاً بينه وبين الخلافة، ولمَ لم يترك أبو بكر أمر الخلافة للمسلمين كما (تركها) رسول الله ﷺ ؟ لا سيما أنه كان يستقيلها في حياته، والنص لن يترك الإجابة لجهد القارئ، بل يطلقها إطلاق البديهة: " **لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا** "، ووقائع التاريخ تصرح بهذا التشطُّر أيضاً، فـ" **عمر هو الذي شدَّ بيعةَ أبي بكر ووقم المخالفين فيها، فكسر سيف الزبير لما جرده، ودفع في صدر المقداد، ووطئ في السقيفة سعد بن عبادة، وقال اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً، وحطم أنف الحباب بن المنذر... وتوعد من لجأ إلى دار فاطمة** عليها السلام **من الهاشميين، وأخرجهم منها، ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمر، ولا قامت له قائمة** "[٥]، لذلك قال له الإمام عليه السلام يوماً: " **احلب حلباً لك شطره، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً** "[٦].

وإذا كانت شدة عليّ عليه السلام شدةً في ذات الله، ولم تخرج عن مرضاة الله أبداً، فلم يخبرنا التاريخ يوماً أن علياً جار على أحد من المسلمين أو غيرهم، ولم يصفه أحدٌ بالغلظة قط، في حين تجمع أغلب المصادر التاريخية أن عمر بن الخطاب كان غليظاً. وهنا لا بد أن نفرق بين الشدة والغلظة، فالشدة مبدأ وعقيدة، وهي صفة مدح إذا كانت في قضية يؤمن بها صاحبها، لذلك مدح القرآن الكريم

(١) المصدر نفسه: ٧٨ ـ ٧٩.
(٢) الكامل في التاريخ: ٢: ٢٥٩.
(٣) ينظر: كنز العمال: ٥: ٢٦٩ ، ٢٧٠، ومصنف عبد الرزاق: ٥: ٢٤٩.
(٤) شرح ابن أبي الحديد: ٢٠ ـ ١٩.
(٥) المصدر نفسه: ١: ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٦) مر ذكره.

الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بأنهم " **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً** " (١)، في حين أن الغلظة صفة ذم، إذ يقول تعالى: " **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** " (٢). ومن الغريب أن يعيب عمرُ بن الخطاب دعابةً ادَّعاها في أمير المؤمنين عليه السلام (٣)، وقد رددها بعد ذلك ابن العاص ينتقص بها من أمير المؤمنين أمام أهل الشام، حتى قال أمير المؤمنين عليه السلام: " **عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً، وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ: أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ... أَمَا واللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الآخِرَةِ** " (٤)، ولم يذكر لنا التاريخ واحدةً من دعابات عليٍّ التي تخرجه من اتزان المؤمن، وتُطمع فيه الجاهل. والحقيقة أننا نهين ذكاء الرجلين إن قلنا أنهما لم يفرقا بين الدعابة التي ادعياها، وبين لين جانب أمير المؤمنين عليه السلام وسماحة خلقه ورحمته بالمؤمنين، ولكنها السياسة.

وثمة صورة أخرى مضحكة مبكية يرسم لنا النهج ملامحها: " **حَتَّى إِذا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ. فَيَالله وَلِلشُّورَى! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هذِهِ النَّظَائِرِ! لكِنِّي أَسِفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِه، وَمَالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَن وَهَن** " (٥).

جعلها في جماعة **(زعم)** أني أحدهم، ولم يقل جعلني أحدهم، وفي استعمال كلمة زعم هنا دلالتان يدل عليهما النص نفسه:

الأولى، استنكار لأن يقرن الإمام إلى مثل هذه النظائر، ولو تأملنا ما قاله عمر عن الستة المبشرين بالخلافة والجنة، لوجدنا ـ حسب ما وصفهم به عمر ـ أن لا وجه للمقارنة بين علي عليه السلام وبين غيره منهم، فالزبير " **وعق لقس مؤمن الرضا كافر الغضب يوما إنسان ويوما شيطان ولعلها لو أفضت إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير**" (٦)، وطلحة متكبر متفاخر مات

(١) سورة الفتح: من الآية: ٢٩.
(٢) سورة آل عمران: من الآية: ١٥٩.
(٣) ينظر: شرح ابن أبي الحديد: ١: ١٨٣.
(٤) نهج البلاغة: ٢٠٧.
(٥) نفسه: ٧٩.
(٦) شرح ابن أبي الحديد: ١: ١٨٣.

الرسول ﷺ وهو ساخط عليه بالكلمة التي قالها يوم نزلت آية الحجاب، وسعد صاحب مقنب وقوس وصيد، ولا يصلح لأنه **(من زهرة)**، وعبد الرحمن رجل ضعيف وهو **(من زهرة)** أيضاً، وعثمان سيحمل بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، ويؤثرهم بالفيء، أما علي ـ والكلام ما زال لعمر ـ: " **لله أنت لولا دعابة فيك، أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح، والمحجة البيضاء** " [1]**!** أليس هذا هو الهدف؟ " **الحق الواضح، والمحجة البيضاء** "**!!** ضع هؤلاء الستة أمام من شئت من العقلاء واجعل له الاختيار، فهل سيعدو علياً إذا كان يتحرى الحق.

والثانية، أن وجود علي في هذه الشورى هو وجود شكلي، ربما يكون الهدف منه ذر الرماد في العيون. ويروي الراوندي أن ابن عباس لما اطلع على ترتيب الشورى قال: " **ذهب الأمر منا والرجل يريد أن يكون الأمر لعثمان. فقال علي عليه السلام: أنا أعلم ذلك ولكنني أدخل معهم في الشورى لأن عمر قد استأهلني الآن للإمامة وكان من قبل يقول: ان رسول اللّه ﷺ قال: ان النبوة والإمامة لا يجتمعان في بيت** " [2]، وهذا ما يشير إليه قوله عليه السلام: " **فَصَغَا رَجُلُ مِنْهُمْ لِضِغْنِه، وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِه، مَعَ هَن وَهَن** "، فعبد الرحمن ـ الذي رجَّح عمر جانبه ـ هو زوج أخت عثمان، وسعد ابن عمٍّ لعبد الرحمن وهو يبغض علياً بسبب قتله أخواله من بني أمية، أما طلحة فإنه يبغض علياً لما بين تيم وهاشم في أمر خلافة أبي بكر. فهل ترى لعلي من الأمر شيئاً؟ [3]

الخليفة الثالث:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجَاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ** "[4]

ولعل أمير المؤمنين عليه السلام، في هذه الأسطر، يقدم لنا تفاصيل ومعلومات كثيرة، إذا ما قورنت بمن قام قبل عثمانـ أبي بكر وعمر ـ وأول تلك المعلومات، أن هذا الذي قام هو ثالث القوم، وكأن

(١) المصدر نفسه، وينظر في وصف عمر للستة: تاريخ مدينة دمشق: ٤٤: ٤٣٨ ـ ٤٣٩، وتاريخ المدينة المنورة: ٣: ٨٨٠ وما بعدها.

(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ١: ١٢٨.

(٣) ينظر في تفاصيل الشورى: شرح أبن أبي الحديد: ١: ١٨١ وما بعدها.

(٤) نهج البلاغة: ٨٠.

القوم لا تكتمل قيامتهم إلا بقيام هذا الثالث، ذلك أن أبا بكر وعمر إذا كانا قد " **تشطرا ضرعيها** "[١]، أي أخذ كل منهما شطراً، فإن الذي شرب الشطرين أو الضرعين معاً في خاتمة المطاف هو عثمان، ولعل في هذه الرواية دلالة على ذلك:

" **أحضر أبو بكر عثمان ـ وهو يجود بنفسه ـ فأمره أن يكتب عهداً، وقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد عبد الله بن عثمان إلى المسلمين. أما بعد، ثم أغمي عليه، وكتب عثمان: قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب. وأفاق أبو بكر، فقال: اقرأ فقرأه، فكبر أبو بكر، وسر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي! قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله** "[٢].

إذن فالذي شد بيعة أبي بكر هو عمر، والذي استخلف عمرَ هو أبو بكر وعثمان، ولكن هل استخلف عمرُ عثمان؟ لا شك أنه لم يستخلفه بوصية كما فعل أبو بكر. ولكن هل ثمة فرق كبير؟ إن ترتيب الشورى بين هؤلاء الستة وبالكيفية التي رجّحت الجماعة التي فيها ابن عوف مفضٍ حتماً إلى خلافة عثمان، وهذا ما عرفه علي عليه السلام وابن عباس. والسؤال هنا: هل كان عمر يرى أن عثمان جدير بالخلافة؟ هل كان يراه أهلاً لقيادة الأمة الإسلامية؟

يروي ابن أبي الحديد أن عمر قال لعثمان: " **هيها إليك! كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً. والله لئن فعلوا لتفعلن، ولئن فعلت ليفعلن. ثم أخذ بناصيته، فقال: فإذا كان ذلك فاذكر قولي، فإنه كائن** "[٣].

وهذه الرواية غريبة حقاً، فإذا كان لعمر مثل هذه الفراسة، فلاشك أنه يستطيع أن يقدّر ما سيفتحه قتل عثمان على الأمة من المصائب والفتن. وعمر متأكد مما يقول: " **والله لئن فعلوا لتفعلن، ولئن فعلت ليفعلن. ثم أخذ بناصيته، فقال: فإذا كان ذلك فاذكر قولي، فإنه كائن** "، إذا كان الأمر

(١) المصدر نفسه: ٧٨.

(٢) شرح ابن أبي الحديد: ١: ١٦٥، وينظر: كنز العمال: ٥: ٢٦٩، والطبقات الكبرى: ٣: ٢٠٠، وتاريخ مدينة دمشق: ٣٠: ٤١١.

(٣) شرح ابن أبي الحديد: ١: ١٨٣. وينظر في مثلها: الإيضاح: ١٦٥، والاستيعاب: ٣: ١١١٩

كذلك فكيف يسمح له بالدخول في الشورى أصلاً، ولا شك أنه كان يعلم أن الشورى ستفضي إليه بهذه التركيبة العجيبة.

نحن نعلم من سيرة عمر أنه كان شديدا على عماله، حتى أنه كان " **إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من المسلمين ألا يركب برذوناً ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول اللهم اشهد** " (١)، وقد كان يقول: " **أيما عامل من عمالي ظلم أحداً ثم بلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا الذي ظلمته** " (٢)، بل قد بلغ من حيطته على المسلمين أنه نفى نصر بن الحجاج من المدينة إلى البصرة بعد أن جزَّ شعره، لا لأنه فعل شيئاً يستحق عقوبة، بل لأنه كان جميلاً إلى الحد الذي جعل امرأة من المسلمين تتغنى به في خدرها(٣). فلماذا لم يحاول عمر أن يحول دون خلافة عثمان؟ بل لماذا جعله أحد الستة أصلاً؟ هل يكمن الأمر في أن عثمان كان ثالث القوم ... ومن هم هؤلاء القوم؟

لا يريد هذا البحث أن يتخذ من منطق المؤامرة مرجعية فكرية، ولكن للأحداث في سيرورتها وتتابعها منطقاً، وقد لا يبوح هذا المنطق بأسراره إلا بعد جهد وأحياناً مغامرة. نعم لقد تشكى أمير المؤمنين عليه السلام من عمر وأبي بكر، ولكنه تشكى من قريش ومن " **تركاضهم في الضلال** "، كما سيأتي، أكثر، ولعل المقصود بـ " **القوم** " هنا ليس أشخاصاً بعينهم، بقدر ما ينطبق على مجموعة من المسلمين، قلوا أو كثروا، ينتمون إلى مرجعيات واحدة ترفض إمامة علي بن أبي طالب، وتريد خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وترضى بها.

ولعل معاوية يلقي شيئاً من الضوء على هذا الأمر، إذ يقول في كتابه إلى محمد بن أبي بكر: " **وقد كنا وأبوك معنا في حياة من نبينا صلى الله عليه وآله نرى حق ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله مبرزاً علينا، فلما اختار الله لنبيه صلى الله عليه وآله ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته وأفلج حجته. قبضه الله إليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه وخالفه. على ذلك اتفقا واتسقا، ثم دعواه إلى أنفسهم فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما، فهما به الهموم، وأرادا به العظيم، فبايع وسلم لهما، لا يُشركانه في أمرهما، ولا يُطلعانه على سرهما، حتى قبضا وانقضى أمرهما. ثم قام بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان، يهتدي بهديهما، ويسير بسيرتهما، فعبته أنت وصاحبك... فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك**

(١) شرح ابن أبي الحديد: ١٢: ٢٠.

(٢) نفسه: ١٢: ٢١.

(٣) ينظر: طبقات الشافعية الكبرى: ١: ٢٨٠ وما بعدها.

أوّلُه، وإن يكُ جوراً فأبوك أسّسه. ونحن شركاؤه، وبهديه أخذنا، وبفعله اقتدينا. ولولا ما سبقنا إليه أبوك ما خالفنا ابن أبي طالب وأسلمنا له، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك فاحتذينا بمثاله، واقتدينا بفعاله. فعب أباك ما بدا لك أو دع، والسلام على من أناب، ورجع عن غوايته وتاب." (١)

مرة أخرى، فهذه وقائع يحكيها التاريخ، ولكنها تحتاج إلى القارئ الذي يربط بينها، ذلك أن الظواهر تأتي منفصلة عن بعضها، ووظيفة القارئ أن يعيد ترتيبها، وإن كان بعض الدارسين قد يرى أن التاريخ، بناء على ذلك الفعل الترتيبي، هو حكاية مفبركة لا وجود لها في الواقع، وكذلك هي الهوية والايديولوجيا (٢)، وإذا كان ثمة وجود لهذه الحكاية ـ الهوية ـ الإيديولوجيا ـ ففي ذهن المؤرخ الذي رواها فحسب.

والحال أن النص التاريخي الذي يكتبه أو يحلله مؤرخ ما " **يشير إلى واقع موضوعي خارجي، بتوسط الصورة الذهنية، التي هي صورة طبق الأصل، فإن تم التلاعب بها، فهذا لا يعني عدم وجود واقع موضوعي خارجي، بقدر ما يعني أننا دخلنا منطقة جديدة اسمها الكذب، وهو يختلف عن (الكذب) الأدبي ـ أو المجاز ـ في كونه كذباً حقيقياً يحاسب عليه المرء ويعاقب** " (٣). إذن فالواقعة التاريخية ليست ادعاءً، ولكنها يمكن أن تكون كذلك، وبين الواقع والادعاء، يتكشف القارئ الحصيف بقدرته على كشف الزيف، واستخراج الحقيقي من بين فرث ودم.

وبالعودة إلى حديث أمير المؤمنين عليه السلام: " **إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجَاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ...** "، فإن هذا الثالث لم يقم وحده، بل " **قَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ...** " وهو تشبيه يبين كيف أكل بنو أمية أموال الله، فـ" **القضم يقابل الخضم، والأوّل أكل الشيء اليابس بأطراف الأسنان، والثاني الأكل بالفم كلَّه للأشياء الرّطبة... وفي حديث أبي ذر: يخضمون ونقضم، والموعد الله** " (٤).

---

(١) وقعة صفين: ١٢٠ ـ ١٢١، وينظر: جمل من أنساب الأشراف: ٢: ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) يقول الروائي العراقي علي بدر: الهوية، مفهوم سردي ومخترع ومفارق وسيروري ومؤجل وتاريخي وخيالي ومراوغ ومخادع.. ذلك أن مفهوم الهوية حكاية تلفق أو تفبرك أو تسرد ". ينظر: اختراع الهويات وفبركة التاريخ (مقال) علي بدر، مجلة مسارات، العدد١ـ السنة٣، ربيع ٢٠٠٧، ص١٤ـ ١٨.

(٣) النص والمرجعية، قراءة في فهم النص: ٥.

(٤) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ٩: ٣٧٣

وهنا نستعين بابن أبي الحديد المعتزلي، ليوضح لنا كيف فعل عثمان وبنو أمية ذلك، قال: " **وصحت فيه فراسة عمر، فإنه أوطأ بني أمية رقاب الناس، وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع، وافتتحت أفريقية في أيامه، فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان... وأعاد الحكم بن أبي العاص، بعد أن كان رسول الله ﷺ قد سيره ثم لم يرده أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم. وتصدق رسول الله ﷺ بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهموز على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم. وأقطع مروان فدك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها ﷺ، تارة بالميراث، وتارة بالنحلة فدفعت عنها. وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية. وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقية بالمغرب ـ وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة ـ من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين. وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوجه ابنته أم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمي! قال: لا، ولكن أبكي لأني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضا عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ. والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً، فقال: ألق المفاتيح يا ابن أرقم، فإنا سنجد غيرك** " (١).

نعم لقد حصد بنو أمية ما حصدوا، ولكن هذا الحصاد، لا بد أن يصاحبه تضحيات، وقد كان عثمان هو الضحية، حيث " **انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ** ". فالإمام يصرح بأن عمل عثمان هو الذي قتله، ولكن بأيدي المسلمين الذين ثاروا عليه، وإن كان أمير المؤمنين ينتقد هذا الفعل الذي جر على المسلمين الويلات، وكان من الممكن أن يعزلوا الخليفة بطريقة سلمية، ثم يتركوا للأمة أن تختار، وقد لخص أمير المؤمنين عليه السلام حال الإثنين بكلمات بليغات " **اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الجَزَعَ، وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي المُسْتَأْثِرِ وَالجَازِعِ** " (٢). وبسبب من هذا التصرف الأهوج من الثوار، فإن الثورة لم تحقق أهدافها، نعم هي نجحت في إرجاع الحق ـ الخلافة ـ إلى أهله، ولكنها لم تستطع أن تستوعب نتائج قتل عثمان، وكيف سيُستغل قميصه للإطاحة بالثورة عينها.

(١) شرح ابن أبي الحديد: ١: ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) نهج البلاغة: ١٢٧.

نعم ثمة مؤسسة تعمل في الخفاء، استطاعت أن تقلب المعادلة رأساً على عقب. فبعد أن استطاع الثوار ـ وهذا لا يعني المصادقة على قتلهم الخليفة ـ أن يقفوا بوجه الأرستقراطية القرشية الجديدة، استطاعت هذه المؤسسة (القرشية) أن تقلب المجن وتعيد الأمور إلى نصابها، بل إلى أسوأ مما كان الأمر عليه. فأصبحت الخلافة وراثة علنية تتلاقفها صبية بني أمية، بعد أن كانت تتناقل بين قريش كلها.

هذه المؤسسة استطاعت أن تظهر أيام عثمان بطريقة فاحشة، لم يستطع الناس تقبلها، ولعل السبب في ذلك ضعف عثمان، وقلة هيبته بين المسلمين، فقد ولّى عمر المغيرة بن شعبة ومعاوية بن أبي سفيان ولم يستطع أحد من المسلمين أن يطعن عليه، ولكن شتان بين عمر وعثمان الذي قال: " **والله لقد عبتم عليَّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم، ولنتُ لكم وأوطأتكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليَّ. أما والله لأنا أقرب ناصراً، وأعز نفراً وأكثر عدداً وأحرى إن قلت هلم أن يجاب صوتي** "(١). نعم بلغ الأمر بعثمان ـ وهو خليفة المسلمين ـ أن يُكاثر المُنكِرين عليه بعشيرته، وأن يتوعدهم بقومه. وهذا منتهى الضعف الذي لا يغتفر لخليفة المسلمين، ممزوجاً بروح العصبية التي حاربها الإسلام، فيما حارب من نقائص الجاهلية، ولكن لم يكن لعثمان من دينه أو حكمته أو قوته ما ينتصر به لنفسه ممن عابوه غير هذا. وقد غره قومه وفعلوا الأفعال باسمه. يقول ابن أبي الحديد: " **كان عثمان مستضعفاً في نفسه رخواً قليل الحزم واهي العقدة وسلم عنانه إلى مروان يصرفه كيف شاء. الخلافة له في المعنى ولعثمان في الاسم** "(٢)، وقد حذره أمير المؤمنين من مروان حين استسفره الناس إليه: " **فَلاَ تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلاَلَ السِّنِّ وَتَقَضِّي الْعُمُرِ** "(٣)، ولكن " **لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرِ أَمْرٌ** " (٤).

(١) شرح ابن أبي الحديد: ٩: ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه: ٩: ٢٢.

(٣) نهج البلاغة: ٣٩٥.

(٤) نفسه: ١٤٠، وهذا مثل أصله: " لا يطاع لقصير أمر " ينظر: جمهرة الأمثال: ١: ٢٣٤.

المبحث الثاني: المعارضون:

إن الأحداث والمواقف التي عاشها الإمام عليه السلام أيام خلافته، تمتلك من الأهمية ما يؤهلها لأن تكون محط اهتمام الكثير من الدراسات التاريخية والاجتماعية والعقيدية، لا سيما وأن منها ما لم يسبق له مثيل في تاريخ الدولة الإسلامية الفتية. إلا أن أكثر الدراسات التي تناولتها تكاد تجمع على مشترك واحد مهم، ألقى بظلاله عليها جميعاً، وهو أنها جميعاً حاولت أن تحافظ على عدالة الجميع وإسلامية الجميع وسعي الجميع لما يرون فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، بعيداً عن المطامع والمطامح الشخصية، فما الخلافات التي حصلت ـ في نظر هذه الدراسات ـ إلا تفاوت في وجهات النظر أو اختلاف في الاجتهادات ضمن الإطار العام للشريعة الإسلامية. وهي فرضية لا تكاد تصمد أمام النقد العلمي المجرد.

والبحث هنا لا يريد أن يكفِّر أحداً، ولا يريد أن يخرج أحداً من الإسلام، بقدر ما يريد أن يحتكم إلى ما بين يديه من النصوص، ليتبين من خلالها الصورة التي ترسمها للآخر، والمرجعيات التي تنطلق منها في رسمها لهذا الآخر:

أصحاب الجمل:

ما الذي دفع أصحاب الجمل إلى نكث بيعتهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام، وما الذي حدا بإحدى أمهات المؤمنين أن تعلن الثورة على الخليفة، وتقود جيشاً جراراً، يُقتل فيه المسلمون عن يمينها وشمالها، مغامِرةً بالكثير مما أوجبه الله تعالى لها وعليها، حتى بعد أن عرفت أن الكلاب التي نبحتها هي كلاب الحوأب التي حذرها منها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم [1]، وحتى بعد أن انسحب الزبير من المعركة بعد حواره مع أمير المؤمنين عليه السلام. أكانوا قد اجتهدوا فأخطأوا، أم هي أضغان قديمة غلت في قلوب بعضهم، أم " **حَلِيَتَ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا** " [2]، أم أنَّ " **الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ الجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ البِاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ**" [3].

(١) ينظر: تاريخ الرسل والملوك: ٣: ٤٧٥.

(٢) نهج البلاغة: ٨١.

(٣) نفسه: ١٠٨.

لا شك أن الذي دفعهم جميعاً ليس ما ادَّعوه من الطلب بدم عثمان، فكتب التاريخ تذكر أن هؤلاء الثلاثة هم الذين ألّبوا الناس على عثمان حتى قتلوه وليس علياً عليه السلام. فقد كانت أم المؤمنين عائشة " **تحرض عليه جهدها وطاقتها، وتقول أيها الناس هذا قميص رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبلَ وقد بليت سنته. اقتلوا نعثلاً، قتل الله نعثلا** ً" [١]، وفي رواية أخرى: " **اقتلوا نعثلاً؛ فقد كفر**"[٢]، وروى الطبري حديثاً دار بين مروان ابن الحكم وأم المؤمنين عائشة، إذ قال لها مروان والحديث يتعلق بعثمان: " **يا أم المؤمنين لو قمت فأصلحت بين هذا الرجل وبين الناس، قالت: قد فرغت من جهازي وأنا أريد الحج، قال: فيدفع إليك بكل درهم أنفقته درهمين، قالت: لعلك ترى أني في شك من صاحبك، أما والله لوددت أنه مقطع في غرارة من غرائري وإني أطيق حمله فأطرحه في البحر** "[٣].

أما طلحة فقد كان من أشد المحرضين على عثمان حتى أن عثمان قال يوماً " **اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله؛ فإنه حمل علي هؤلاء وألَّبهم، والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً، وأن يسفك دمه. إنه انتهك مني ما لا يحلُّ له** " [٤]، وقد نقل ابن أبي الحديد عن محمد بن سليمان قوله: " **وكان أعظم الأسباب في قتله طلحة... فما زال يفتل في الذروة والغارب في أمر عثمان وينكر له القلوب ويكدر عليه النفوس ويغري أهل المدينة والأعراب وأهل الأمصار به وساعده الزبير وكان أيضا يرجو الأمر لنفسه** " [٥]. إلى جانب هذا تذكر كتب التاريخ أن علياً عليه السلام هو الذي فك حصار الماء عن عثمان، وهو الذي فرق الناس عن طلحة حينما كان يؤلبهم عليه، حتى بقي طلحة وحيداً، فدخل على عثمان معتذراً، فقال له عثمان: " **والله ما جئت تائباً، ولكن مغلوباً، فالله حسيبك يا طلحة** " [٦].

ولم يكن الزبير بأقل من صاحبيه نقمة على عثمان ولا تأليباً للناس عليه، وهذا ما تؤكده نصوص النهج: ففي كتاب إلى أهل الكوفة يلخص فيه الإمام عليه السلام أمر عثمان وأصحاب الجمل تلخيصاً رائعاً يقول: " **إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَه، وَأُقِلُّ عِتَابَهُ،**

(١) المحصول: ٤: ٤٩٢، وينظر: شرح الأخبار: ٣٤١.
(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٣: ١٢، الكامل في التاريخ: ٣: ١٠٠، الفتنة ووقعة الجمل: ١: ١١٥.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢: ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٤) تاريخ الرسل والملوك: ٢: ٦٦٨ـ ٦٦٩، وينظر الكامل في التاريخ: ٣: ٦٤.
(٥) شرح ابن أبي الحديد: ٩: ٢٤.
(٦) الكامل في التاريخ: ٣: ٥٧ ـ ٥٨، وينظر: تاريخ ابن خلدون: ٢: ٥٩٨، وتاريخ الرسل والملوك: ٢: ٦٩٨.

وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنَ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ، وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَب، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلاَ مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ" (١).

فالمطالبة بدم عثمان إذن ليست الدافع لهؤلاء الثلاثة، ولا يمكن أن يكون الدافع عدم ثقتهم بأهلية الإمام لقيادة الدولة الإسلامية، فهم جميعاً يعرفونه أكثر مما يعرفه غيرهم، كما لا يمكن أن يكون تمردهم وثورتهم على الإمام اعتراضاً على الآلية التي نُصِّب بها الإمام عليه السلام؛ فهم جميعاً لم يعترضوا على الآلية التي نّصب بها السابقون، ولا شك أن المفاضلة في هذا المجال ستكون لصالح عليّ عليه السلام.

لا يريد الباحث هنا أن ينتهي إلى حقائق معينة من خلال وقائع تاريخية، فليس ذلك من اهتماماته، ولكنه يحاول أن يلقي بين يدي نصوص النهج ما يلقي الضوء على دلالاتها ومرجعياتها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **وَأَمَّا فُلاَنَةُ، فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلاَ فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللهِ**" (٢)، ويبدو أن هذا الضغن قد بلغ بأم المؤمنين إلى الحد الذي لم تستطع معه أن تذكر أمير المؤمنين بخير أو تطيب نفساً له بخير(٣)، ولو كانت الخلافة قد آلت بعد مقتل عثمان إلى غير علي عليه السلام لم يكن منها ما كان، ففي بعض الأخبار أن عائشة لما قضت حجها " **انصرفت راجعة فلما صارت في بعض الطريق لقيها ابن أم كلاب فقالت له: ما فعل عثمان، قال: قتل، قالت: بعداً وسحقاً، قالت: فمن بايع الناس، قال: طلحة، قالت: أيها ذو الاصبع** " (٤).

وفي أنساب الأشراف أنه بلغ عائشة أن الناس بايعوا طلحة بعد مقتل عثمان " **فقالت: إيه ذا الإصبع لله أنت، لقد وجدوك لها محشاً، وأقبلت جذلة مسرورة حتى إذا انتهت إلى سرف استقبلها عبيد بن مسلمة الليثي الذي يدعى ابن أم كلاب فسألته عن الخبر، قال: قتل الناس عثمان. قالت: نعم ثم صنعوا ماذا؟ قال: خيراً، حارت بهم الأمور إلى خير محار، بايعوا ابن عم نبيهم علياً. فقالت:**

(١) نهج البلاغة: ٥٧٧.

(٢) نفسه: ٣٧١.

(٣) ينظر: تاريخ الرسل والملوك: ٢: ٢٢٦، وفتح الباري: ٢: ١٥٦، وعمدة القاري: ٥: ١٩٢.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢: ١٨٠.

أو فعلوها؟ وددت أن هذه أطبقت على هذه إن تمت الأمور لصاحبك الذي ذكرت، فقال لها: ولم؟ والله ما أرى اليوم في الأرض مثله فلم تكرهين سلطانه؟ فلم ترجع إليه جواباً " (١).

أما طلحة والزبير فقد كانا من الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب للخلافة، وبذلك استحقَّا ـ عند أنفسهما، وعند بعض المسلمين ـ منصب الخلافة، ولم يكونا ليظنا أن الأمر سينصرف عنهم إلى علي عليه السلام، لأن الخلافة كانت قد دُفِعت عنه عليه السلام ثلاث مرات من قبلُ، حتى اعتاد الناس أن يكون علي في جانب والخلافة في جانب آخر، فلما آلت الأمور إلى غير ما يريدان أرادا أن يكونا شريكين للخليفة الجديد، فقالا له: " **نبايعك على أَنّا شركاؤُكَ في هذا الأمر. فقال: لاَ، وَلكِنَّكُمَا شَرِيكَانِ فِي الْقُوَّةَ وَالاسْتَعَانَةِ، وَعَوْنَانِ عَلَى الْعَجْزِ وَالأَوَدِ**" (٢). وبهذا خسرا كل شيء كانا يطمحان إليه، ولذلك " **فتقا ذلك الفتق العظيم على علي وأخرجا أم المؤمنين معهما وقصدا العراق وأثارا الفتنة** " (٣).

فالطمع إذن هو الذي كان يحدو ركبهما، وقد اعتادا حياة الرفاهية أيام عمر وعثمان، وكانا يعلمان أنها رفاهية لن تدوم لهما أيام علي عليه السلام، لأنه سيساوي بينهما وبين غلمانهما، وقد صرّحا بذلك حين سألهما الإمام عمَّا كرهاه من أمره في محاورة طويلة: " **قالا: خلافك عمر بن الخطاب... جعلت حقنا في الإسلام كحق غيرنا** "(٤). ولئن كان الطمع قد جمعهما على الخروج على عليّ عليه السلام فإن الطمع والحسد ليس لهما صاحب ولا صديق، فكان " **كُلُّ وَاحِد مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لاَ يَمُتَّانِ إِلَى اللهِ بِحَبْل، وَلاَ يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَب. كُلُّ واحِد مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيل يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هذَا نَفْسَ هذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هذَا عَلَى هذَا، قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ؟!**"(٥). أضف إلى ذلك أنهما ـ لا سيما طلحة ـ قد أصحرا بالعداء لعثمان والإغراء به، فلما يئسا من الخلافة والولاية، وعادا فردين من أفراد المسلمين، ليس لهما ما يدفعان به عن نفسيهما تهمة قتل عثمان أو التحريض عليه، حاولا أن يضللا الناس بادعاء المطالبة بدم الخليفة المقتول، وهذا ما لم يخف على أمير المؤمنين عليه السلام لذلك

(١) أنساب الأشراف:٣: ٩٤٤.

(٢) نهج البلاغة: ٧٥٧ ـ ٧٥٨، وينظر: الإمامة والسياسة: ١: ٧٠ ـ ٧١.

(٣) شرح ابن أبي الحديد: ٩: ٢٤.

(٤) المعيار والموازنة: ١١٣.

(٥) نهج البلاغة: ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

قال في طلحة: " **وَاللهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمانَ إِلاَّ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَومِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ الأَمْرُ وَيَقَعَ الشَّكُّ**" (١).

فبين الضغن والطمع والحرص على مكتسبات دنيوية، أوجدها أساساً حكمٌ وضعه عمر بن الخطاب في تفضيل بعض المسلمين على بعض في العطاء وغيره، وهو حكم مخالف لكتاب الله وسيرة رسوله، بين هذه وتلك لعبت الأهواء لعبتها في شق عصا المسلمين، وفتحت أبواب الفتنة على مصاريعها، و" **إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتابُ اللهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً، عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ**" (٢)، وهذا لا يعني أن هذه الأحكام المبتدعة صريحة في مخالفتها لكتاب الله، فهذه الطريقة لم تعد مجدية منذ أن ظهر الإسلام على خصومه، ولم تعد قادرة على المرور، ولهذا اتخذت لنفسها شكلاً جديداً وجميلاً، يستطيع أن ينتهك الإسلام باسم الإسلام، وهكذا تحولت العصبية الجاهلية التي حاربها الإسلام إلى عصبية تعتمد الإسلام مبدءاً للاستعلاء، حيث أصبح المسلم مفضلاً على المسلم لهجرة أو سابقة أو غير ذلك مما لم يكن أيام الرسول ﷺ، وتطور الأمر حتى أصبح نفي أبي ذر حفظاً للإسلام! في أعين البعض وهدراً للإسلام وللمسلم في أعين البعض الآخر، وكل حزب بما لديهم فرحون، وما ذاك إلا لأن الباطل أُلبِس لباس الحق" **فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ البَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، وَلكِن يُؤْخَذُ مِنْ هذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هذَا ضِغْثٌ، فَيُمْزَجَانِ! فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ**" (٣).

وهكذا أصبح أصحاب رسول الله ﷺ يقتل بعضُهم بعضاً؛ وكلٌ منهم يرى ـ أو يدَّعي ـ أن في قتل صاحبه مرضاةً لله. إلا أن " **لِكُلِّ ضَلَّة عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِث شُبْهَةٌ** " (٤)، على أن الشبهة هنا لا تعني الاشتباه والخطأ البريء، وإنما تعني التضليل المتعمَّد بإلباس الباطل ملبس الحق ليخفى على

(١) المصدر نفسه: ٤١٨.

(٢) نفسه: ١٥٦.

(٣) نفسه: ١٥٦.

(٤) نفسه: ٣٥٣.

السُذَّج من الناس، " **وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى، وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمْ الضَّلالُ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى**"(١).

وهذه سنة الله تعالى وطريقته في غربلة الناس" **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**" (٢)، " **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** "(٣).

ولعلَّ من اللافت أن يربط أمير المؤمنين عليه السلام بين حروب قريش له وبين حربهم لرسول الله صلى الله عليه وآله: " **فَدَعْ عَنْكَ قُرَيشاً وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ، وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ، وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله قَبْلِي**"(٤)، ولعلّ هذا تذكير بقول رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام في أكثر من موضع: " **حربك حربي، وسلمك سلمي** " (٥). وكيف لا تكون الحرب حرب رسول الله، والسلم سلمه، وعليّ عليه السلام هو رافع راية الإسلام، والذاب عنها، والمضحي بالغالي والنفيس في سبيلها.

ولعل ثمة من يقول: إن هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد جاء في كتب الحديث: " **من سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** " (٦). والبحث هنا لن يناقش سند الحديث فهذا ليس من اختصاصه، وهو على كل حال حديث مشهور في كتب الأحاديث، ولكن هذا الحديث يعني أن لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ستكون حالّة ـ لا محالة ـ على معاوية وكثير من الصحابة الذين تابعوه على لعن أبي تراب على رؤوس الأشهاد وعلى منابر المسلمين، وبهذا يُدخل الحديثُ نفسَه في الدور الفلسفي، فهو يلعن الصحابة لأنهم يلعنون الصحابة. إلا إذا قال قائل إن أبا تراب هذا ليس من الصحابة. هذا إذا تجاوزنا لعن الرسول نفسِه لمن كذب عليه مثلاً، ولا شك أن بعضهم ممن صحب الرسول صلى الله عليه وآله.

---

(١) المصدر نفسه: ١٤٤.

(٢) سورة العنكبوت: الآيتان: ٢، ٣.

(٣) سورة آل عمران: آية: ٧.

(٤) نهج البلاغة: ٦٣٧.

(٥) مناقب الإمام أمير المؤمنين للكوفي:٢٥٠، شرح الأخبار: ١: ٢١٦، مناقب ابن شهر آشوب: ٣: ١٨،شرح ابن أبي الحديد: ٢: ٢٣٣.

(٦) المعجم الكبير: ١٢ : ١٤٢.

الخوارج:

لعل أول ما يثير الاستفهام في قضية الخوارج هو قول أمير المؤمنين عليه السلام: " **لاَ تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ** "(١)، فثمةَ الكثير من التساؤلات هنا: لماذا ينهى عليه السلام عن قتلهم بعده، وقد قاتلهم هو وقتلهم؟ وما هو الحق الذي طلبوه؟ وكيف ولماذا أخطأوه؟ وإذا كانوا طلاب حق فلماذا يصف الإمام عليه السلام شعارهم بأنه: " **كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ** "(٢)؟ ومن الذي أراد الباطل إذا كانوا هم قد طلبوا الحق؟!

والبحث هنا لن يجيب عن هذه الأسئلة بشكل مباشر، بل سيترك للإجابات ـ أو بعضها في الاقل ـ أن تعلن عن نفسها أثناء مسار البحث، إلا أن المهم أن لا تُؤخذ هذه الكلمة مجردةً عما يجاورها من أقوال وأحداث ومواقف. لأن الكلمة ـ أي كلمة ـ وليدة سياقها، واقتطاعُها من هذا السياق قد يشوه دلالاتها ويبعدها عن مراميها. وإلّا فإن كون الخوارج طلاب حق يعني أن علياً عليه السلام على باطل، وهذا ما لم يقل به أحد من أعدائه عليه السلام فضلاً عن أنصاره. وربما يكون هذا الاجتزاء، مضافاً إليه تلك الشعارات العريضة التي رفعها الخوارج، والملابسات التي أحاطت بتاريخهم ومواقفهم، واستماتتهم في الدفاع عن معتقداتهم، هو الذي دفع بأحد الباحثين(٣) أن يوحي بالتشابه بين ثورة الصعاليك على القيم الجاهلية الفاسدة، وبين ثورة الخوارج على علي بن أبي طالب عليه السلام؛ فكلاهما ـ برأيه ـ تمرَّدَ على واقع لم يستطع قبوله، وأعلن مبادئه التي يؤمن بها رغم فداحة الثمن الذي يكلفه هذا الإعلان.

بل إن الدكتور عبد الرحمن بدوي يصرح بأن خروجهم كان عن " **نزعة ديمقراطية أصيلة، ديمقراطية دينية، إن صح هذا التعبير، ثاروا بها على النزعة الأرستقراطية التي أراد أهل قريش فرضها في اختيار الخليفة**"(٤)، ولكن إذا كان الحديث عن الديمقراطية، أليس المفروض بالخوارج أن يقبلوا حكم الحكمين، لا سيما أنهم هم الذين فرضوا التحكيم وفرضوا أحد الحكمين بالقوة لا بالديمقراطية؟ ثم أين هي النزعة الارستقراطية التي فرضت أمير المؤمنين؟ يبدو أن الدكتور بدوي لا

(١) نهج البلاغة: ١٦٦.

(٢) نفسه: ١٤٦.

(٣) ينظر: قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم: ٢١ . ٢٢.

(٤) مقدمة كتاب " أحزاب المعارضة الدينية السياسية في صدر الإسلام الخوارج والشيعة ": ز.

يقرأ ـ ومن ثمة فهو لا يعلم ـ أن الجماهير هي التي اختارت علياً عليه السلام، وليس ما يسميه هو بالنزعة الارستقراطية القرشية!.

والحق أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن ينظر إلى الخوارج أو غيرهم بالمعايير المادية التي تنظر إلى الفعل وما نتج عنه، وإن كان لهذه المعايير أهميتها في كثير من الأحيان، إلا أن كلمة أمير المؤمنين هنا ناظرة إلى الدوافع التي أسست لهذه الأفعال.

ولعل من المعلوم أن الخوارج لم يكونوا في حربهم لعلي عليه السلام ونقضهم للبيعة وخروجهم عن طاعة إمامهم، لم يكونوا، في ذلك كله، طالبين للدنيا التي طلبها معاوية وأمثاله، سرّاً أو جهراً *، بل إن حربهم كانت نتيجة لتمثلهم الخاص للإسلام (١). وقد يبالغ بعضهم فيدّعي أن خروجهم وتمردهم كان انتصاراً للدين(٢)، وقد قادهم هذا التمثل بدايةً ـ أي قبل أن يصبحوا خوارج ـ إلى حرب معاوية تحت راية الإمام عليه السلام لأنهم رأوا في سلوكه ـ معاوية ـ خروجاً عن الدين القويم، إلا أن عدم وضوح الرؤية لديهم ـ وهي سمة تكاد تكون سائدة زمن الإمام عليه السلام ـ هو الذي قادهم أخيراً إلى حرب إمامهم الذي كانوا يحاربون معه ودونه، لذلك فإن ما يمكن أن يقال في حقهم هو أنهم الأحمق الذي: " **يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ** " (٣).

نعم إنهم حمقى، لأنهم رضوا لأنفسهم ما كانوا أنكروه على معاوية، بل حاربوه عليه أيضاً، وهو الخروج عن طاعة الإمام أو الخليفة حسب مفاهيمهم " **وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ فَأَنْكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فذَاك الأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ** "(٤). والحمق داء لا دواء له، لهذا فقد أراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يستأصلهم، ولكن المشكلة أنهم نطف في أصلاب الرجال. وهذا يعني أن القتل ليس حلاً دائماً، لهذا فقد نهى أمير المؤمنين عن قتلهم بعده، معللاً ذلك أنهم طلبوا الحق فأخطأوه، وهذا يعني أن نطفهم يمكن أن تصيب الحق الذي طلبه الآباء فأخطأوه، ونحن نتحدث، هنا، عن عالم الإمكان، حتى لا يقال أن هذا الكلام يتعارض مع قوله عليه السلام: "... **كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ**

---

* جاء في سير أعلام النبلاء:٣: ١٤٧ أن معاوية قال يوماً: " **ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا أو تزكوا قد عرفت أنكم تفعلون ذلك ولكن إنما قاتلناكم لأتأمر عليكم** ".

(١) ينظر: الإمام علي القوة والمثال: ٢٨.

(٢) ينظر: قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم: ٢٥.

(٣) نهج البلاغة: ٧٢١.

(٤) نفسه: ٧٨٩.

لُصُوصاً سَلاَّبِينَ " [١]. إن نطفهم يمكن أن تصيب الحق، لأنها ستكون بعيدة نسبياً عن أسباب الصراع الذي كان، وبمقدورها أن تتخذ قراراً آخر. نعم إن نسق الجماعة أو عقل الطائفة هو الذي سيسيطر على الأجيال الجديدة، من وجهة نظر النقد الثقافي، وفي ذلك تأكيد لرؤية أمير المؤمنين لنطفهم، ما يعني أن الثقافة " **هي التي تتكلم، ولكنها لا تستطيع أن تعبر عن نفسها إلا من خلالهم**" [٢]، ذلك أن هذا النسق سيكون أكبر من عقل الأفراد بسبب من رسوخه وثباته وحركته غير المرئية في جسد الجماعة، وانتقاله بين أجيالها من حيث لا يشعرون، فالثقافة " **ليست هي العادات والتقاليد والأعراف... بل هي آليات الهيمنة من خطط وقوانين وتعليمات... ومهمتها هي التحكم في السلوك، والإنسان هو الحيوان الأكثر اعتماداً على هذه البرامج التحكمية غير الطبيعية... ومن أبلغ الحقائق عنا أن الواحد منا يبدأ حياته متطلعاً لأن يعيش ألف نوع من الحيوات، ولكنه لا يحصل في النهاية إلا على حياة واحدة** "[٣]، ولكن كل هذا لا يعني أن تحكم هذه الأنساق في الأجيال القادمة سيكون قطعياً وملزماً للجميع.

ولعل من اليسير ـ على ضوء ما تقدم ـ أن نلتمس لهؤلاء الخوارج شيئاً من العذر، يخرجهم عن الدائرة التي سقط فيها غيرهم ممن طلب الدنيا، أو ممن كان نفاقه وعداؤه للإسلام هو الذي يوجه تحركاته. فالتاريخ يخبرنا أن زهيراً بن حرقوص ـ وهو أحد الخوارج ـ برز للإمام عليه السلام يوم النهروان وقال له " **يا بن أبى طالب والله لا نريد بقتالك إلا وجه الله والدار الآخرة** " [٤]، وإن كان زهير هذا صادقاً فيما يقول فالقوم إذاً يجاهدون في سبيل قضية دينية آمنوا بها وبذلوا نفوسهم دونها، وقد قال رسول الله: " **إنما الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى...**" [٥].

إلا أن هذا لا يمكن أن يغير الكثير في ميزان النتائج، فالنتائج الكارثية التي ترتبت على حركة الخوارج لم تكن خطورتها لتقل عن خطورة غيرها من الحركات التي أسسها أصحابها بنيات سيئة، والنيّة وحدها " **لا تحوِّل الشرَّ إلى خير** " [٦]، بل لا بدَّ من أن يكون تحرك المسلم على بصيرة وهدى، ولا يجوز له أن يجتهد في مقابل النص، بمعنى أنَّ المسلم ـ بإسلامه ـ هو إنسان منتمٍ إلى منظومة

(١) المصدر نفسه: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) المؤلف الخفي، علي حسن هذيلي، مجلة المنهج العدد ١٦، السنة٤ – ١٤٣٢هـ

(٣) النقد الثقافي: ٧٤.

(٤) الفرق بين الفرق:٨٠.

(٥) صحيح البخاري: ١: ٣.

(٦) العلاقة مع الآخر في ضوء الأخلاق القرآنية: ١٧٣.

قِيْمية لها قوانينها الخاصة التي لا ترضى لأحد بخرقها أو الخروج عليها، وهو ـ ببيعته للخليفة ـ قد ألزم نفسه بولايته عليه، وأدخلها تحت إلزام قوله تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** " (١).

أما الخوارج فقد أرادوا أن يعبدوا الله بطريقتهم هم، أرادوا أن يعبدوه من حيث أرادوا هم، لا من حيث أراد الله، فأصبحوا " **كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ** " (٢)، وهذه هي المفارقة التي جعلت منهم طلاب حق ضالين، وحمقى أرادوا أن ينفعوا، فألحقوا بالإسلام أكبر ضرر يمكن أن يحلم به أي عدو. لذلك نجد الكثير من النصوص الإسلامية تنهى عن اعتماد الرأي الخاص في كثير من الأمور، على الرغم من حث القرآن الكريم على التفكر والتدبر، لأن الرأي قد يؤدي إلى الاختلاف والتناقض في أمر لا يصح فيه الاختلاف.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ القَضِيَّةُ في حُكْم مِنَ الأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ القَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيها بِخِلافِ قَوْلِهِ... وَإِلـهُهُمْ وَاحِدٌ! وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ! وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ! أَفَأَمَرَهُمُ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ بِالاخْتلاَفِ فَأَطَاعُوهُ! أَمْ نَـهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ! أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِه! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تَامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِه؟ وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: " مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ " (٣) وَفِيهِ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الكِتَابَ يُصَدِّقُ بعضُه بَعْضاً، وَأَنَّهُ لاَ اخْتِلافَ فِيه، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: " وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً"(٤) " (٥).**

إن الله تعالى لم يترك للعباد أن يتخبطوا في ظنونهم واجتهاداتهم، بل دلَّهم على السراط المستقيم: " **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...** " (٦)، لذلك كان جواب أمير المؤمنين عليه السلام لابن حرقوص أنه قال: " **بل مثلكم كما قال الله عز وجل: " قُلْ هَلْ**

(١) سورة النساء: آية: ٥٩.
(٢) نهج البلاغة: ٣٥١.
(٣) سورة الأنعام: آية: ٣٨.
(٤) سورة النساء: آية: ٨٢.
(٥) نهج البلاغة: ١٠٣ . ١٠٤.
(٦) سورة الأنعام: آية: ١٥٣.

نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً "[1]. **منهم أنت وربِّ الكعبة** " [2].

وهي حالة من الجهل المركب، حيث لا يدري الإنسان بأنه ضال، بل يحسب نفسه من أهل العلم واليقين، ومن كانت صفته هذه فإنه يحب الجدل والخصام والشك والسفسطة، لهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام لابن عباس لما بعثه للاحتجاج عليهم" **لاَ تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوه، تَقُولُ وَيَقُولُونَ، وَلكِنْ حاجّهُمْ بالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً** " [3] أي حاججهم بما هو واضح بين، وهو ما تمتاز به سنة الرسول صلى الله عليه وآله، لأنها تقوم بدور الشارح لما غمض من القرآن.

ولأن الخوارج لا يحبون البيان والوضوح ولا يجيدونه، فسيتمسكون بما غمض من القرآن، وبما تشابه، ويحفظونه عن ظهر قلب، لأنه وسيلتهم لتمرير ضلالهم، لهذا علّق أمير المؤمنين على قولهم " **لا حكم إلا لله** " بأنه: " **كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ** " [4]، أما أنها كلمة حق، فلأنها من كلام الله، أما أنها يراد بها باطل، فلأنهم حرّفوها عن معناها عندما طالبوا أن ينزل الله من عليائه ليحكم بين المتخاصمين. إن المشكلة ليست في كون الحكم لله، فهذه قضية مفروغ منها، من وجهة نظر إسلامية، بل المشكلة كيف يحكم الله؟ ما هي الطريقة التي سيحكم بها؟ وهنا لا بد من الاستعانة بالرجال. أما أن هؤلاء الرجال سيخالفون حكم الله، فهذا موضوع آخر، لا علاقة له بأصل الموضوع.

من هنا، فإن معركة أمير المؤمنين مع الخوارج، هي معركة تأويل وليست صراعاً على مكاسب. ذلك أن أهل الجملـ طلحة والزبيرـ طلاب مناصب، لم يكن خلافهم مع الإمام عليه السلام خلافاً قرآنياً، بقدر ما هو خلاف سلطوي، كما أن معاوية وعمرو بن العاص ـ بلغة معاصرة – كانا علمانيين، لا علاقة لهما بالقرآن والسنة، من قريب أو بعيد بل هما من دعاة الجاهلية. أما الخوارج فهم أهل قرآن وصلاة، حتى أن أمير المؤمنين رأى أحدهم يصلي الليل، فقال عليه السلام: " **نَوْمٌ عَلَى يَقِين خَيْرٌ مِنْ صَلاَة فِي شَكّ** " [5]، لهذا كانت المعركة مع هؤلاء أصعب من معركة الجمل وصفين، لأنها في الحقيقة معركتان، معركة بالسيف، ومعركة بتأويل القرآن وقصدياته.

---

(١) سورة الكهف: الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

(٢) الفرق بين الفرق:٨٠.

(٣) نهج البلاغة: ٧٠٩.

(٤) نفسه: ١٤٦.

(٥) نفسه:٧٣٢.

على أن سلامة النيات لا يمكن أن تُحمَّل بأكثر مما تحتمل، وكان عليهم أن يدركوا عدم أهليتهم لقيادة المجتمع وتوجيه الدين بآرائهم عندما تبين لهم خطأ رأيهم في إصرارهم على التحكيم أولاً، ثم في إصرارهم على اختيار الحكم ثانياً، والمؤمن لا يلدغ من جحر (ثلاث مرات)، إلا أن العزة بالإثم والإصرار على الخطأ ـ وهما من أكثر رواسب الجاهلية شيوعا بين المسلمين ـ لعبا دورهما هنا، والشيطان الذي يحسن استغلال المساحات التي يوفرها الإنسان له، أجاد أداء دوره في قيادتهم إلى هاوية الضلال.

لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام وقد مرَّ بقتلاهم: " **بُؤْساً لَكُمْ، لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ. فقيل له: مَن غرّهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: الشَّيْطَانُ الْمُضِلُّ، وَالأَنْفُسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، غَرَّتْهُمْ بالأَمَانِيِّ، وَفَسَحَتْ لَهُمْ فِي المَعَاصِي، وَعَدَتْهُمُ الإِظْهَارَ، فَاقْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ** " [1]، وقال عن جماعة من الكوفة التحقوا بالخوارج: " **إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدِ اسْتَقَلَّهُمْ، وَهُوَ غَداً مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ، وَمُخلٌّ عَنْهُمْ، فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَارْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالَ وَالْعَمَى، وَصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقّ، وَجِمَاحِهِمْ فِي التِيهِ** " [2].

وقد وصفهم ـ قبل ذلك ـ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالضلال حيث قال عنهم: " **يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ** " [3]، وهو وصف عجيب يصف حالَيهم معاً: شدة إقبالهم على الدين بإقبال السهم على الرميَّة، ومروقهم منه كما يمرق السهم دون أن يعلق به شيء.

الأمويون:

يميل بعض الباحثين عند دراسة العلاقة بين علي عليه السلام ومعاوية والحرب التي دارت بينهما إلى ذكر طبيعة العلاقة بين هاشم وأُميّة، وأن علاقة الأبناء هي امتداد لعلاقة الآباء والأجداد، وأنها علاقة ندين يتنافسان على زعامة قريش. والبحث هنا لا يريد أن ينفي هذه العلاقة أو يثبتها، بقدر ما يريد أن ينبّه إلى أن التركيز على هذه الجزئية ـ إن كانت حقيقية ـ وإغفال غيرها يؤدي إلى إفراغ الصراع

(١) المصدر نفسه: ٧٨٥.

(٢) نفسه: ٤٣٣.

(٣) صحيح البخاري: ٣: ١٣٢١، صحيح مسلم: ٢: ٧٤٢.

من محتواه الديني العقيدي وتحويله إلى صراع زعامات جاهلية. وإن كان هو في أحد شقيه جاهلياً، ولا شك.

ولعل في نصوص النهج ما يشير صراحة إلى خلاف ذلك، ففي كتاب للإمام عليه السلام جواباً على كتاب بعثه إليه معاوية أيام صفين يقول: " **وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذلِكَ نَحْنُ، وَلكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمَ، وَلاَ حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلاَ أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَلاَ الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَلاَ الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلاَ الْمُحِقُّ كَالْمُبطِلِ، وَلاَ الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ، وَلَبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ**" (١).

ففي هذا النص ينفي الإمام عليه السلام أن يكون ثمة علاقةٌ نديةٌ أو تنافسيةٌ بين هاشم وأمية، فليس أمية كهاشم ولا أبو سفيان كأبي طالب، وكتب التاريخ توضح هذا الفارق بين الطرفين(٢)، بين التوحيد والشرك... بين الاستقامة والانحراف... بين الفضيلة والرذيلة. فإذا تجاوزنا مسألة " **الصريح واللصيق** " *، فإن الإمام عليه السلام يشير إلى أن الخلاف بين أمية وهاشم ـ كما هو بين علي عليه السلام وبين معاوية ـ هو خلاف في المرجعيات والآيديولوجيات الموجِّهة للسلوك، فعلي عليه السلام مؤمن مهاجر ومعاوية طليق مدغل. وإذا كان الإمام يقارن بين أمية وأبي سفيان من جانب، وبين هاشم وأبي طالب من جانب آخر، فإنما هي مقارنة بين خطين هما خط الكفر وخط الإيمان، وليست مفاخرة قبلية جاهلية، لأن علي بن أبي طالب أبعد ما يكون عن روح الجاهلية، ولم نره يستخدم هذا الأسلوب إلا مع معاوية وأمثاله، والدليل قوله عليه السلام: " **وَلَبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ** ". وهذا ما يشير إليه عليه السلام بشكل أوضح في قوله: " **أما بعد، فإنا كنا نحن وأنتم على ما ذكرت من الألفة والجماعة، فَفَرَّقَ بيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ، وَالْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلاَّ كَرْهاً، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الإِسْلاَمِ كُلُّهُ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم حزباً**"(٣).

---

(١) نهج البلاغة: ٥٩٤.

(٢) ينظر في ذلك من الدراسات المعاصرة مثلاً كتاب: هاشم وعبد شمس.

* ثمة من يقول: إن أميّة كان غلاماً رومياً لعبد شمس أعتقه وتبناه، ينظر بحار الأنوار: ٣١: ٥٤٣، وهاشم وعبد شمس ١٣٣، في حين يرى ابن أبي الحديد أن الإمام " **إنما أراد الصريح بالإسلام واللصيق في الإسلام فالصريح فيه هو من أسلم اعتقاداً وإخلاصاً واللصيق فيه من أسلم تحت السيف أو رغبة في الدنيا**" شرح النهج: ١٥: ٩٠.

(٣) نهج البلاغة:٦٩٥.

إن أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما يتحدث عن " **بني أمية** " في سياق حديثه عن معاوية، وهذا ما لم يحصل مع أحد من خصومه من أصحاب الجمل أو النهروان أو غيرهم، لأن معاوية يختلف عن غيره من الخصوم، والمواجهة بينهما هي مواجهة سافرة بين الجاهلية والإسلام، فبنو أمية أول من حارب الإسلام وآخر من استسلم له... استسلم ولم يُسلم أو يُؤمن " **فوالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ**" (١).

ولعل أولَ إظهارهم للكفر كان يومَ آلت الخلافة إلى عثمان، حيث يُروى أن أبا سفيان دخل عليه وقال: " **قد صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة واجعل أوتادها بني أمية؛ فإنما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار**" (٢)، كما ينقل ابن عساكر قوله: " **اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية** " (٣).

فمعاوية ـ وبنو أمية ـ إذن هم الآخر الحقيقي والمقابل الضد ـ أو النقيض بتعبير جدلي ـ للذات المسلمة، وهو آخر يمثل الشر، والتسافل، والشيطان بكل ما يعنيه من ضلال، وعمى، وغي، وهوى، وجهل، وغدر، وفجور، وجاهلية وما إلى ذلك. إنه يمثل النقيض لكل ما جاء به الإسلام، وأخطر ما فيه، أنه يحارب الإسلام باسم الإسلام، فيصبح العسل المسموم الذي اغتال به مالك بن الحارث النخعي الشهير بالأشتر ـ والي الإمام على مصر ـ جندياً من جنود الله (٤)، وسيصبح بعد ذلك سب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر سُنَّةً من سنن الإسلام الأموي. والأهم من كل ذلك أن الدين أصبح في خدمة السياسة، وأصبح المنبر يسوغ سياسات السلطة الحاكمة، بعد أن كان عيناً عليها، وضرورة من ضرورات تقويمها.

إن أخوف ما يمكن أن يخاف منه على أي ثورة هو العدو الداخلي، لأنه يستطيع أن يستخدم زخم هذه الثورة وطاقتها ليوجهها وجهة معاكسة لكل أهدافها، فالثورات الكبرى ـ لا سيما في بداياتها ـ تمتلك من الزخم والطاقة الفكرية والعاطفية ما يجعلها متحفزة ومستعدة لمواجهة أعدائها الخارجيين والقضاء عليهم، لذلك لا يعدم التاريخ وجود ثورات كثيرة نجحت في تحقيق أهدافها التي قامت من

(١) المصدر نفسه: ٥٩٢ ـ ٥٩٣.
(٢) شرح الأخبار: ٢: ٥٢٨، و الاستيعاب: ٤: ١٦٧٩.
(٣) تاريخ مدينة دمشق: ٢٣: ٤٧١.
(٤) ينظر: نفسه: ٥٦: ٣٨٩.

أجلها، أما الحفاظ على هذه الأهداف من الانحراف فشيء آخر، وهذا ما عانته أغلب ثورات الأنبياء والمصلحين إن لم نقل كلها.

وهذا ما لم يغفله رسول الله، لذلك يروي أمير المؤمنين عليه السلام أنه صلى الله عليه وآله قال: " **إِنِّي لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلاَ مُشْرِكاً، أَمَّا الْمُؤمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ، ولكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مَنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ** " (١)، وبنو أمية ـ لا سيما معاوية ـ ومن تبعهم هم أوضح مصاديق هذا الحديث، فمعاوية عدا " **عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ**" (٢)، والمغيرة بن شعبة " **لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إِلاَّ مَا قَارَبَتْهُ الدُّنْيَا، وَعَلَى عمد لَبَّسَ عَلَى نَفْسِهِ، لِيَجْعَلَ الشُّبُهَاتِ عَاذِراً لِسَقَطَاتِهِ**" (٣)، يريدون " **إِطْفَاءَ نَورِ اللهِ مِنْ مِصْباحِهِ، وَسَدَّ فُوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ** " (٤).

إن منافق الجنان، عالم اللسان، هذا الذي يقول ما يقول به المسلمون ويؤمنون به، ويفعل ما ينكرونه، هذا الذي كان يخافه رسول الله صلى الله عليه وآله ، قد أصبح واقعاً شاخصاً بعد أن كان مفهوماً يشير الرسول إلى بعض مصاديقه بين الحين والحين باللعن مرة، وبالتحذير أُخرى، وبالنبوءة ثالثة، هذا المفهوم الذي حُذِّرَت منه الأُمة، واجهه أمير المؤمنين عليه السلام وجهاً لوجه بأصحاب هم ليسوا كأصحاب رسول الله الذين واجه بهم المشركين من قريش، وفي واقع يختلف عن الواقع الذي عاشه النبي صلى الله عليه وآله ، وبأساليب لم يألفها مشركو قريش قبله، ففعل ذلك المنافق ما فعل وعطَّل وأوَّل. ولأن المعركة أكبر من هذا المنافق، فقد عمل على تجميع المنافقين من كل حدب وصوب، وكون منهم شورى وضيفتها الكيد لهذه الأمة، والسعي للإطاحة بها.

يقول أمير المؤمنين مخاطباً معاوية: " **وَأَرْدَيْتَ جِيلاً مِنَ النَّاسِ كَثِيراً، خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وتَتَلاَطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَجاروا عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ، إِلاَّ مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ، فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ، وَهَرَبُوا إِلَى اللهِ سُبحانَهُ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ.**

(١) نهج البلاغة: ٦٠٧.

(٢) نفسه: ٦٨٥.

(٣) نفسه: ٨٠٣.

(٤) نفسه: ٣٩٠.

فَاتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالْآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ " (١).

والواضح من قوله عليه السلام: " **وجاذب الشيطانَ قيادَك** " أن معاوية كان قد أسلم زمامه كاملاً للشيطان ولم يحاول حتى مجاذبته إياه، فأصبح يد الشيطان وسوطه يصول به على أمة محمد بعد أن كان ـ الشيطان ـ قد " **أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ** " حسب نص الرسول صلى الله عليه وآله، الذي مر سابقاً.

وفي مواجهة هذا الخطر الذي يمكن أن يؤدي بالأمة إلى انحراف خطير على مستوى الفكر والقيم والعقيدة، يمكن أن يهدد وجودها وفاعليتها وينذر بزوالها، إذ إن انحراف أية أمة عن قيمها ومبادئها التي أكسبتها وجودها وفاعليتها، سوف يؤدي بها حتماً إلى فقدان هذا الوجود والفاعلية لأنها ـ أساساً ـ مكتسبات لتلك القيم والمبادئ.

في مواجهة هذا الخطر الكبير، تُحتِّمُ مسؤوليةُ القيادة والإمامة التي يتحملها أمير المؤمنين عليه السلام التحرك باتجاهين:

الاتجاه الأول: تنبيه الأمة وتوجيه أنظارها إلى ذلك الخطر الذي يتهدد أهدافها ومصيرها، والكشف عن النتائج المترتبة على ذلك، وبطرق متعددة.

الاتجاه الثاني: هو محاولة القضاء على هذا الخطر، لا سيما مع وجود الناصر على حد تعبير الإمام عليه السلام (٢)، أي مع توفر الظروف الموضوعية (٣) التي توجب على الإمام النهوض بدوره في قيادة الأُمة الإسلامية، وإعادتها إلى مسارها الصحيح.

ففي المجال الأول تجد الكثير من نصوص النهج تتخذ من معاوية خاصّةً ومن بني أُميةَ عامَّةً ميداناً لإلقاء الضوء على مستوى الانحراف الذي يمكن أن يصل إليه ابن آدم، والهاوية العميقة التي يمكن أن تتخبط في ظلماتها الأمة الإسلامية إذا أسلمت زمامها لقيادة منحرفة: " **أَلاَ وَإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فَتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ**

(١) المصدر نفسه: ٦٣٢ ـ ٦٣٣.

(٢) قال عليه السلام:" **أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ... لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ** " نهج البلاغة: ٨١ـ ٨٢ .

(٣) ينظر: موسوعة الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر: ٢٠: ١٩١.

الْبَلاَءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ الْبَلاَءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا " [١]، " **وَاللهِ لاَ يَزَالُونَ حَتَّى لاَ يَدَعُوا للهِ مُحَرَّماً إِلاَّ اسْتَحَلُّوهُ، وَلاَ عَقْداً إِلاَّ حَلُّوهُ، حَتَّى لاَ يَبْقَى بَيْتُ مَدَر وَلاَ وَبَر إِلاَّ دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاك يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابِ اغْتَابَهُ**"[٢].

أما في المجال الثاني، فإن الإمام عليه السلام كان يستنهض الأمة، ويبين لهم فضيلة الجهاد ويحذرهم من تركه، ويدعوهم " **إِلَى قِتَالِ هؤُلاَءِ القَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاَناً**" [٣]، ويستنكر عليهم تخاذلهم وإبطاءهم عن نصرته، مبيناً لهم في كل ذلك تكليفه وتكليفهم، معللاً لهم كل ذلك بوجوب الحفاظ على الأمة الإسلامية وسلامتها الفكرية والعقيدية من الانحرافات التي يمكن أن تمنى بها: " **وَلكِنَّنِي آسَى أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هذِهِ الأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً، وَعِبَادَهُ خَوَلاً، وَالصَّالِحِينَ حَرْباً، وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً... "** [٤]،

(١) نهج البلاغة: ٢٤٧.

(٢) نفسه: ٢٥٦.

(٣) نفسه: ١٢٠.

(٤) نفسه: ٦٩٢.

المبحث الثالث: الرعية:

بدءاً، فإن ثمة إشكالية في هذا المبحث، لا بد من الوقوف عندها، هي أن أساس هذا البحث قائم على التقابل ـ إذا استبعدنا الأنا، بوصفها تمهيداً لفهم الآخر، ومعياراً لتصنيفه ـ بين: الآخر الموافق، والآخر المخالف... والإشكالية في هذا المبحث أنه اتخذ من الرعية عنواناً أو مصداقاً للآخر المخالف. والحال أن طبيعة الأمور ـ نظرياً على أقل تقدير ـ تفرض على الرعية أن لا تكون آخرَ مخالفاً لعلي بن أبي طالب. لماذا؟

لأن علياً كان يمثل تطلعات الأمة الثائرة على واقعها المنحرف نحو بطلها المنقذ. وتوضيح ذلك:

إن رسالة الإسلام جاءت قائمة على شعار " **لا إله إلا الله، محمد رسول الله** " ومحور هذا الشعار قائم على قطبين: الأول هو المزاوجة بين النفي والإثبات حيث لا يكون الإثبات إلا بعد النفي، فلا يمكن أن أعبد الله إلا إذا تجردت من عبادة غيره من الآلهة، وليس من الضرورة أن تكون هذه الآلهة من الحجارة " **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** " (١)، والقطب الثاني هو التسليم المطلق للرسول ﷺ بوصفه الواسطة الوحيدة بين الأرض والسماء، والمَنْفَذ الوحيد الذي يطلُّ منه المؤمن على ما تريده السماء: " **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** " (٢)، وبمعنى آخر فإن مرجعية المسلم الوحيدة هي المرجعية الإلهية، والمصدر الوحيد لهذه المرجعية هو الرسول ﷺ، وأية مرجعية أخرى ستكون ـ حتماً ـ مرجعية غير إسلامية. وهذا هو المبدأ الذي تُؤسس عليه مقولة: لا اجتهاد في مقابل النص سواء كان هذا النص قرآنياً أو نبوياً.

وقد مر في البحث أن أول انحراف عن هذه المرجعية كان قد حدث يوم السقيفة، حيث تحولت معايير التفاضل والاستحقاق من المعايير الإسلامية إلى المعايير القبلية، وتم تنصيب الخليفة الأول على أساس أحقية قريش بسلطان نبيها، ولكن خط الانحراف غالباً ما يتخذ مساراً منحنياً ينزلق إلى الهاوية، وقد توالت بعد ذلك الانحرافات مروراً بتفضيل بعض المسلمين على بعض في العطاء، ثم التشريع في مقابل التشريع النبوي، في مسألة التفريق في العطاء بين المسلمين، ثم فيما يرويه

(١) سورة يوسف: آية: ١٠٦.

(٢) سورة النساء: آية: ٦٥.

المؤرخون والمحدثون من قول عمر بن الخطاب *: " **متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما متعة الحج ومتعة النساء** " (١)، وأمثاله، حتى آلت الأمور إلى أن يكون بيت المال دولة بين الطلقاء وطريدي رسول الله ﷺ من بني أُميّة أيام الخليفة الثالث، في حين يُنفى أبو ذر إلى الربذة ليموت فيها وحيداً (٢).

ولئن كانت الانحرافات الأولى قد وجدت لها ما يسوغها في نفوس المسلمين كونها تناغم العاطفة الدينية لديهم (٣)؛ فالخليفة الثاني ـ مثلاً ـ لم يفضل أهل بيته في العطاء بل فضل عمَّ النبي ﷺ وزوجاته، فيما يمكن أن يُعدّ تكريماً لرسول الله. فإن الانحرافات زمن الخليفة الثالث كانت مناقضة لتلك العاطفة الدينية، فضلاً عن مناقضتها للتشريع الإسلامي. فعثمان فضَّل أعداء الإسلام على المسلمين، وسلط الطلقاء وأبناء الطلقاء، وطريدي رسول الله ﷺ على رقاب المسلمين.

وهكذا بعد أن كان الفرد المسلم قوياً عزيزاً مؤمناً ومطمئناً على إسلامه ومعاشه في أحضان الرسالة وبين يدي الرسول ﷺ، إذا به ذلك الكائن المقهور المهدور المسلوب من أبسط الحقوق لصالح من أسماهم الرسول الطلقاء... الطلقاء، هكذا، مطلقة، ومن دون حدود، أو زمان يمكن أن تنتهي فيه هذه التسمية ـ الصفة ـ ليس لأن الرسول ﷺ يريد لهم أن يكونوا كذلك، وهو نبي الهدى والرحمة، بل لأنهم ارتكسوا بما سيبقيهم طلقاء إلى يوم يبعثون. ولعل هذا الإطلاق في التسمية، وتجريدها مما يحدد دلالتها، يحمل نبوءةً ما، أو ايحاءً بأنهم طلقاء من الإيمان أو طلقاء من رحمة الله، وليسوا طلقاء من الأسر الذي وقعوا فيه عند فتح مكة فحسب، لا سيما إذا تذكرنا مدى إصرارهم على محاربة الله ورسوله.

إذا أضفنا إلى هذا العامل عاملاً أخر هو الفتوحات الإسلامية التي اتسعت أيام الخلفاء الثلاثة، وما انتجته من غالب ومغلوب وسيد ومسود، فإن النتيجة الحتمية لهاتين المقدمتين ستكون مجتمعاً طبقياً بديلاً عن المجتمع الإسلامي الذي بشّرت به السماء حيث الناس سواء كأسنان المشط. ولا شك أن مجتمعاً مثل هذا سيكون فيه الصراع ـ أو قل الثورة ـ الذي تنبأ به ماركس وهو يحلل المجتمع

*. مهما يقول المعتذرون للخليفة الثاني فإن النص نفسه لا يترك مجالاً للاعتذار، فهو يصرح بأنهما كانتا على عهد رسول الله، وأنا أنهى عنهما، فلا مجال بعد ذلك للقول بأنهما نُسخا مثلاً.

(١) أحكام القرآن: ١: ٣٦٢.

(٢) ينظر: السقيفة وفدك: ٧٨.

(٣) ينظر: موسوعة الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر: ٢٠: ٢٤٨.

الرأسمالي، هو الضرورة الحتمية والنتيجة الطبيعية، وهو صراع بين أقلية غنية مستأثرة وظالمة، وأكثرية فقيرة مستلبة ومظلومة. أقلية في يدها المال والسلطة والقرار، وأكثرية مستبعدة ومهمشة، لا تملك مالاً، ولا قراراً، ولا سلطةً حتى على أبسط خياراتها وخصوصياتها. إلا أن هذه الأكثرية المغلوبة ـ لا سيما وأن فيهم بعض كبار الصحابة ـ لم يكونوا ليذعنوا لهذا الحيف بعد أن رباهم الإسلام على العزة والإباء والكرامة، فبدأت مراحل الجهاد، وتدرجت من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى كلمة الحق عند السلطان الجائر، وانتهت بقتل خليفة المسلمين، الذي سيصبح الإمام المقتول الذي يفتح على الأمة أبواب " **الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلى يَوْمِ الْقُيَامَة ِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلاَ يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً** " (١).

ودخلت الأمة دهاليز الظلام، ولم تخرج منه إلى يوم الناس هذا. ونحن الآن لسنا بصدد الدراسة التفصيلية لأسباب الانتفاضة، بقدر ما نريد أن نثبت أن للواقعة التاريخية أسبابها عندما يستأثر صنّاع تلك الواقعة بالأرض، ويلقون الآخرين في البحر، بعد أن يفرغوه من أسباب الحياة. طبعاً، نحن نصادق على قراءة ماركس من دون أن نكون ماركسيين. ذلك أن هذا الاستشراف لا يغطي جميع الوقائع. فهو لم ينجح في قراءة الواقعة الرأسمالية في المجتمع الغربي. فهل أخطأ ماركس في قراءتها؟ وهل كانت سيكلوجية الجمهور العربي المسلم، وهو يستجيب لقراءة ماركس، تختلف عن سيكلوجية الجمهور الغربي في التعامل مع الفراعنة والجبابرة وأصحاب رأس المال؟

الجواب عن هذا التساؤل نجده عند محمد باقر الصدر، وملخصه: أن ماركس لم يخطئ، كانت قراءته صحيحة، ولكن الغرب الرأسمالي الطبقي عندما قرأ ماركس واستوعبه، فكر بطريقة، تجنبه ثورة الطبقات المسحوقة، وما يترتب على تلك الثورة من فوضى ستكون أفتك بالأمة من الطغيان والدكتاتورية، وبتعبير الدكتور علي الوردي فـ: " **حاكم ظالم غشوم *هو أفضل للناس من عدمه**"(٢). وقد توصلت زعاماتهم إلى صيغة من المصالحة، أو الصفقة ـ غير المكتوبة ـ بين صاحب رأس المال من جهة، والعامل من جهة أخرى. وضحية هذه الصفقة هم نحن، الشعوب الفقيرة، شعوب ما

(١) نهج البلاغة: ٣٩٥.

*. الكلمة في سياق شرحه لكلمة نسبها إلى أمير المؤمنين عليه السلام هي: " **ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم** "، ولم يجد الباحث هذه الكلمة منسوبة إلى الإمام في نهج البلاغة ولا في غيره من المصادر التي توافرت لديه، وقد أورد ابن أبي الحديد ضمن كلمات نسبها إلى عمر ابن العاص قوله: " **سلطان ظلوم خير من فتنة تدوم** ". شرح النهج: ٦: ٢٥٢.

(٢) حوارات في الطبيعة البشرية: ٧١.

يسمى بالعالم الثالث، شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية... لقد وجَّه الغرب أنظار رعاياه إلى قضية خارجية تشغلهم عن الاهتمام بالداخل، وهكذا حُيِّدَ الصراع بين طبقات المجتمع الرأسمالي. وبهذه الطريقة استطاعت الرأسمالية أن تحافظ على نفسها باستمرار، فبمجرد أن تشعر بخطر داخلي يتهدد بلدانها، تصرف نظر الجماهير المقهورة المهدورة عن مشكلتها باحتلال دول أخرى، والسبب الجاهز والمعلن لتسويغ الاحتلال هو نشر الديمقراطية. أما السبب البعيد وغير المصرح به فهو خيرات الشعوب: نفطها وغازها ونخيلها وماؤها وهواؤها وآثارها، وكل ما دب على أرضها(١).

وهذا ما لم يفعله الخليفة والقيادات الإسلامية في زمانه، فحتى ما كان يُجبى إلى البلاد الإسلامية من الفتوحات كان يُرسِّخ شعور الرعايا بالظلم والاستبداد لأنه كان يوزع على طبقة دون طبقة... فكانت النتيجة هي الثورة التي أكلت الأخضر، ولم تبقِ على يابس.

لقد كان ما عاشه المجتمع المسلم أيام عثمان وبني أبيه حافزاً أعاد للأمة وعيها بذاتها، فانتفضت من سباتها، انتفضت على انحرافها، وكان ثمة حلم يرفرف قريباً منها، حلم سرق على حين غفلة، ولكنه لم ينطفئ تماماً، كان علي بن أبي طالب، كما كان أيام رسول الله ﷺ، تجسيداً لكل قيم العدل والمساواة، كان تجسيدا للإسلام الذي كان يجسده رسول الله ﷺ وليس عهد رسول الله منهم ببعيد. لقد وجدت الأمة في علي آمالها وتطلعاتها وحياتها الحرة الكريمة، فكان أن اختارته، ليسجل التاريخ أول انتخابات ديمقراطية حرة ونزيهة، يقوم بها الشعب مباشرة، من دون أوراق أو صناديق يمكن أن تُزور أو تُستبدل. وهكذا فإن الشعب حين تُرِك ورأيه عرف طريقه الصحيح... علماً أن هذه الطريقة في الانتخاب لم تكرر مرة أخرى، هي خاصة بعلي بن أبي طالب عليه السلام، إذن فالجماهير مع علي من دون شروط، لأنه الوحيد الذي لن يساوم على حقوقها، وهو القائل " **وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ؛ فَإِنَّ فِي العَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ العَدْلُ، فَالجَوْرُ عَلَيْهِ أَضيَقُ!**" (٢)، وهو القائل: " **الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ** " (٣)، وهو القائل: " **لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً... أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِي**

(١) ينظر: المدرسة القرآنية: ١٦٢ ـ ١٧٠.

(٢) نهج البلاغة: ٩٥.

(٣) نفسه: ١٤٣.

عَلى أَنْفُسِكُمْ، وَايْمُ اللهِ لأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ، وَلأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً " (١).

هذا الوعد بالاقتصاص من الظلمة، هو الذي كانت الجماهير تتطلع إليه، ومَن غير علي أقدر على تنفيذه. نعم، الجماهير لا يمكن أن تكون ضد علي، لأن سيرته تشهد بأنه إلى صف المظلوم، ولم يحدث أن كان مع الظالم قط. كما أن أحاديث الرسول ﷺ بحقه، ما زالت متداولة على ألسنة المظلومين والمهمشين والأحرار.

ولكن عندما نتصفح نهج البلاغة، نجد شكوى مريرة ومتكررة من الطرفين، بحسب قوله عليه السلام: " **اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي** "(٢)، وربما كانت هذه الشكوى من جانب علي عليه السلام أمرّ. وربما منهم أكثر إذا تصفحنا نصوصهم، وإن كنا معنيين بنهج البلاغة أولاً. فما الذي حدث؟ وكيف نوفق بين ما تقدم من حاجة الأمة لعلي عليه السلام، ومللهم منه، كيف نفهم ذوبان الجماهير في علي، ومللهم منها؟ هذه الرعية بدلاً من أن تكون آخر موافقاً، كيف أصبحت آخر مخالفاً؟ وهل يمكن أن نتخيل مظلوماً لا يحب عليّاً، أو يمكن أن يقف في صف أعدائه؟

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " **أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لاَ يَجْرِي لِأَحَد إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ، وَلَوْ كَانَ لأَحَد أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلاَ يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذلِكَ خَالِصاً للهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلكِنَّهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ... ثُمَّ جَعَلَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْض... وَأَعْظَمَ مَا افْتَرَضَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةً فَرَضَهَا اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لِكُلّ عَلَى كُلّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِصَلاَحِ الْوُلاَةِ، وَلاَ تَصْلُحُ الْوُلاَةُ إِلاَّ بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ. فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلاَلِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الأَعْدَاءِ.**

(١) المصدر نفسه: ٣٣٥.

(٢) نفسه: ١١٥

وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلاَ يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلاَ لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ عِنْدَ الْعِبَادِ " (١)

في هذا النص يلخص لنا أمير المؤمنين عليه السلام سبب التوافق أو الخلاف بين الوالي من جهة، وبين الرعية من جهة أخرى. فالقضية قضية حقوق وواجبات، أو عقد بين طرفين يتوقف أحدهما على الآخر، وهو ما يسمى فلسفياً بالدور، والدور باطل قطعاً، من وجهة نظر منطقية، إلا أن الأمر مختلف في علاقة الراعي بالرعية، لأن صلاح الرعية بصلاح الولاة، وصلاح الولاة بصلاح الرعية، إذن لا يكفي أن يكون الوالي صالحاً، كما لا يكفي أن تكون الرعية صالحة، لأن استقامة الأمور متوقفة على صلاح الاثنين معاً، وعدم التزام أحد الطرفين بهذا العقد هو سبب اختلاف الكلمة وظهور معالم الجور...

وهذا ما شخصه الغزالي عندما قال: **والملك والدين توأمان فالدين أصل والسلطان حارس وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع** " (٢). فالدين والدولة ولدا في يوم واحد، وشبّا معا، ولا يجوز التفرقة بينهما. نعم، الدين هو العقد الذي يجب أن يتفق عليه أبناء الدولة: حاكمين ومحكومين، من وجهة نظر إسلامية، وإذا شاءوا أن يستبدلوا ديناً بشرياً "ما" بدين الله، كما هي الدول العلمانية والديمقراطية والليبرالية، فذلك لهم، بعد أن تبين الرشد من الغي وأنْ لا إكراه في الدين، بشرط أن يلتزموا ببنود هذا العقد الجديد، وإلا فسيضيع كل شيء ويهدم، وإن كنا نرى أن دين الله هو الأصل، أما العلمانية والديمقراطية والليبرالية، فعارض لا أصل له، وما لا أصل له فمهدوم.

إذن، فثمة عقد بين طرفين، عقد كثيراً ما يُذَكِّر الأمامُ به، ويعيد صياغته مرات ومرات: "**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْما تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ: فَالوَفَاءُ بِالبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ** " (٣)

(١) المصدر نفسه: ٥٣٦ ـ ٥٣٨.

(٢) إحياء علوم الدين: ١: ١٧.

(٣) نهج البلاغة: ١٣٩.

من جهته، فإن أمير المؤمنين عليه السلام التزم ببنود هذا العقد الذي ينظم علاقته مع الرعية التزاماً حرفياً، أما الذي أخل ببنود العقد، فهم الرعية، عندما لم يستقيموا، ولم يلتزموا ببنود العقد، ولم يؤدوا حق أمير المؤمنين في الطاعة والاستجابة. ولكن ما الدليل على أن الرعية هي التي أخلت ببنود العقد؟

نقرأ في نهج البلاغة نصاً واحداً يكاد يتكرر مرات ومرات، وبألفاظ مختلفة، وسنختار من تلك النصوص ثلاثة فقط، لأجل أن نثبت التشابه الشديد في الأسلوب والطريقة التي يُبنى عليها النص. نعم، هو تكراري بطريقة توحي أن عدم التزام الرعية بالعقد الذي أبرم بينهم وبين الأمام. ليس قضية عارضة، بل هي متأصلة في أكثر المَواطن التي واجه بها الإمام عدوه. أو كأنها رأي عام أتفق هؤلاء على أن يأخذوا به ويسيِّروا الأمور باتجاهه، والخطورة تكمن هنا، أي عندما تتحول المشكلة إلى رأي عام، أو قل: "**خط واحد لسير الجماعة بأكملها**"(١) وهي ظاهرة تستحق الدراسة من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي، فهي تفترض "**أن ثمة وجودين للإنسان، وجوداً يكون فيه الإنسان فرداً لا أثر له، ووجوداً يكون فيه الإنسان ذاتاً تتشكل داخل آيديولوجيا**"(٢) جمعية لا واعية وذات دوافع مشبوهة. إذ ما السر الكامن وراء هذا التواطؤ المعلن في إفشال مشروع أمير المؤمنين عليه السلام في بناء الأمة، أو إعادة ترميم ما بقي من دينها ودولتها؟!. هذه الأمة، هذا الجمهور الذي كان متطلعا لهذا البطل بالذات، لماذا يحاول أن يكون حجر عثرة في طريقه؟!

أما النصوص فهي:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: " **وَإِنِّي وَاللهِ لَأَظُنُّ هؤُلاءِ القَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِماعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي البَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ الأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلاَحِهِمْ فِي بِلاَدِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَو ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاَقَتِهِ. اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّوني، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُوني، فَأَبْدِلنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّى** " (٣).

وقال عليه السلام: "**أَلاَ وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هؤُلاَءِ القَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاَناً، وَقُلْتُ لَكُمُ: اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى**

(١) الرأي العام: ١٣.

(٢) ينظر: الهوية والسرد، دراسات في النظرية والنقد الثقافي: ٦٤.

(٣) نهج البلاغة: ١١٤ ـ ١١٥.

شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الغَارَاتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الأَوْطَانُ... فَيَا عَجَباً! عَجَباً ـ وَاللهِ ـ يُمِيتُ القَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ مِن اجْتِماعِ هؤُلاَءِ القَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرمَى: يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلاَ تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ، وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْن! فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِم فِي أَيَّامِ الحَرِّ قُلْتُمْ: هذِهِ حَمَارَّةُ القَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هذِهِ صَبَارَّةُ القُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا البَرْدُ، كُلُّ هذا فِرَاراً مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ! يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبّاتِ الحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً ـ وَاللهِ ـ جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعقَبَتْ سَدَماً. قَاتَلَكُمُ اللهُ! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالعِصْيَانِ وَالخذْلاَن " (١).

وقال عليه السلام: " **أَيُّهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلامُكُم يُوهِي الصُّمَّ الصِّلابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلاَ اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ، دِفَاعَ ذِي الدَّيْنِ المَطُولِ، لاَ يَمنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ! وَلاَ يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلاَ بِالْجِدِّ! أَيَّ دَار بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَام بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ المَغْرُورُ وَاللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَازَ بَالسَّهْمِ الأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِل. أَصْبَحْتُ وَاللهِ لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلاَ أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلاَ أُوعِدُ العَدُوَّ بِكُم. مَا بَالُكُم؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ القَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ، أَقَوْلاً بَغَيْرِ عِلْم! وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَع! وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ؟!** " (٢)

إذن الأمة التي كانت متطلعة لأمير المؤمنين ـ واستنادا إلى كلامه ـ لم تُطِعْهُ، ولم تلتزم بالعقد المبرم، بينها وبينه، والسؤال الأهم بعد ذلك، لماذا؟ وهذا ما يحتاج إلى معرفة بسيكولوجية الجماهير، ونفسيتهم، والطريقة التي يفكرون بها، والأساليب التي يتبعون، والأشياء التي يحبون ويبغضون، وَمَنِ يُفترض به أن يستجيب لمن، الراعي أم الرعية؟ وماذا لو كانت الرعية متمردة؟ أو لم تكن رعية أصلاً؟! وماذا لو لم تكن كذلك؟.

(١) المصدر نفسه: ١٢٠ ـ ١٢٢.

(٢) نفسه: ١٢٦.

وهذا لا يعني، بالتأكيد، أن أمير المؤمنين عليه السلام لا علم له بهذه السيكولوجيا، أو هذه الأخلاط المركبة غير المتجانسة والتي لا يشبه بعضها بعضا اللهم إلا عندما تجتمع، إذ إن " **الفرد ما أن ينخرط في جمهور محدد حتى يتخذ سمات خاصة، ما كانت موجودة فيه سابقاً، أو قل: إنها كانت موجودة، ولكنه لم يكن يجرؤ على البوح بها، أو التعبير عنها بمثل هذه الصراحة والقوة**"(١). نعم أمير المؤمنين عليه السلام على علم بذلك، ولكنه ليس من النوع الذي يستجيب لتلك السيكولوجيا عندما تكون متخلفة وظلامية، تريد أن تقيس الوجود وأشياءه على مقاساتها، ويترك كتاب الله ـ سبحانه ـ وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كانت النتائج في غير صالحه: " **وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ، وَلَكِنِّي واللهِ لاَ أَرى إِصْلاَحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي** " (٢)، " **إِنِّي أُرِيدُكُمْ للهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لأَنْفُسِكُمْ**" (٣)، وشتان بين هاتين الإرادتين اللتين تسيران على طرفي نقيض، وهو القائل أيضاً: "**قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ**" (٤). لأن الإمام عليه السلام لا يبحث عن ربح سريع وآنيّ، بل هو يخطط للمستقبل، والمستقبل من وجهة نظره: أن نلتزم بكتاب الله، أن نحب رسول الله، أن ندافع عن الحق، أن نقف بوجه الباطل، أن يشعر بعضننا ببعض، أن يضحي بعضنا لأجل بعض، أن نعطي للحياة قيمة ومعنى، لأنها محطتنا ووسيلتنا للحياة الأبدية الدائمة...

إن للجماهير الدور الأكبر في الانحراف الذي أصابها، وهذا يعني أن الصراع الذي كان قائماً لم يكن صراع زعامات فحسب، بل هو صراع بين جماهير وأقلية، جماهير " **غير ميّالة كثيراً للتأمل، وغير مؤهلة للمحاكمة العقلية. ولكنها مؤهلة جداً للانخراط في الممارسة والعمل**" (٥)، دون مراجعة أو إعادة حساب للنتائج التي يمكن أن تترتب على هذا العمل، وقد تتحول هذه الممارسات إلى عقائد " **والعقائد الجديدة ... سوف تكتسب قريباً نفس قوة العقائد القديمة**"(٦)، وأقلية تحمل همَّ هذه الجماهير، وتريد أن تنتشلها من غوغائيتها. ولكن الجماهير لا تعرف أنها تريد ذلك. وهذه معركة

(١) سيكلوجية الجماهير: ٦.
(٢) نهج البلاغة: ١٧٥.
(٣) نفسه: ٣٣٥.
(٤) نفسه: ١٤٧.
(٥) سيكولوجية الجماهير: ٤٥.
(٦) نفسه.

تكاد تكون خاسرة، على وفق المقاييس المادية النفعية، لأن الغلبة ستكون لصوت الجماهير[١]. أما إذا كانت هذه الأقلية تعتاش على غوغائية الجماهير، فسوف تكون الجماهير راضية سعيدة وهي تُساق إلى مزالق الهاوية. لأن الجماهير لا تهتم بالوقائع بقدر ما تهتم بطريقة عرض تلك الوقائع [٢]، وثمة من يجيد فنَّ العرض.

لقد قادت هذه الجماهيرَ المغلوبة على وعيها أقليةٌ استطاعت أن تحركها في الاتجاه الذي تريد، حتى أصبحوا " **بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً، وَبَعْدَ الْمُوَالاَةِ أَحْزَاباً، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ بِاسْمِهِ، وَلاَ تَعْرِفُونَ مِنَ الإِيمَانِ إِلاَّ رَسْمَهُ، تَقُولُونَ: النَّارَ وَلاَ الْعَارَ كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الإِسْلاَمَ عَلَى وَجْهِهِ** "[٣]. نعم. لم تستطع المرجعيات التي غرس بذورها الرسول ﷺ في نفوسهم أن تصمد أمام زخم الواقع الذي كان يبرق بالسيف والذهب. فأصبح أمير المؤمنين عليه السلام بين المطرقة والسندان، بين مطرقة المؤسسة القرشية وسندان الجماهير، فأصبح كالمستجير من الرمضاء بالنار، يرى طريق الهدى رأي العين: " **ولكن بِمَنْ وَإِلَى مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائي، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا!** " [٤] .

(١) ينظر: الراعي والرعية: ٧٦.

(٢) ينظر: سيكلوجية الجماهير: ٨٩.

(٣) نهج البلاغة: ٤٨٨.

(٤) نفسه: ٣٠٩ ـ ٣١٠.

الخاتمة:

لعل النتائج ـ في أيِّ بحث ـ أكثر من أن تحصى فكل كلمة يقرأها الباحث أو يكتبها تكاد تكون نتيجة، حتى وإن كان ثمة من سبقه إليها، لأن الأفكار عندما تقال تلبس شيئاً من شخصية قائلها، وإن لم تكن من عنديات هذا القائل أصلاً، ومن جانب آخر، فلن يدعي الباحث أنه أتى بجديد لم يسبقه إليه غيره، فالأفكار تعرف طريقها للظهور والتطور، والإنسان ـ مهما كان عبقرياً ـ ما هو إلا محطة من محطاتها، وإن كان هو الذي يطورها ويتطور بها. إلا أنه لا بد للبحث من خاتمة، ولا بدّ للخاتمة أن تشير إلى نقاط يراها الباحث أكثر أهمية من غيرها:

- إن الإنسان ـ بما هو إنسان ـ هو مجموعة من القيم والمبادي والأفكار (آيديولوجيا) تنطلق من مرجعيات ومعايير معينة، وعليه فالآخر هو المخالف في مرجعياته ومعاييره، وليس المختلف في لونه أو عرقه أو قوميته.
- إن هذه المعايير أو المرجعيات يمكن أن تكون نتاجاً ثقافياً، بمعنى أن الذي أنتجها هو المجتمع، ببيأته وتاريخه وثقافته وأنساقه الثقافية، ويمكن أن تكون معايير ومرجعيات مطلقة، بمعنى أن مصدرها هو الله المطلق.
- إذا كانت الذات ذاتاً ثقافية بمعاييرها ومرجعياتها، فليس من حقها أن تدعي احتكار الحقيقة، وليس من صالحها أن تنغلق أو تتمركز على ذاتها.
- أما إذا كانت الذات ممثلة للمطلق ـ كالنبي والمعصوم ـ وصادرة في مرجعياتها ومعاييرها عن هذا المطلق، لا يشاركه فيها غيره، فليس للآخر الذي ينتمي إلى منظومة هذا المطلق أن يختلف معها أو يتخلف عنها.
- إن الآخر العدو للإنسان هو إبليس، وإن سبب عدائه للإنسان هو الأنا المنتفخة بكبرها، وإن هذه الأنا المرضية هي السبب في كل عداء وفرقة.
- إن علاقة الإنسان بالإنسان، بوصفه آخر، هي علاقة انفتاح وتعارف وتكامل، ولا تتحول إلى علاقة صراع ومغالبة عنفية إلا إذا كان أحدهما ـ أو كلاهما ـ يصدر عن معايير شيطانية.
- إن الـ (أنا) في نهج البلاغة تتمظهر بثلاثة مستويات مختلفة ولكنها ليست متقاطعة، يظهر كل منها بحسب المحل المناسب له.

- إن الـ (أنا) الحقيقية هي أنا الإمامة، أما الـ (أنا) الاجتماعية والـ (أنا) المحاجِجة فهما مستويان من مستويات الـ (أنا) الحقيقية يظهران في نصوص النهج بحسب الحاجة إليهما ولا يمكن أن يتقاطعا مع أنا الإمامة.
- إن مرجعيات الـ (أنا) ومعاييرها هي مرجعيات ومعايير تعتمد القرآن والسنة، ومن ثم فهي إلهية غير مشوبة بشيء من الجاهلية، ومن ثم فهي ذات ممثلة للمطلق؛ لأنها صنيعته.
- إن الخروج عن مرجعيات هذه الأنا هو خروج عن مرجعيات الشريعة ومعاييرها، بنص الشريعة نفسها وعلى لسان الرسول ﷺ : " علي مع الحق والحق مع علي ".
- هذه المعايير والمرجعيات الإلهية ضرورة لخليفة الرسول ﷺ، مثلما هي ضرورة للرسول نفسه، لأن دور الخليفة هو استكمال لدور الرسول ﷺ.
- إن صورة الرسول ﷺ في نهج البلاغة بوصفه آخر موافقاً هي صورة وظيفية، استخدمها النص لاستكمال دور الرسول في أمته.
- استخدم النهج صورة الرسول ﷺ وصورة المسلم النموذج الذي أراد الإسلام بناءه لعدة أغراض منها:
  - إعادة تجميع صورة المسلم على وفق مقاييس القرآن الكريم والسنة النبوية.
  - وضع هذه الصورة وجهاً لوجه أمام الصورة المشوَّهة التي أنتجتها الانحرافات التي ابتُليت بها الأُمة الإسلامية، في محاولة لإعادتها إلى مسارها القويم.
  - شحن المنظومة القيمية الإسلامية بالوهج العاطفي الذي يمدها بالقدرة على الصمود في مواجهة المغريات المادية.
  - المسلم الصحيح هو وحدة قيمية لا يمكن تجزئتها. تشكل منظومة متكاملة.
  - توظيف هذه المنظومة القِيمية توظيفاً واعياً. عن طريق ربط هذه القيم بالنتائج المترتبة عليها، أو التي يمكن أن تتحقق من خلالها.
- إن مسيرة الخلافة لم تعتمد المعايير الإلهية في التعامل مع حدث وفاة الرسول ﷺ، بسبب من اختلاط المعايير الإلهية مع ما تبقى من المعايير والمرجعيات الجاهلية.
- إن انتقال الخلافة من علي إلى غيره ليس انتقالاً من شخص إلى غيره، بل هو هو انحراف في المرجعيات والمعايير.

- إن خروج من خرج على الإمام عليه السلام هو اجتهاد في مقابل النص، وتشريع في مقابل التشريع الإلهي، في أقل تقدير، وإلا فهو خروج عن منظومة المرجعيات والمعايير الإلهية.
- إن الكثير من المسلمين انساقوا مع التيار بسبب عدم وضوح الرؤية، أو بسبب عدم تمكن الإسلام في نفوسهم.

الباحث

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- الأثر القرآني في نهج البلاغة، دراسة في الشكل والمضمون ـ عباس علي حسين الفحام ـ منشورات الفجر للطباعة والنشر والتوزيع ـ لبنان، بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠١٠ م.
- الاحتجاج ـ الشيخ الطبرسي ـ تحقيق السيد محمد باقر الخرسان ـ دار النعمان للطباعة والنشر ـ النجف الأشرف ـ ١٩٩٦ م.
- أحزاب المعارضة الدينية السياسية في صدر الإسلام الخوارج والشيعة ـ يوليوس فلهوزن ـ ترجمة وتقديم: عبد الرحمن بدوي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٥٨ م.
- أحكام القرآن ـ أحمد بن علي الرازي الجصاص ـ تحقيق محمد الصادق قمحاوي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٥ هـ.
- إحياء علوم الدين ـ الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ـ تقديم ومراجعة: صدقي محمد جميل العطار ـ دار الفكر للطباعة والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٦ م.
- الآخر في الثقافة العربية (صورة الشعوب السوداء عند العرب في العصر الوسيط) ـ شمس الدين الكيلاني ـ منشورات الهيأة العامة السورية للكتاب ـ دمشق ـ ٢٠٠٩ م.
- الآخر في الثقافة العربية (صورة شعوب الشرق الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة) ـ شمس الدين الكيلاني ـ منشورات الهيأة العامة السورية للكتاب ـ دمشق ـ ٢٠٠٩ م.
- الآخر في الشعر العربي الحديث ـ الدكتور نجم عبد الله كاظم ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠١٠ م.
- الآخر في القرآن ـ غالب حسن الشابندر ـ مركز دراسات فلسفة الدين ـ بغداد ـ ٢٠٠٥ م.
- الاستيعاب ـ ابن عبد البر ـ تحقيق: علي محمد البجاوي ـ دار الجبل ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٢ م.
- أصول التعايش مع الآخر ـ الشيخ ياسين حسن عيسى العاملي ـ دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٨ م.

- إضاءات في التأصيل الثقافي ـ الدكتور خضير موسى جعفر ـ سلسلة قضايا إسلامية معاصرة ـ مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد ـ دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٤ م ـ ١٤٢٥ هـ.
- الامام علي عليه السلام ـ الدكتور علي شريعتي ـ ترجمة علي الحسيني ـ منشورات دار الكتاب الاسلامي ـ مطبعة نمونه ـ الطبعة الاولى ١٣٧٩ هـ. ق ـ ٢٠٠٠ م.
- الإمام علي القوة والمثال ـ ميثم الجنابي ـ دار ميزوبوتاميا ـ العراق ـ بغداد ـ الطبعة الخامسة ـ ٢٠١٠ م ـ ١٤٣١ هـ.
- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ـ جورج جرداق ـ دار المهدي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأُولى ـ ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤ م.
- الإمامة والسياسة ـ ابن قتيبة الدينوري ـ تحقيق: الأستاذ علي شيري ـ دار الأضواء للطباعة والتوزيع والنشر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٠ م.
- الإنسان بين شريعتين، رؤية قرآنية في معرفة الذات ومعرفة الآخر ـ الأستاذ الدكتور عبد الحميد أحمد أبو سليمان ـ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣ م.
- الإنسان يبحث عن المعنى ـ فيكتور فرانكل ـ ترجمة الدكتور طلعت منصور ـ مراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصي ـ دار القلم ـ الكويت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م.
- الأوائل ـ أبو هلال العسكري ـ تحقيق: الدكتور وليد قصاب، ومحمد المصري ـ دار العلوم للطباعة والنشر ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨١ م.
- الإيضاح ـ الفضل بن شاذان الأزدي ـ تحقيق السيد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث ـ مؤسسة انتشارات ـ ١٣٦٣ هـ.ش.
- أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الاسلامية ـ محمد باقر الصدر ـ اعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر ـ الناشر مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢٥ هـ.
- بحار الأنوار ـ العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي ـ الناشر: مؤسسة الوفاء ـ بيروت – لبنان.

- بشارة المصطفى ـ محمد بن علي الطبري ـ تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني ـ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢٠ هـ.
- بصائر الدرجات ـ محمد بن الحسن بن فروخ الصفار ـ تحقيق: الحاج ميرزا حسن كوجه باغي ـ منشورات الأعلمي ـ مطبوعات الأحمدي ـ طهران ـ ١٤٠٤ هـ.
- بين الجاهلية والإسلام ـ الشيخ محمد مهدي شمس الدين ـ المؤسسة الدولية ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٩٥ م ـ ١٤١٦ هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس ـ السيد مرتضى الحسيني الزبيدي ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ سلسلة التراث العربي ـ مطبعة حكومة الكويت ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م.
- تاريخ ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن خلدون ـ ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: الأستاذ خليل شحادة ـ مراجعة: الدكتور سهيل زكار ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ ٢٠٠١ م ـ ١٤٣١ هـ.
- تاريخ الخلفاء ـ عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٧١ هـ، ١٩٥٢ م.
- تاريخ الرسل والملوك ـ محمد بن جرير الطبري ـ مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت – لبنان.
- تاريخ المدينة المنورة ـ أبو زيد عمر بن شبَّه النميري البصري ـ تحقيق: فهيم محمد شلتوت ـ دار الفكر ـ قم ـ إيران ـ مطبعة القدس ـ ١٤١٠ هـ.
- تاريخ اليعقوبي ـ أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ـ دار صادر ـ بيروت.
- تاريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ـ تحقيق علي شيري ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤١٥ هـ.
- التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر ـ الدكتور أحمد ياسين السليماني ـ إشراف الأستاذ الدكتور جابر عصفور ـ دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٩ م.
- تحف العقول عن آل الرسول ـ ابن شعبة البحراني ـ تحقيق: علي أكبر الغفاري ـ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٤ هـ.
- تفسير أبي السعود ـ أبو السعود محمد بن محمد العمادي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

- تفسير البحر المحيط ـ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ـ ت ٧٤٥ هـ ـ تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ـ دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م.
- تفسير التحرير والتنوير ـ محمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية للنشر.
- تفسير الثعلبي ـ أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ـ تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور ـ مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٢ م.
- التفسير الصافي ـ الفيض الكاشاني ـ تصحيح وتقديم وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي ـ مطبعة مؤسسة الهادي ـ قم المقدسة ـ نشر مكتبة الصدر بطهران ـ الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ.
- تفسير الفخر الرازي الشهير بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب ـ للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ـ تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٨٥ م.
- جمل من أنساب الأشراف ـ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ـ تحقيق الأستاذ الدكتور سهيل زكار والدكتور رياض زركلي ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٦ م.
- جمهرة الأمثال ـ أبو هلال العسكري ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش ـ دار الجبل ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٤ م.
- حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام، دراسة في نهج البلاغة ـ الشيخ محمد مهدي شمس الدين ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٥ م.
- حوارات في الطبيعة البشرية ـ الدكتور علي الوردي ـ تقديم سعد البزاز ـ انتشارات محبين ـ قم ـ الطبعة الثانية ـ ٢٠٠٥.
- خصال الأمير ـ يحيى نوري ـ دار الهادي ـ بيروت ـ ١٤٢٠ هـ.
- الخصال ـ الشيخ الصدوق ـ تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري ـ منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة ـ ١٤٠٣ هـ.

- خصائص الوحي المبين ـ ابن البطريق ـ تحقيق: الشيخ مالك المحمودي ـ دار القرآن الكريم ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٦ هـ.
- الخطاب في نهج البلاغة ـ الدكتور حسين العمري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠١٠ م.
- الدر المنثور ـ عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ـ دار الفكر ـ بيوت ـ ١٩٩٣ م.
- درة الغواص في أوهام الخواص ـ القاسم بن علي الحريري، ت ٥١٦ هـ ـ تحقيق عرفات مطرحي ـ مؤسسة الكتب الثقافية / بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.
- دلائل النبوة ـ اسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الاصبهاني ـ تحقيق محمد محمد الحداد ـ دار طيبة، الرياض ـ الطبعة الأُولى ١٤٠٩ هـ.
- دليل الناقد الأدبي ـ ميجان الرويلي وسعد البازغي ـ المركز الثقافي العربي ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ـ ٢٠٠٧ م.
- ديوان الراعي النميري ـ جمعه وحققه راينهرت فايبرت ـ المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ـ بيروت ـ لبنان ـ دار فرانتس شتاينر ـ ١٩٨٠ م ـ ١٤٠١ هـ.
- الراعي والرعية ـ توفيق الفكيكي ـ منشورات المكتبة الحيدرية ـ شريعت ـ قم ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٤ م.
- الرأي العام ـ الدكتور عادل محيي الدين الآلوسي ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٧ م.
- الرواية العربية، ممكنات السرد ـ مجموعة مؤلفين ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون ـ الكويت – ٢٠٠٩ م.
- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني ـ شعاب الدين الآلوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.
- السقيفة وفدك ـ أبو بكر الجوهري ـ جمع وتحقيق وتعليق: الشيخ باسم مجيد الساعدي ـ قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة ـ العراق ـ كربلاء المقدسة ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠١١ م.

- سمط النجوم العوالي ـ عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي ـ تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معرض ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٨ م ـ ١٣١٩ هـ.
- السنن الكبرى ـ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ـ تحقيق: محمد عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثالثة ـ ٢٠٠٣ م.
- سير أعلام النبلاء ـ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة التاسعة ـ ١٤١٣ هـ.
- السيرة النبوية ـ عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ـ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ـ دار الجبل ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١١ هـ.
- سيكلوجية الجماهير ـ غوستاف لوبون ـ ترجمة: هاشم صالح ـ دار الساقي ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ ٢٠١١ م.
- الشافي في الإمامة ـ الشريف المرتضى ـ مؤسسة إسماعيليان – قم ـ الطبعة الثانية ـ ١٤١٠ هـ.
- شرح أصول الكافي ـ مولى محمد صالح المازندراني ـ تحقيق مع تعليقات الميرزا أبو الحسن الشعراني ـ ضبط وتصحيح السيد علي عاشور ـ دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م.
- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار ـ القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي ـ تحقيق السيد محمد الحسيني الجلالي ـ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ـ الطبعة الثانية ـ ١٤١٤ هـ.
- شرح ديوان المتنبي ـ عبد الرحمن البرقوقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٦ م.
- شرح شافية ابن الحاجب ـ رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي ٦٨٦ هـ ـ مع شرح شواهده للبغدادي صاحب خزانة الادب ١٠٩٣ هـ ـ تحقيق وضبط وشرح الاساتذة محمد نور الحسن، محمد محيى الدين عبد الحميد ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م.
- شرح نهج البلاغة ـ ابن ابي الحديد المعتزلي ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار الكتاب العربي العراق ـ بغداد ـ الطبعة الاولى ـ ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

- شعر أبي حية النميري ـ جمع وتحقيق: الدكتور يحيى الجبوري ـ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق ـ ١٩٧٥ م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ـ إسماعيل بن حماد الجوهري ـ تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٨٤ م ـ ١٤٠٤ هـ.
- صحيح البخاري ـ محمد بن إسماعيل بن عبد الله البخاري ـ تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا ـ دار ابن كثير، اليمامة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٨٧ م.
- صحيح مسلم ـ مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ـ بتعليق محمد فؤاد عبد الباقي.
- صورة الآخر العربي ناظراً ومنظورا إليه ـ تحرير الطاهر لبيب ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ٢٠٠٨ م.
- صورة الآخر في التراث العربي ـ الدكتورة ما جدة حمود ـ الدار العربية للعلوم ناشرون ـ لبنان، منشورات الاختلاف ـ الجزائر ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠١٠ م.
- صورة الآخر في الخطاب القرآني ـ الدكتور حسين عبيد الشمري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٨ م.
- صورة الذات بين أبي فراس الحمداني ومحمود سامي البارودي ـ ياسر علي عبد سلمان ـ دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ـ سورية ـ دمشق ـ ٢٠٠٨ م.
- طبقات الشافعية الكبرى ـ تاج الدين السبكي ـ تحقيق: الدكتور محمد محمود الطناحي والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو ـ دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الثانية ـ ١٤١٣ هـ.
- الطبقات الكبرى ـ محمد بن سعد الزهري ـ دار صادر ـ بيروت.
- عبقرية الامام علي ـ عباس محمود العقاد ـ دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع ـ ٢٠٠١
- العقل الأخلاقي العربي ـ الدكتور محمد عابد الجابري ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ٢٠٠٦ م.
- العقل في المجتمع العراقي بين الأسطورة والتاريخ ـ الدكتور شاكر شاهين ـ التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ٢٠١٠ م.

- العلاقة مع الآخر في ضوء الأخلاق القرآنية ـ محمد الناصري ـ دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٩ م ـ ١٤٣٠ هـ.
- علل الشرائع ـ الشيخ الصدوق ـ تحقيق وتقديم السيد محمد صادق بحر العلوم ـ المكتبة الحيدرية ـ ١٩٦٦ م.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ـ بدر الدين محمود بن أحمد العيني ـ ضبط وتصحيح: عبد الله محمود محمد عمر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠١ م.
- عيون الحكم والمواعظ ـ علي بن محمد الليثي الواسطي ـ تحقيق الشيخ حسين الحسيني البيرجندي ـ دار الحديث ـ قم ـ الطبعة الأولى.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ ابن حجر العسقلاني الشافعي ـ ضبط وتحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.
- الفتنة الكبرى ـ طه حسين ـ دار المعارف بمصر
- الفتنة ووقعة الجمل ـ سيف بن عمر الضبي الأسدي ـ تحقيق: أحمد راتب عرموش ـ دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩١ هـ.
- الفرق بين الفرق ـ عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي ـ تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٩٩٥ م.
- فلسفة مرجعية القرآن المعرفية غي إنتاج المعرفة الدينية ـ نجف علي ميرزائي ـ ترجمة: دلال عباس ـ مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٠٠٨ م.
- القاموس المحيط ـ محمد بن يعقوب الفيروز ابادي ـ تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثامنة ـ ٢٠٠٥ م.
- قراءة بشرية للدين ـ الدكتور الشيخ محمد مجتهد الشبستري ـ ترجمة: أحمد القبانجي ـ دار الفكر الجديد ـ العراق ـ النجف الأشرف ـ ٢٠٠٧ م.
- قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم ـ أحمد سليمان معروف ـ دار طلاس للترجمة والدراسات والنشر ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٨ م.

- الكافي ـ الشيخ الصدوق ـ تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري ـ المطبعة: حيدري ـ الناشر: دار الكتب الإسلامية – طهران ـ الطبعة: الخامسة ـ ١٣٦٣ ش.
- الكامل في التاريخ ـ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ـ تحقيق عبد الله القاضي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٤١٥ هـ.
- كتاب العين مرتباً على حروف المعجم ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ ترتيب وتحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي ـ منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٣ م ـ ١٤٢٤ هـ.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ للعلامة جار الله ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ـ تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي ـ مكتبة العبيكان ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م.
- كلمات الأعلام في شخصية علي أمير المؤمنين عليه السلام ـ السيد علي بن الحسين الهاشمي الخطيب ـ تحقيق ونشر المؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات ـ مطبعة عمران ـ الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٨ هـ. ق ـ ١٣٨٦ هـ. ش.
- الكليات ـ أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي ـ تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٩٨ م ـ ١٤١٨ هـ.
- كنز العمال ـ علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي ـ تحقيق محمود عمر الدمياطي ـ دار الكتب العلمية، بيروت ـ الطبعة الاولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.
- لسان العرب ـ ابن منظور ـ اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي ـ دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٥ م ـ ١٤١٦ هـ.
- ما وراء الفقه ـ السيد محمد الصدر ـ تحقيق هيأة تراث الشهيد الصدر ـ دار حضارة أكد للنشر والتوزيع ـ مطبعة البدر للطباعة ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٢٨ هـ.
- مجمع البيان ـ الشيخ الطبرسي ـ تحقيق: تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة: الأولى ـ ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م.

- المحتضر ـ حسن بن سليمان الحلي ـ تحقيق: سيد علي أشرف ـ منشورات المكتبة الحيدرية ـ ١٤٢٤ هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـ عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ـ تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٣ م .
- المحصول ـ محمد بن عمر بن الحسين الرازي ـ تحقيق طه جابر فياض العلواني ـ جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٠ هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم ـ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ـ تحقيق: عبد الحميد هنداوي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٠ م.
- المختصر ـ حسن بن سليمان الحلي ـ تحقيق: سيد علي أشرف ـ مطبعة شريعت ـ انتشارات المكتبة الحيدرية ـ ١٤٢٤ هـ.
- مختصر بصائر الدرجات ـ حسن بن سليمان الحلي ـ المطبعة الحيدرية في النجف ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٥٠ م.
- المدرسة القرآنية ـ محمد باقر الصدر ـ دار التعارف ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠١٢.
- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ـ العلامة المجلسي ـ تقديم السيد مرتضى العسكري ـ مقابلة وتصحيح السيد هاشم الرسولي ـ دار الكتب الإسلامية ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٤ هـ.
- المرجعية والقيادة ـ محاضرات السيد كاظم الحسيني الحائري ـ إصدار مكتب السيد كاظم الحسيني الحائري ـ الناشر دار البشير ـ الطبعة الرابعة ـ ١٤٢٧ هـ.
- المركزية الإسلامية ـ الدكتور عبد الله إبراهيم ـ الدار العربية للعلوم ناشرون ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠١٠ م ـ ١٤٣١ هـ.
- المستدرك على الصحيحين ـ محمد بن عبد الله النيسابوري ـ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٠ م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٥ م.
- مسند الرضا عليه السلام ـ داود بن سليمان الغازي ـ تحقيق: محمد جواد الحسني الجلالي ـ مكتب الإعلام الإسلامي ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٨ هـ.

- مشارق أنوار اليقين ـ الحافظ رجب البرسي ـ تحقيق السيد علي عاشور ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٩ م.
- مشكاة المصابيح ـ محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ـ تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٨٥ م.
- مصنف عبد الرزاق ـ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ـ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٣ هـ.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) ـ أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ـ تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ـ دار المعرفة ـ بيروت.
- المعجم الأوسط ـ الطبراني ـ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ـ دار الحرمين ـ القاهرة ـ ١٤١٥ هـ.
- المعجم الكبير ـ الطبراني ـ تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي ـ دار إحياء التراث العربي ـ الطبعة الثانية.
- معرفة الذات ـ ماري مادلين دافي ـ ترجمة نسيم نصر ـ منشورات عويدات، بيروت ـ باريس ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م.
- معرفة السنن والآثار ـ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ـ تحقيق: سيد كسروي حسن ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ بيروت.
- المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين ـ أبو جعفر الإسكافي محمد بن عبد الله المعتزلي ـ تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨١ م ـ ١٤٠٢ هـ.
- مغامرة العقل الأُولى دراسة في الأُسطورة ـ فراس السواح ـ دار علاء الدين ـ الطبعة الحادية عشرة ـ ١٩٩٦ م.
- المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الاصفهاني ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ دار المعرفة ـ لبنان ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٤ هـ.
- مقاتل الطالبيين ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ شرح وتحقيق السيد أحمد صقر ـ منشورات الشريف الرضي ـ مطبعة أمير ـ قم ـ الطبعة الثانية ـ ١٤١٦ هـ.

- مقاييس اللغة ـ أحمد بن فارس ـ تحقيق: عبد السلام محمد هارون ـ دار الجبل ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٩٩ م ـ ١٤٢٠ هـ.
- مكارم الأخلاق ـ الشيخ أبو نصر الحسن بن الفضل الطبرسي ـ منشورات الشريف الرضي ـ الطبعة السادسة ـ ١٩٧٢ م.
- المناقب ـ الموفق الخوارزمي ـ تحقيق الشيخ مالك المحمودي ـ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة ـ الطبعة الثانية ـ ١٤١٤ هـ.
- مناقب آل أبي طالب ـ ابن شهر آشوب ـ تحقيق لجنة من أساتذة النجف الأشرف ـ مطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف ـ ١٩٥٦ م ـ ١٣٧٦ هـ.
- مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ محمد بن سليمان الكوفي ـ تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ـ مطبعة النهضة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٢ هـ.
- المناهج التفسيرية في علوم القرآن الكريم ـ الشيخ جعفر السبحاني ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤٢٦ هـ.
- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ـ حبيب الله الهاشمي الخوئي ـ تحقيق: سيد إبراهيم الميانجي ـ مطبعة الإسلامية بطهران ـ الطبعة الرابعة.
- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ـ قطب الدين الراوندي ـ تحقيق: السيد عبد اللطيف الكوهكمري ـ نشر مكتبة آية الله المرعشي العامة ـ مطبعة الخيام ـ قم ـ ١٤٠٦ هـ.
- منهاج الكرامة في معرفة الإمامة ـ العلامة الحلي ـ تحقيق عبد الرحيم مبارك ـ مطبعة الهادي ـ قم المقدسة ـ الطبعة الأولى.
- موسوعة الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر ـ السيد الشهيد محمد باقر الصدر ـ مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ـ العارف للمطبوعات ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠١٢ م ـ ١٤٣٣ هـ.
- موسوعة الإمام علي عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ ـ محمد الريشهري ـ المساعدان: السيد محمد كاظم الطبأطبائي والسيد محمود الطبأطبائي ـ تحقيق مركز بحوث دار الحديث ـ دار الحديث للطباعة والنشر ـ الطبعة الثانية ١٤٢٥ هـ.

- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ـ محمد علي التهانوي ـ تقديم وإشراف ومراجعة الدكتور رفيق العجم ـ تحقيق: علي دحروج ـ مكتبة لبنان ناشرون ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٦ م.
- ميزان الحكمة ـ محمد الريشهري ـ تحقيق: دار الحديث / قم ـ طباعة ونشر: دار الحديث ـ الطبعة الأولى.
- الميزان في تفسير القرآن ـ العلامة السيد محمد حسين الطبأطبائي ـ مطبوعات الأندلس العالمية ـ بيروت ـ لبنان ـ النجف الأشرف ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠١٠ م ـ ١٤٣١ هـ.
- النبي الإنسان ومقالات أُخرى ـ محمود تيمور ـ مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمايز ـ المطبعة النموذجية.
- النص والمرجعية، قراءة في فهم النص ـ علي حسن هذيلي ـ سفينة النجاة ـ العراق ـ ميسان ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠١٣ م.
- نظرية الإمامة رؤية قرآنية بحوث حول الإمامة حوار مع السيد كمال الحيدري ـ إعداد جواد علي كسار ـ مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٥ م.
- النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ـ عبد الله محمد الغذامي ـ المركز الثقافي العربي ـ المملكة المغربية ـ الدار البيضاء ـ لبنان ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ ٢٠٠٥.
- نقد الخطاب الديني ـ نصر حامد أبو زيد ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ بيروت ـ الطبعة الثالث ـ ٢٠٠٧ م.
- النهاية في غريب الأثر ـ أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي ـ المكتبة العلمية، بيروت ـ ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.
- نهج البلاغة ـ الامام علي ـ جمع الشريف الرضي ـ تحقيق: السيد هاشم الميلاني ـ مطبعة التعارف ـ منشورات العتبة العلوية المقدسة ـ الطبعة الثالثة المصححة ـ سنة الطبع ٢٠١٠ م.
- هاشم وعبد شمس ـ حسين الشاكري ـ مطبعة ستارة.
- الهوية والسرد، دراسات في النظرية والنقد الثقافي ـ نادر كاظم ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٦ م.
- وقعة صفين ـ ابن مزاحم المنقري ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ مطبعة المدني ـ مصر ـ الطبعة الثانية ـ منشورات المؤسسة العربية الحديثة ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٢ هـ.

- يتيمة الدهر ـ الثعالبي ـ شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

الرسائل الجامعية:

- الآخر في الشعر الأندلسي ـ حسن منصور محمد الفريداوي ـ كلية التربية الأساسية ـ الجامعة المستنصرية ـ ٢٠١١ م ـ (رسالة ماجستير).
- الآخر في شعر المتنبي ـ سعد حمد يونس الراشدي ـ كلية التربية ـ جامعة الموصل ـ ٢٠٠٥ م.
- ثنائية الذات والآخر في شعر السّياب ـ علي عبد الرحيم كريم المالكي ـ كلية التربية ـ جامعة بابل ـ ٢٠٠٧ م ـ (رسالة ماجستير)

الدوريات:

- مجلة المنهج ـ مركز الدراسات التخصصية ـ مطبعة الرسل ـ بيروت ـ لبنان ـ العدد ١٦ ـ السنة٤ – ١٤٣٢هـ.
- مجلة مسارات، العدد١ ـ السنة٣، ربيع ٢٠٠٧.